المناهل



30

المناهل

تصدرها
وزارة الشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الثلاثون
السنة الحادية عشرة

شوال 1404
يوليو 1984



تهنئة "المناهل"
بعيد الشباب

يصدر هذا العدد الثالث من مجلة "المناهل" والمغرب بجميع أفراده وهيآته ومنظماته يتأهب مبتهجاً مغتبطاً للاحتفال بعيد الشباب المجيد، احتفالاً يناسب ما في قلوب المغاربة أجمعين لعاهلهم المفدى من إعزاز وإكبار.

وتغتنم أسرة مجلة "المناهل" فرصة حلول هذه الذكرى العزيزة، لترفع آيات التهاني والتبريك إلى قائد المغرب الحكيم، وصانع أمجاده، صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله.

وإذ ترفع أسرة "المناهل" أسمى عواطف محبتها وولائها وتعلقها الكلي بشخص جلالته، فإنها تضرع إليه سبحانه أن يعيد عليه هذا العيد، وعلى أسرته بأعظم وأقوى المسرات، وأن يطيل عمره، ويقر عينه الكريمة بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وبصنوه الأمير المحبوب مولاي رشيد، وبأخواتهما الأميرات المبجلات وأن يحقق بسديد رأيه، وجميل تيسيره ما يطمح إليه شعبه من واسع الآمال.

المناهل

فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

إشكالية اللغة والفكر

د. محمد الكتاني

- 1 -

منذ انبعث العالم العربي من هجوعه في النصف الأخير من القرن الماضي وهو يبحث عن ذاتيته ويتحسس طريق نهضته، كأنما كان يحاول الخروج من تحت أنقاض بناء شامخ تهاوى فوقه. كان هذا العالم يعيش على وتيرة من حياة مقيدة بكل أثقال وأوزار العصور التي خلت. فلما انفتح على العالم الغربي بسبب الاستعمار والغزو الأوربي لبلاده زادته الحضارة الجديدة الوافدة ارتباكا وحيرة. إذ انقسم رأي أهل الرأي فيه حول ما ينبغي أن يسلكوه لتحقيق نهضته، على أنحاء من التفكير. فكانت طائفة من مثقفيه تدعوه إلى النظر إلى الوراء والأخذ عن السلف، أو إحياء تراث السلف، وكانت طائفة من مثقفيه تدعوه للنظر نحو الامام والركض وراء الغرب للحاق بركبه في العلم والحضارة، بينما كانت طوائف شتى تقترح حلولا مختلفة بين هؤلاء وأولئك.

وكانت الضوضاء الفكرية التي ارتفعت بالدعوات والآراء المختلفة المتصارعة مما يزيده بلبالا وخبالا. وكان شر ما في هذه الضوضاء أنها كانت تحول بين العقول وبين الأصوات المخلصة يومئذ، تلك التي كانت تنفذ إلى جوهر الداء والدواء. وكانت ترى أن البداية المنهجية لبناء النهضة يجب أن تنطلق من إصلاح الفكر وتقويم النظر إلى الأشياء من جديد. ثم إصلاح اللغة.

وفي هذه اللحظة قال الشيخ محمد عبده : «وارتفع صوتي بالدعوة إلى إصلاح أمرين خطيرين أو عظيمين» :

1 ـ تحرير الفكر من التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة.

2 ـ إصلاح اللغة العربية.

هكذا بدأ منهج الإصلاح لمفكر عميق النظر، فهو يقوم على قطبي الفكر واللغة. وقد كان إصلاح اللغة يعني تحريرها من الجمود، وإحياء تراثها بإحياء ثقافتها من جديد. بعد أن فسدت أذواق الناس وجمدت قرائحهم، واستعجمت ألسنتهم، ووقعت القطيعة بينهم وبين تاريخهم وتراثهم.

لم يفهم الناس يومئذ معنى أن تكون البداية من اللغة هي البداية المنهجية للنهضة، بل مشوا مكبين على وجوههم، وظنوا أن البداية للرقي هي في اصطناع الأزياء الجديدة، واستهلاك المصنوعات الغربية الحديثة. إذ كان تصورهم للغة من البساطة بحيث لم يتجاوز حدود الإدراك العامي. إلا أن الزمن كان كفيلا بأن يظهر ذلك التناقض الذي ينطوي عليه واقع الأمة العربية يومئذ، إذ بعد مرور عقدين أو ثلاثة من السنين بدأ الصراع اللغوي بين أنصار الفصحى وبين أنصار العامية؛ بين دعاة القومية الضيقة

الذين رأوا منهج النهضة في إحياء لغات مندثرة أو اصطناع عاميات مبتذلة، وبين دعاة اللغة العربية وحماتها الذين رأوا ألا قومية ولا شخصية إلا في إطار الإسلام والعروبة بالمعنى اللغوي لا العرقي.

وأسهم الأجانب المستعمرون والمبشرون يومئذ في تحريك ذلك الصراع في المغرب والمشرق على حد سواء. واتخذت الدعوة إلى العاميات في العالم العربي شكل حملة منسقة منذ بداية هذا القرن إلى منتصفه. وأثناء ذلك ظهرت الدعوة إلى إلغاء النحو العربي أو إلى تجديده، وإلى إلغاء البلاغة العربية أو تطويرها، وإلى الثورة على الأدب العربي وإلقائه في البحر. والثورة على كل ماضي الأمة العربية واعتبار الماضي العربي بالنسبة لبعض البلاد العربية مرحلة من الاستعمار والتبعية والانغلاق والسقوط في عصور الظلام (1).

وواجهت هذه الثورة الفكرية الهوجاء يومئذ مقاومة صامدة آمن رجالها بالأصالة الحضارية للأمة العربية وبالتراث الإسلامي، وباللغة العربية. وشهد لهم التاريخ الحديث بالبلاء الحسن في هذا الصراع. ولكن موقف هؤلاء لم يتجاوز حدود الدعوة إلى المحافظة والثبات على القيم، والصمود في وجه الثورة، في حين كان العصر والمرحلة التاريخية الحاسمة يتطلبان إعادة النظر في تقويم كل شيء.

لم يمتد الصراع إلى اللغة يومئذ في نطاق الصراع الايديولوجي والاستعماري الذي شهده العالم العربي وما يزال يشهده حتى اليوم مصادفة واتفاقا. وإنما امتد الصراع إلى اللغة على أساس واضح وخطة مبينة. فإن

---

1) راجع تفاصيل هذه الآراء وتحليلها وردها إلى أصولها في كتابنا (الصراع بين القديم والجديد).

اللغة التي كانت تسدد إليها يومئذ سهام الخصوم وحملات الطاعنين كانت بمثابة مستودع التراث العربي والإسلامي. وهذا التراث كان الحصن الحصين للعقيدة، والهواية القومية والتاريخية. فهو (أي التراث) القيم على استمرار الفكر الإسلامي، والقيم على استمرار الطابع العربي والعامل المشترك في صناعة المصير العربي الواحد.

وكان القضاء على هذه الحقائق أو تزييفها غير ممكن إلا بإحداث القطيعة بين اللغة العربية والأجيال الجديدة من أبناء الأمة العربية، وذلك بردهم إلى لهجات محلية متفرقة بحيث تقوم حدود لغوية صارمة بين كل قطر عربي وقطر. ويصبح التراث المشترك الذي صنعته القرون وأبدعته السيرة الحضارية غريبا على الألسن والعقول. أو قل يصبح تراثا أجنبيا يحتاج إلى الترجمة إلى هذه اللهجات التي تحولت إلى لغات، وهم لن يستطيعوا ترجمته، فضلا عن قراءته، فضلا عن تمثله والارتواء منه.

وهكذا يتم الفصل بين اللغة وبين الفكر، على أساس تنشئة فكر جديد ذي أصول مبتدعة أو مجلوبة، وبقدر ما كانت هذه الغارة الشعواء شديدة الوقع بقدر ما كانت مقاومتها وتحديها شديدي المراس. وبقدر ما كان الداعون المخلصون من أبناء الأمة العربية إلى مستوى التعبير عن المرحلة التاريخية والحضارية، واتخاذها أداة طيعة للبناء والتجديد.

كان منطق التجديد اللغوي، وإحياء اللغة، والارتفاع بها وبالناطقين بها وبالثقافة المعتملة فيها إلى المستوى المطلوب، من خلالها وبواسطتها منطقا يفرضه الواقع وتمليه طبيعة التاريخ.

فعندما قامت الثورة الفرنسية مثلا في أواخر القرن الثامن (1789) لم

تمض أكثر من خمسة أعوام عليها حتى أسست في فرنسا الأكاديمية القومية للعلوم والآداب والفنون والأخلاق والسياسة، وذلك في ضوء ما مضى من تاريخ فرنسا، وفي ضوء ما تستقبله من مصير، أو تطور شامل، وكان من فروع البحث التي حددت لهذا المعهد القومي فرع بحث وتحليل علاقة الفكر بالعالم الخارجي، أي بالحواس، وباللغة، وبالمعرفة الإنسانية.

وقد قدم أحد أعضاء هذه الأكاديمية رأيا واضحا في هذا الموضوع الذي نتحدث عنه. وهو أن اللغة ليست لمجرد التعبير عن أفكار تكونت بل هي جزء لا يتجزأ من عملية التفكير ذاتها. وإذن فتطور العلوم والمعارف مرهون بتطور اللغة أو تطويرها، وهي نتيجة يمكن أن تصاغ على نحو آخر. وهو أن من المحال تحقيق تغيير للإنسان أو ترقيه للإنسان مالم يسبق ذلك تغيير علاقته باللغة أو تطوير إحساسه باللغة، وإقداره على التأثر بها والتواصل معها.

وفي هذا السياق ترد أفكار ودعوات بعض المفكرين الفلاسفة من قادة القوميات الغربية في العصور الحديثة حول دور اللغة في خلق الفكر، وتأسيس الشخصية القومية. وتأهيل الإنسان للابداع. فهذا هردر Herder الألماني يعلن أن رؤية الإنسان للعالم راجعة بالأساس النسق اللغوي الذي ينشئها إنشاء. وأن لغة الأمة تتضمن هذه الرؤية التي توجه الأفراد وتوحد بينهم داخلها. فاللغة ليست أداة أو وسيلة وحسب بل هي أكثر من ذلك بالنسبة للأمة ولفكر الأمة، فهي الكل الحضاري والمستودع الثقافي والشكل الفكري (2).

---

2) أنظر مقالة نور الدين كريدس عن اللغة بين معرفة الواقع وواقع المعرفة. مجلة الفكر التونسية 1984/29.

وهي نفس الفكرة التي يتلقاها مفكر آخر هو هامبولد Humbold ليحولها إلى صياغة جديدة. وهي أن اللغة هي أداة تغيير العالم وإعادة بنائه. ولن نستطيع أن ندرك أبعاد هذا الرأي إلا إذا وقفنا بالفعل ومن خلال التاريخ الإنساني على قدرة اللغة وطاقتها الابداعية ووظائفها التطويرية من خلال نشوء الأمم وازدهارها وخمولها، حيث نجد وراء كل نهضة حضارية نهضة لغوية تزامن ازدهار الفكر وحيويته.

وهذا ما تجلى في عصر النهضة بالنسبة للوطن العربي حين صاحب الوعي القومي والوعي الديني دعوات إلى إحياء اللغة العربية والانطلاق من تأسيس الفكرة القومية العربية أحيانا على أساس لغوي، وقد غلا بعض الدعاة من أنصار القوميات العرقية في الدعوة إلى لغات مندثرة أو طالبوا بالتحول عن اللغة الفصحى إلى العاميات كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وكان هؤلاء الدعاة الذين اعتبروا اللغة مظهرا وقاعدة في نفس الوقت للنهضة الجديدة لطفي السيد، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل، وأمين الخولي من المصريين، وإسعاف النشاشيبي من فلسطين، وزكيّ الأرسوزي وسعيد الأفغاني من سوريا وغيرهم كثير إن لم نقل إن كل داعية مصلح ومفكر سياسي كان ينطلق من الدعوة إلى اعتبار اللغة العربية الاطار القومي اللغوي لتحقيق نهضة فكرية واجتماعية.

وقد وقفت طويلا في كتابي (الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث) على كل الأفكار المتصلة بإحياء اللغة العربية والدعوة إلى تجديدها أو دعوة خصومها مما لا يسع ذكره الآن. ويكفي أن نورد عناصر المنطق الذي رد به الرافعي على دعاة تمصير اللغة العربية باسم التجديد فيها وذلك أنه اعتبر اللغة العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن

الكريم، ولذلك يجب أن تظل لغة القرآن مفهومة بل متذوقة بل ظاهرة الاعجاز، ولا يتحقق ذلك إلا بممارسة الفصحى والتأدب بآدابها والاحتذاء عليها. وإذا كانت خاصية العربية في الفصاحة والبيان ليست في الألفاظ ولكن في تركيب الألفاظ، وأنساق التعبير وأسلوب الصياغة، فإن الابقاء على هذه اللغة معناه إدراك دقائق العربية واستيعاب قوانينها نحويا وبلاغيا ومعجميا. فإذا كان ذلك صحيحا وهو أمر لا شك فيه فيجب أن نحرص كما يقول على الأصل الصحيح القوي الذي في أيدينا ونتحمل فيه ضعف الضعفاء ونصبر على مدافعتهم عن إفساده حتى ينشأ جيل أقوى من جيل (3).

وهناك المفكر العربي السوري زكي الأرسوزي الذي ألف كتابين عن اللغة العربية وضع فيهما فلسفة خاصة تقوم على اعتبار كون الأمة أي أمة لا تتجلى أصالتها وعبقريتها إلا في لغتها، فاللغة بالنسبة لأفراد تلك الأمة ليست مجرد أداة للتفاهم وإنما هي لباس لفكرهم وطباعهم ومرآة لعلاقتهم اللامتناهية مع الكون والتاريخ (4).

كانت أفكار هؤلاء المفكرين وأفكار سواهم تنطق بإحساس العرب وهم يستجمعون أنفسهم ويخوضون معركة مصيرهم ضد الاحتلال الأجنبي والهيمنة الفكرية الأجنبية فكانت دعوتهم منسجمة مع روح عصر النهضة.

---

3) الصراع بين القديم والجديد 976/795.

4) صدر الكتابان أحدهما في دمشق سنة 1943 والثاني سنة 1953 ثم جمعت أثاره في مجلدين صدرا بدمشق سنة 1972.

- 2 -

ولا نبعد في البحث عن تلك النهضة والنهضة العربية الكبرى عند ظهور الإسلام إنما كانت مثالا على هذه الحقيقة. فالواقع أننا أمة أنشأتها معجزة القرآن وهذه النشأة تعلمنا الكثير من الحقائق عن علاقة الفكر باللغة. فنشأة الدولة الإسلامية ثم الحضارة الإسلامية، ثم الفكر الإسلامي، كل ذلك جاء نتيجة لنفاذ كلمة الله إلى أعماق ذلك المجتمع الذي ظل يتأهل عبر العصور الجاهلية للإلتحام بجوهر الكلمة المبدعة. ولم يكن للعرب علم غير علم لغتهم، وشعرهم وخطابتهم. فلما جاءهم الخطاب الإلهي اهتزوا له اهتزاز الأرض الموات أصابها غيث فارتوت ثم أينعت.

وتاريخنا الثقافي والحضاري مصداق للمقولة الدائرة (في البدء كانت الكلمة) لأن البداية لانشاء تاريخنا كان تلقيا عميقا لكلمة (إقرأ) وما تلاها من آيات بينات وغيرت نظرة أسلافنا للواقع، وحفزتهم إلى السيطرة عليه. وامتلاك ناصية العلم، وعمارة الأرض ونشر الإسلام ومعايشة الثقافات.

فالعربي الذي لا يهتز اليوم للغة القرآن ولا يستوعبها، ولا ينفعل بسحرها، ولا يدرك آماد إعجازها إنسان عاجز عن اللحاق بتاريخه فاقد للاحساس به. فضلا عن كونه عاجزا عن الاضافة إليه وإثرائه، لأنه ضائع بين قوميات لغوية، لا ينتمي لأيّ منها إلا على سبيل التبعية الفكرية والوجدانية.

وأعتقد بهذا الصدد أنه يستحيل قيام نهضة عربية خلاقة أو قيام مجتمع إسلامي موحد من غير جعل اللغة أداة لتلك النهضة وللتعبير عن حركة

الخلق فيها. ومن غير جعل اللغة أداة لهذه الوحدة والتوحيد بشكل من الأشكال مهما بدأ هذا الرأي مغرقا في الخيال.

- 3 -

وهناك مظهر آخر لالتحام اللغة والفكر من خلال التراث الإنساني كله، ومن خلال واقع الصراع الفكري في ثقافة من الثقافات أو مجتمع من المجتمعات. وهو دليل على أن اللغة أداة للفكر ومادة له في نفس الوقت، ويخيل إلي أن التفكير إذ يتكون من التصورات والأحكام فإن تحليله إلى عناصره الأساسية لا يمكن أن ينتهي إلى غير ألفاظ اللغة المجسمة لتلك العناصر. وهذا ما يؤكد نظرية الفيلسوف المنطقي المعاصر فتجنشتين القائلة بأن اللغة مطابقة للواقع. فكما أن اللغة تنحل إلى قضايا فكذلك الواقع ينحل إلى وقائع، وبما أن القضايا تنحل إلى قضايا أولية فكذلك الوقائع تنحل إلى مكونات جزئية. والقضايا في النهاية ألفاظ وأسماء بسيطة لا يمكن تعريفها بغير نفسها، وكذلك الوقائع الجزئية تتكون من أشياء بسيطة لا يمكن تحليلها وإنما يمكن تسميتها فقط. فالأسماء إذن هي بداية تكوين الفكر واللغة معا. هي منطلق تكوين الواقع في التصور وبناء القضايا في المنطق والتفكير.

وتحتوي اللغة منطق الفكر نفسه وذلك لأنها تتيح للفكر تكوين الرموز الشيئية والرموز البنائية، أي تكوين القضايا في صياغة صحيحة دالة على مستويات متعددة. وتتوقف صحة التفكير على صحة استعمال هذه الرموز. وعندما يقع الاختلاف في الأفكار والآراء فقد يكون الباعث على

هذا الاختلاف في الغالب خلافا في استعمال اللغة أو توجيه الدالة. وليس قصدي التهوين من شأن الاختلافات باعتبارها مجرد خلافات لغوية، فقد يكون الاختلاف منهجيا وقد يكون موضوعيا، ولكن اللغة تلعب دورا مهما في تعميق هذا الخلاف بين الآراء.

وهناك مثال في تاريخ الفكر الإسلامي يؤكد ما نقول ـ فقد كان في تاريخ هذا الفكر طائفة من اللغويين والأصوليين والفقهاء والمحدثين- تقيدت بالنصوص. أي جعلت الفكر تابعا للفظ الشرعي وللدلالة التي ينطوي عليها اللفظ. وهناك طائفة أخرى أنكرت أن يكون الفكر هو التابع للغة، لأن منطقها من منطقه.

إن نزاع علماء الكلام بين أشاعرة ومعتزلة، وخلاف أهل الباطن مع أهل الظاهر، إنما يتحور جله حول الموقف من النص الشرعي. فطائفة وقفت على ظاهرة، وطائفة ذهبت في تأويله كل مذهب. طائفة تعتبر اللغة رمزا أكثر منها تحديدا لواقع أو حقيقة. وطائفة تعتبر اللغة حدودا وحقائق مطابقة لمعانيها.

وهكذا يرجع الخلاف في أساسه إلى تحديد علاقة الفكر باللغة وعلاقة الواقع باللغة، فهل اللغة فوق العقل، وفوق حدود الفكر، أم العقل هو الذي يفوق اللغة ويجب أن يتحكم فيها. وقد ظهرت المشكلة في عمقها في بداية ظهور الفكر الإسلامي عندما أصبح النص القرآني موضع نظر وتأويل وتحليل.

وعبر عن إدراك المشكلة في إطارها اللغوي من رجال الفكر الإسلامي يومئذ. فهذا ابن قتيبة يؤلف رسالة قيمة بعنوان (الاختلاف في اللفظ والرد

على الجهمية والمشبهة) ليحسم الخلاف بين المحدثين والمتكلمين يومئذ في بعض قضايا علم الكلام.

وفي هذه الرسالة أمثلة عديدة تدل على الموقفين المشار إليهما من قبل. موقف من يجعل العقل متحكما في اللغة، وموقف من يجعل اللغة متحكمة في العقل.

وظهر في الفكر الإسلامي منذ ذلك الحين تيار قوي يضم المعتزلة والمتصوفة والمتفلسفة يجنحون إلى التأويل. كل على شاكلته، وذلك ليتسق مذهبهم ومواقفهم مع النص القرآني حين يكون ظاهره مخالفا لتلك المواقف. ويمكن القول بأن طبيعة النص القرآني المتضمن للمحكم والمتشابه من الآيات هي التي حملت المتأولين على تأويلهم. وقد يطعن طاعن اليوم فيقول إن القرآن هو الذي أحوج إلى التأويل وأوقع في الاشكال، إذ لو كان قد ورد على نسق واحد من إحكام الآيات لارتفعت الحاجة إلى التأويل. ولزمت الحجة وذهب الخلاف من حيث أتى. ونرد على ذلك قائلين : إنما يتعين وجه الأحكام والتشبيه من جهة موضوع الكلام لا من جهة قائله : فالموضوع الذي يعرض له القول هو الذي يحدد طبيعة القول. فإن كان الموضوع ماديا ملموسا أو واقعا محسوسا أو معنى محدودا بالجهة والصفة والزمان والمقولات الأخرى كانت العبارة عنه محكمة لأنه محكم في تصوره من حيث هو. وإن كان الموضوع مجردا غير محسوس ولا مقيد ولا مخصص ولا مقيس ولا هو من جملة ما يقع عليه اللمس والإشارة كانت العبارة عنه محوجة إلى المجاز، وكانت الدلالة عليه داخلة في أنواع من الدلالات مختلفة غير دلالة المطابقة.

فالمحكم والمتشابه من القرآن يـأتيـان من جهـة موضوع كل منهما. لأن اللغة التي جاء بها القرآن أو نزل بها هي لغـة العرب التي اتسعت في إعجـاز وضروب الاستعارة على ما يعرفه علمـاء البلاغـة. على أن ذلـك المتشـابـه في القرآن ليس مما يعي العقول فهمه. كما قـال ابن قتيبـة إذ لم ينزل اللـه شيئـا من القرآن إلا لينفع به عباده، ويدل على معنى أراده.

وكـذلـك كان رأي مفكري المعتزلـة. في أن العلمـاء يعلمـون تـأويـل القرآن لأن المقصود من الخطـاب معرفـة مراد المخـاطـب، فـوجب أن يكـون لمعرفة ذلك طريق تفضي إليه وإلا كان الخطاب تعميا وتلبيسا وعدولا عن البيان.

- 4 -

يقودنا هذا التمهيد إلى وضع إشكالية اللغـة والفكر على صعيـد أعم من أن يكون لغويا بحتا. لأنه يتعلق بالفكر وبالوجود الإنساني من حيث هو.

فإذا كان الإنسان يدرك بقدرته الفطرية نظامـا لغويـا مـا، ثم يظل يتعلم - كما هو شأن الطفل - كيف يحول إدراكه لذلك النظام إلى بناء لغوي (كلام). فمـا دور الفكر إذن داخل اللغـة أو خـارجهـا. إن من الـواضـح في نظريـة تشومسكي أن اللغـة شيء وللتفكير شيء آخر. وأن التفكير يستعمـل اللغة كوسيلة وأداة للتعبير لا غير.

لابد هنا من التذكير بأن المواقف الرئيسيـة من علاقـة الفكر بـاللغـة تعود إلى ثلاثة مواقف :

1 - موقف يعتبر اللغة والفكر شيئا واحدا.

2 ـ موقف يعتبر اللغة قبل الفكر، وبواسطتها يتم إنشاء الفكر ذاته.

3 ـ موقف يعتبر الفكر قبل اللغة ومستقلا عنها، وأن اللغة مجرد وعاء خاجري لعملية التفكير.

1) وأصحاب الموقف الأول هم العلماء النفسانيون السلوكيون أمثال (سكينير Skinner)، ولم تثبت نظريتهم عند التمحيص لأنه فضلا عما ثبت بالتجارب من كون الفكر يظل يشتغل حتى في حالة عجز الإنسان عن الكلام أو عدم قدرته على التعبير، فإننا نشعر جميعا بشكل مباشر أن تفكيرنا مستقل عن اللغة التي نعبر بها. قد يعترض المعترض هنا بأن المقصود باللغة هو النظام التجريدي العميق الذي يدركه كل إنسان بفطرته ويستخدمه بقدر طاقته. وأن هذا النظام ملازم للتفكير وضروري له. وهذا اعتراض وجيه، ولكنه يحتاج إلى تمحيص.

2) وأصحاب الموقف الثاني هم الدارسون الأنتروبولوجيون بعامة وبعض المفكرين الفلاسفة والمناطقة الوضعيين المعاصرين الذين قادهم البحث إلى الاعتقاد بأن اللغة هي التي تحدد طبيعة التفكير. فخصائص كل لغة تحدد خصائص تفكير أهلها. وهؤلاء القائلون بهذه النظرية متأثرون طبعا بالنزعة الاجتماعية القائلة بأن المجتمع هو الذي يصنع أفراده، يحدد لهم لغتهم كما يحدد لهم تفكيرهم.

ويعتبر الفيلسوف النسوي لودفينع فتجنشتين Ludlwig Wittgenstein (1889 ـ 1951) من أكبر الفلاسفة الوضعيين والمناطقة الكبار المعاصرين الذين تعمقوا علاقة الفكر باللغة، وقد كان يعتقد ـ وهذه عبارته ـ أن

حـدود اللغـة التي أفهمهـا هي حـدود عـالمي (5). كما كان يعتقـد أيضـا أن الفلسفة عبارة عن معركة ضد البلبلة التي تحدث في عقولنا نتيجة لاستخدام اللغـة (6) فسبب المشكـلات الفلسفيـة والشكـوك الفلسفيـة كلهـا ليس إلا استخدام اللغة استخداما خاطئا.

3) أما أصحاب الموقف الثالث فهم الفلاسفـة المثـاليون بعـامـة الـذين يعتقدون بأن اللغة ليست سوى وسيلـة للتعبير، وبـأنهـا مستقلـة عن الفكر وتابعة له تماما. وأن الأفكار تنشأ من غير أن يكون للغة دور في تكوينهـا، لأن الفكر الإنساني ينبعث داخليا في حالات الصفاء الذهني البعيـد عن كل أصوات اللغـة وتـأثيرهـا. وهـذا معنى كـون الإنســان يستغرق في تفكيره، ويستطيع أن يعبر عنـه بغير اللغـة، بـالرسم والنحت والتصوير والموسيقى، وبشتى أشكال التعبير الأخرى. بل هناك من يذهب بعيدا فيدعي أن اللغـة كثيرا ما تجهض الفكرة. وأن الشاعر حالما ينتهي من قصيدته يشعر بأن مـا أراد التعبير عنه هو أكثر بكثير مما عبر عنه بالفعل.

ويتسق هـذا الموقف مع النظريـة القـائلـة بـأن اللغـة هي نظـام من التواصل أي من الرموز والإشارات المعبرة عن أفكار ومعان لها استقلالها.

لم يستطع المـاديون السكوت على هـذا الموقف الـذي يشطر الـوجـود الإنسـاني إلى روحي ومادي، ويعتبر الفكر أو الروح أسبق وأعلى من المـادة. بل هاجموا هذا الموقف من أساسه. هاجم هؤلاء المـاديون الفلاسفـة المثـاليين في موقفهم من اللغـة. وهـاجموا الوضعيين المنطقيين، الـذين ينكرون وجـود

---

5) فتجنشتين ـ 147.

6) المرجع السابق/149.

واقع موضوعي خارج اللغة أو خارج ذواتنا. القائلين بأن حدود العالم هي حدود اللغة. ورفضوا انشطار الوجود الموضوعي - في مستوى اللغة - إلى لفظ ومعنى، وفي مستوى الأشياء إلى ذات وموضوع، وفكر وواقع، أو لغة وفكر.

ويقترح بعض المنظرين اللغويين السوفيت (سميرنيتسكي) حلا للاشكال افتراض لغة داخلية هي غير اللغة الخارجية. فيعود بنا إلى نظرية تشومسكي في هذا التقسيم. ثم يعتبر أن الفكر لا يمكن أن يتم بغير تلك اللغة الداخلية على الأقل. وهو الافتراض الذي يقوم على أساس تقسيم (دي سوسور) نفسه في التمييز بين اللغة والكلام.

- 5 -

وقد يتساءل المتسائل : ماذا قدمه الفكر الإسلامي من آراء في مجال فلسفة اللغة. ولا سيا ونحن نعلم أن المتكلمين قد خاضوا في بحث مشكلة اللغة، وقادهم التأويل إلى النظر في علاقة الفكر باللغة.

إن الفكر الإسلامي اعتبر اللغة واصلا بين وجودين : أما أحدهما فوجود مطلق هو الله. وأما الثاني فوجود نسبي محدود وهو الإنسان. فاللغة واسطة بين عالمين أو وجودين أو طرفين.

والطرح الذي يقدمه الفلاسفة المسلمون للغة ينطلق من موقف إبستمولوجي بمعنى أنهم ينطلقون من تصور شامل للوجود يضعون الإنسان في حيز منه كما يوضع جهاز داخل نظام معين كنظام، ثم يعتبرون وجود الإنسان الوظيفي مرتهنا بالموضع الذي يحتله، وبالنظام الشامل الذي يحيط

به. وبالهدف الأسمى الذي وجد من أجله. فعندما ينص القرآن على هذه الحقيقة : (خلق الإنسان علمه البيان) أو ينص على حقيقة أخرى : (وعلم آدم الأسماء كلها) يكون قد حدد المجال الذي على الفكر أن يتحرك لمثه، وفالإنسان عند الجاحظ كما هو عند فخر الدين الرازي كائن يعي وجوده ووعيه للوجود فكر ناطق. ولا يكون الفكر إلا ناطقا. كما لا يكون النطق إلا فكرا.

قال الجاحظ : «ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين : شيء جعل حكمة وهولا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة. وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة. فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل من جهة الدلالة أنه حكمة. واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل، والآخر دليل يستدل، فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدل. فشارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجمادات في الدلالة. وفي عدم الاستدلال واجتمع للإنسان أن كان دليلا مستدلا، ثم جعل للمستدل سبب يدل على وجوه استدلاله ووجوه ما نتج له الاستدلال وسموا ذلك بيانا» (7).

فاللغة لدى الإنسان اقتضاء وجودي. وعلاقته بها الطبع والاقتضاء لا بالغرض والاتفاق. وبهذا المنحى من التفكير يكون الإنسان قد وهب الفكر واللغة معا لا أسبقية لأحدهما على الآخر وإنما وجودهما معا داخل جدلية التكامل لا يتراءى لك أحدهما متقدما على الآخر إلا تراءى لك من وجه آخر أنه متأخر عنه.

---

7) الحيوان 1/ص 33.

أما معنى كون اللغـة واصلـة بين وجودين وواسطـة بين عـالمين. فـإن أكثر مما يتحقق ذلـك في الإنسـان. فـالإنسـان روح ومـادة. واللغـة واصلـة بينهما. والله مطلق والإنسـان نسبي وكلامـه تعـالى واسطـة بينهما. ووجـود الأشياء في حد ذاتها كون، ووجود الحكمة فيها كون آخر، واللغـة مرآة بينهما والانسان في ذاتيته عالم وسائر أفراده عوالم واللغة واصلة بينهما.

وبهـذا المعنى نـدرك الفكرة التي قررهـا ابن حزم حين نـزل الظـاهرة اللغوية منزلة البـاعث على التئـام البشر مع مقتضيـات الطبيعـة وبـالتـالي لالتئام الكون جملة. إذ يقرر أن علاقـة الإنسـان بـالأشيـاء إنمـا هي علاقـة (معرفة) ثم يقول : إنه لا سبيل إلى معرفة حقائق الأشياء إلا بتوسط اللفـظ ثم يمضي في تقرير هذه الخصوصيـة الإنسـانيـة فيضيف : ان اللغـة فضلا عن كونها منفذا لتحقيق التواصل بـالوجود فـإنهـا كـذلـك جسر الإنسـانيـة نحو إدراك القيم المجردة.

فـاللغـة إذن كما حـددهـا الفكر الإسـلامي تترقى في منـازل الـوجـود الإنسـاني فتكون قوة كامنـة. ثم تصير قوة بـالفعـل ثم تصير اكتسـابـا وفكرا وروية، ثم تصير عقلا مجردا وبذلـك تلتحم اللغـة بـالفكر فيكون لكل منهما من الوجود بقدر ما للآخر. ولو أن أيا منهما جاء اعتباطـا وارتبـط بـالآخر اتفاقا لكان جوهر كل منهما مباينا للآخر.

فكأن خلقهما تم في لحظـة واحـدة، ومفصلا على قـدر وجود كل منهما. لا تجد إنسانا إلا ولغته بحجم عقله. وعقله بحجم لغته.

وإذا التفتنا إلى نظريات المحـدثين والمعـاصرين ورأينـا تقريرهم كون اللغة بنية ونظـامـا متكاملا متحركا من داخلـه بقوانين كليـة كما تقرر ذلـك

الألسنة البنيوية المعاصرة، فإننا نتساءل : هل تنشأ البنية عرضا من جملة بنيات مختلفة، أم أن البنيات كما نراها في الكائنات العضوية تبرز دفعة واحدة متميزة بكليتها ونظامها الذاتي، شأنها شأن البنيات الصناعية، لا تبرز إلا من خلال صانع وضع صورتها كلية، ثم أنجز تلك الصورة على أساس من التكامل ؟ هذا الادراك العميق النافذ إلى كلية اللغة العربية ونظامها البنيوي هو ما طاف بذهن ابن جني الوقاد. فقال : «إعلم أن واضع اللغة لما أراد صوغها وترتيب أحوالها هجم بفكره على جميعها، ورأى بعين تصوره وجوه جملها وتفاصيلها». وكأن ابن جني هاله نظام اللغة بوصفها كلا متكاملا وقادرا على النمو إلى مالا نهاية، داخل قوانين معينة. وهو نفس ما أراد أن يفسره علميا تشومسكي أحد أعلام الألسنيين المعاصرين الأمريكيين مؤسس النظرية التوليدية والتحويلية. ونظريته تقوم على اعتبار اللغة كلا متجانسا قائما على بنية عميقة يدركها الإنسان المتكلم ويعيها حق الوعي ثم يخضع لها حينما يعبر. أي يقوم بتحويل خصائصها العامة وبشكل عفوي إلى بناء خارجي هو الكلام.

وقد تأكد من خلال التجارب العلمية أن نظرية تشومسكي صحيحة فيما يتعلق بكون الطفل لا يكتسب اللغة عن طريق محاكاة البالغين، بل إنه يفعل ذلك عن طريق تكوين الفرضيات واستعمال قواعد خاصة به، يجري تعديلها باستمرار إلى أن تشبه القواعد التي تحكم لغة الكبار. وأنه أي الطفل يعلم بشكل آلي أو عفوي أن اللغة محكومة بقواعد معينة عليه اكتشافها (8).

---

8) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة للدكتور نايف ضرما. ص/162.

إن ما يمكن ملاحظته بعد استعراض هذه المواقف تجاه إشكالية اللغة والفكر أن الفكر العلمي والفلسفي المعاصر لم ينتهيا إلى نتائج يمكن اعتبارها حقائق نهائية في مجال البعد العقلي للغة، أو البعد اللغوي للفكر.

إذ كانت مناهجهم ذاتها غير قادرة على الوصول إلى نتائج علمية يمكن الاطمئنان إليها. فهذه المناهج داخلية، تتحكم فيها مادة اللغة نفسها وطبيعتها ومنطقها الخاص، ولا يمكن معها الحصول على أي تفسير لما خارج اللغة نفسها من قوانين تتحكم فيها. ولتوضيح ذلك نذكر ما يلي :

لقد أصبحت اللغة كظاهرة إنسانية موضوع كثير من الدراسات والأبحاث العلمية المتنافية باستمرار. واستوجب البحث نفسه تقسيم الظاهرة إلى جوانب. فهناك الجانب الفسيولوجي المتعلق بأجهزة التصويت اللغوي. وهناك جانب الأصوات اللغوية نفسها. وهناك جانب النظام الداخلي لكل لغة. وهناك مستويات متعددة لهذا النظام. كالمستوى الصوتي والمستوى الدلالي والمستوى التركيبي.

غير أنه إذا كان البحث الحديث في اللغة قد تميز بمنهجية علمية وصيغية دقيقة، أدى إلى إثراء الجانب العلمي فإن القضايا الاشكالية المتعلقة بطبيعة اللغة ما تزال دون ما يطمح إليه الباحثون من نتائج. فالقضايا التي شغل القدماء أنفسهم بها ما تزال بغضها في نفس المستوى من الاشكال. كعلاقة اللغة بالفكر، وعلاقة اللغة بالواقع ومصدر اللغة أو نشأتها.

لقد كانت المناهج المصطنعة في البحث الألسني إما دراسة تحصر نفسها في دائرة البنية اللغوية كما تمثلها لغة من اللغات أو مجموعة متقاربة منها، وفي

مستوى من المستويات كالصوتيات أو الدلالة أو التركيب.

وإما دراسة سلوكية نفسية تجريبية تنطلق من منطلق يحصر رؤية المنهج وأهدافه في تأكيد كون اللغة كالفكر مجرد عادات وسلوك يكتسبه الإنسان في حياته.

وإما دراسة منطقية توازن بين قوانين الفكر في الاستدلال والاستنتاج وكيفية استخدام اللغة في هذا المجال.

وإما دراسة تكنولوجية شكلية قائمة على الرياضيات أو المنطق الرياضي لمسايرة نضام البرمجة في العقول الالكترونية، وإذا كانت هذه المناهج تستطيع أن تحقق الكثير من المنجزات العلمية المتصلة بلغة من اللغات ووصفها وصفا دقيقا. فإنها لا تستطيع أن تصل إلى تحديد الوضع الخارجي للغة إلا بدراستها مقترنة بالفكر وبالنفس الإنسانية، لأن اللغة والفكر هما في النهاية شيء واحد. ودراسة الفكر واللغة باعتبارهما المميز للكائن الإنساني عن الحيوان، وعن كل الكائنات الأخرى تفرض وضع المشكلة في إطار الوجود الإنساني، وعلاقته بالعالم ككل.

وهذه النظرة الفلسفية إلى اللغة هي التي بوسعها مواصلة البحث والتأمل في طبيعة اللغة لا كنظام نحوي أو بلاغي أو تعبيري. ولكن كاستعداد ووجود بالقوة داخل الإنسان.

- 7 -

نخلص من هذا العرض إلى النتائج العملية التي يمكن أن تتحول إلى سلوك لغوي بالنسبة لأمتنا التي هي في مرحلة من التاريخ تشعر فيها

بالتخلف وبكونها تفقد الكثير من وسائل تنمية شخصيتها ومنهجية هذه التنمية.

لا شك في أن **النتيجة الأولى** التي تظهر واضحة هي ضرورة ارتباط نهضتنا الفكرية بنهضة لغوية تعبر عن هذا الفكر. وضرورة اعتبار اللغة الوجه الخارجي للشخصية الوطنية. فالذين يبحثون أو ما يزالون يبحثون عن تعويض اللغة العربية بأي لغة أخرى أو جعل هذه اللغة أو تلك في مستوى واحد مع اللغة العربية بحجة أو بأخرى يعملون من حيث يشعرون أولا يشعرون على تفتيت الشخصية المغربية العربية الإسلامية والتنكر لتاريخها.

والنتيجة الثانية أن التاريخ الأوربي الحديث يؤكد لنا أن نهضات الأمم الغربية الحديثة قامت على أسس، منها ما هو علمي وسياسي، ومنها ما هو قومي واجتماعي. وتحتل اللغة أو الشخصية اللغوية المكانة المرموقة بين هذه العوامل. مثلما كان الشأن في نهضتنا العربية التاريخية. فكل نهضة ننشدها خارج نهضة لغوية وأدبية لن يكتب لها النجاح.

والنتيجة الثالثة التي يجب الاعتراف بها هي أن أخلاقنا وتفكيرنا ينعكسان على لغتنا، فلغتنا مرآة لهمومنا ومشاكلنا وعثراتنا وحيرتنا وعند المقارنة بين لغتنا العربية وأي لغة أجنبية يبدو كم يتسع الفرق بين لغة التفكير والتعبير معا، بينما تعلمنا اللغة العربية التي ينفق في تعليمها ما لا يحصى من الجهود والأموال والزمن تظل لغة للتعبير فقط. وهذا ما يفسر فقرنا الفكري والأدبي، لأن التلميذ عندنا يطالب أن يعبر قبل أن يطالب بأن يتأمل ويستنتج.

والنتيجة الرابعة وهي متممة لما قبلها تدفع فكرة كثيرا ما حاول البعض إثباتها في القديم أو الحديث وهي أن اللغات لا تتفاضل لأن مهمتها هي التواصل. وكلما تحقق هذا التواصل كانت اللغة في مستوى كل اللغات الأخرى بالنظر إلى هذه المزية. والحقيقة أن اللغات تتفاضل لأن التفكير يفرض ذلك. فإذا كان التفكير يتفاوت في عمقه وفي قوته وفي سعته وفي قدرته على الشمول والنفاذ إلى حقائق الأشياء وإحكام المنطق وتقصي كل الجزئيات فلا محالة أن تكون اللغة التي يعبر بها لغة متطابقة مع مداركه وعمقه وشموله وإحكام منطقه. فكيف يجوز الادعاء بأن اللغات لا تتفاضل وهي لغات أمم وشعوب منها ما بلغ في الحضارة شأوا بعيدا ومنها ما ظل تبعا لغيره في هذه الحضارة ومنها ما ظل متخلفا أو بدائيا. على أننا لو اعتبرنا اللغات غير متفاضلة لطمسنا حقيقة الابداع الأدبي واعتبرنا أن الاثار الخالدة في الأداب العالمية هي كالكلام العامي الذي يتحاور به الغوغاء وعامة الناس. وإذن فلا بد من اعتبار اللغات متطابقة مع الحضارات والثقافات الإنسانية، فما كان منها متقدما عاليا مبدعا كانت لغته في مستواه، وما كان منها محدودا متخلفا أو بدائيا كانت لغاته في مستواه. واللغة العربية من بين اللغات العالمية التي عبرت عن حضارة من أعظم الحضارات التي أبدعتها الإنسانية وتمثلت الثقافة العالمية في القرون الوسطى وكان أدبها في هذه الحقبة أدبا عالميا بكل ما لهذه الكلمة من معنى. ولذلك فهي قابلة بحكم غناها وعمقها لاستئناف المسيرة الحضارية من غير تعصب لها أو عليها.

لا أثير هنا مشكلة الازدواج اللغوي. لأن هذا الازدواج في عالمنا واقع لا مفر منه، وأداة من أدوات التعايش الحضاري والثقافي. ولكن ما ينبغي

أن يقوم إلى جانب هذا الازدواج هو الإيمان باللغة القومية. باعتبارها النسق اللغوي الوحيد الذي يطابق ثقافتنا ويصلنا بتراثنا، ويرمز إلى شخصيتنا بكل مكوناتها وتطلعاتها.

ولا أثير هنا مشكلة اللهجات المحلية أو الإقليمية لأنها أيضا واقع لا مفر منه باعتبارها ثنائية مفروضة بطبيعة العوامل التي تتكون بها اللهجات بإزاء اللغة القومية الأولى في كل زمان ومكان. إلا أنه يحسن التمييز بين اللغة التي تحتضن التراث العلمي والثقافي وتعبر في نفس الوقت عن حركة تاريخية يندمج فيها الشعب ويتحرك معها مشدودا إلى مبادئها وأهدافها، وبين لغات وقفت في الطريق كما وقفت مثيلاتها فاكتفت بأن تكون لغة أو لهجة تواصل عملي تحت ظل لغة قومية لها طبيعة اللغة الموازية للفكر والثقافة والحضارة القوميتين.

ونعود أخيرا إلى إبراز محور هذه المقالة من خلال الاطار الاجتماعي والحضاري الذي يخصنا نحن المغاربة وهو أن اللغة بالنسبة لنا هي عامل أساسي في صياغة وحدتنا الفكرية والعقائدية والتاريخية والسياسية.

وأن الفكر الذي هو الوجه الآخر لهذه اللغة سيظل فكرا عربيا مسلما لا خيار له أمام هاتين الحقيقتين الدامغتين.

د. محمد الكتاني

مقيدة عن نشاط
دراسة الرياضيات والفلك بمكناس
في القرن التاسع عشر

تقديم وعرض: محمد المنوني

عرفت مدينة مكناس - خلال القرن التاسع عشر - مبادرات رسمية لتنشيط دراسة العلوم الرياضية والفلكية، وذلك ما تحتفظ به مقيدة دونها أحد المستفيدين من هذه المبادرة : محمد العلمي بن أحمد بن رحال البخاري.

ولحسن الحظ فإن مؤلفها يسجل معلومات عن حياته لما يعرض إسمه بين الأسماء الواردة بالمقيدة، وبالضبط عند الترجمة التي تحمل رقم 40، فيشير إلى نسبه وأساتذته الذين درس عليهم، ويعدد وظائفه بالبلاط الحسني ثم العزيزي، كما يذكر اشتغاله بتدريس بعض فروع الرياضيات والفلك بمكناس وغيرها، مع لائحة بأسماء الآخذين عنه، فضلا عن ارتسامات أخرى عن نشاطاته حتى فترة تحرير المقيدة التي نقدم لها، حيث يبدو أن تاريخ تأليفها كان عام 1341 هـ أو بعده بقليل.

وخلال هـذا التـاريـخ وقبلـه انطـلاقـا من بـدء فترة الحمـايـة : يقـع الاستغناء عن معظم الإطـارات المخزنيـة القـديمـة، فينزوي المترجم، ويشتغل بخطة العدالة ـ مع قاضي أحواز مكناس ـ في دكان بحي بريمة، مضيفا لذلك ـ أحيـانـا ـ إلقـاء دروس في الحسـاب والفلـك بمسجـد عـودة وغيره، إلى أن أدركته وفاته ـ بنفس المدينة ـ عام 1356 ـ هـ / 1937 م.

☆ ☆ ☆

والآن نشير إلى أن هـذه المقيـدة كتبهـا برسم ابن زيــدان : مـؤرخ مكناس الرائد، حسب إشارة من المترجم لما يذكر إسمه عند رقم 40.

وقد جاءت صياغتها ضعيفة تعبيرا وإعرابا وهلهلـة في التراكيب، غير أن مضمونها يوثقه اعتمادها من جهـة ابن زيـدان في «إتحـاف أعلام النـاس»، فهو يفيد منها ـ دون أن يشير لهـا ـ عنـد ترجمتـه للأسماء الواردة بـالمقيـدة أرقام 5، 12، 38 1) وسواها، كما اعتمدهـا في أخبـار «بعثـة طرفـايـة» 2)، ثم حلاّ المؤلف ـ مرتين ـ «بالعدل الرضى» 3)، ومن هنا يمكن الاطمئنـان ـ إلى حد ـ إلى أخبار هذا التقييد.

وهـو يتنـاول ـ أصـالـة ـ ذكر طلبـة الجيش البخـاري ـ بمكنــاس ـ المرشحين لـدراسـة العلوم الريـاضيـة والفلكيـة، بمبـادرة من أربعـة سلاطين علويين : المولى عبد الرحمن بن هشام، ومحمد الرابع، والحسن الأول، والعزيز، فيبرز أسماءهم، والأساتيذ الـذين درسوا عليهم، ووظـائفهم، ودرجـة ثقـافتهم، وأحيانا تلاميذهم.

وإلى هـذا يستطرد المؤلف إفـادات جـديـدة عن الثقـافـة الريـاضيـة والفلكية لعدد من الشخصيات : السلطان محمـد الرابع، والقـائـد الجيلاني بن

حم البخاري، وعبد الله بن احماد، ومولاي أحمد الصويري، وغيرهم.

وأيضا : يفصل الحديث عن بعثة طرفاية، حيث كان أحد أعضائها، وكذلك تفاصيل الأشغال الكثيرة لحنطة أفراك، ولما كان هذا الموضوع الأخير وسابقه يبتعدان عن ملامح يقظة المغرب الحديث : لم أثبتها، واقتطعتها من المقيدة التي نمهد لعرضها، ثم نشرت القسم الموضوعي منها.

وقد جاء كتاريخ لنشاط العلوم الرياضية والفلكية بين أوساط نخبة البواخر في مكناس خلال القرن 19، حيث كانت هذه الطبقة تتوزع السكنى في مناطق معينة من هذه المدينة، وخصوصا في أحياء الزيتون، والحصيني، وروى مزين، كما يتميزون في شاراتهم وعاداتهم ونخوتهم، قبل أن يندمج أبناؤهم مع عامة السكان في العصر الحاضر.

☆ ☆ ☆

إن هذه المقيدة أصلها بخط مؤلفها، وتشتمل على 48 ص ضمن دفتر - مستطيل قليل العرض - كان في خزانة الأستاذ المرحوم إدريس بن الماحي الإدريسي القيطوني بفاس، وعن هذا الأصل استخرجت مصورة منه على الورق، غير أن أماكن قليلة منها جاء تصويرها غير واضح، مما جعل مواضع قليلة من هذه المستحرجة يتخللها بياض يسير، وقد طال انتظاري للفرصة المواتية للوقوف - مرة أخرى - على نسخة المؤلف دون جدوى، ولما كانت البياضات يسيرة، ولا تؤثر في المضمون بادرت - الآن - إلى نشر القسم الموضوعي من المقيدة، بعد مقارنته بالمصورة والتعليق عليه.

الرباط   محمد المنوني

بسم الله الرحمن الرحيم.

بيان أسماء بعض طلبة الجيش السعيد البخاري الذين كان انتخبهم المقدس مولانا عبد الرحمن لتعليمهم علم الحساب وعلم الوقت، بقصد الإعانة له على الأوقات المفروضة وغيرها من أو قات العبادات الليلية والنهارية الخ (☆).

وما انتخب ـ أيضا ـ ولده بعده : المولى سيدي محمد المقدس.

وكذا ما انتخبه ـ أيضا ـ ولده : المولى سيدنا ومولانا الحسن قدس سره، وكذا ما انتخبه منهم ـ بعده ـ سيدنا ومولانا عبد العزيز الخ.

فجلهم أبناء أكابر هذا الجيش المبارك، وجلهم أساتيذ، وبعضهم له الحظ في علم العربية والفقه.

فمنهم من كان ملازم الخدمة الشريفة سفرا وحضرا.

ومنهم من كان بها حضرا فقط كالأمناء والعلاقين بالأرحى الخ.

ومنهم من تعلموا الحساب فقط.

ومن تعلم التوقيت هم الذين يسافرون صحبة الركاب الشريف، بقصد ما ذكر أعلاه من مهمات أمور الدين...

وأعيانهم يعرفون علم التعادل (كذا) بالأزياج 4) لحركة الكواكب السبعة 5) السيارة في البروج، وما يعرض لها عند حركتها بذاتها : استقامة، أو رجوعا في الخمسة المتحيرة للخنوس والكنوس 6)، والنيرين : لهما الخسوف

(☆) هذه الاشارة ...هنا وفي مواضع أخرى : اختصار لكلمة « الى آخره ».

والكسوف، وما ينشأ عنها من الأحكام النجمية، وعلم الزيارجة 7) وأحكامها، ويلحق ذلك علم الأشكال الرملية 8)، والكل يسمى نصبة فلكية 9)، وهم الماهرون في التوقيت وعلم الأرصاد بالآلات المعروفات عنهم (كذا)، وهم الحيسوبيون الخ.

وأما أصحاب علم الحساب أجلهم وأفضلهم من يحسن علم الفرائض، والماهرون منهم أعني الحيسوبيون (كذا هم الذين يعرفون علم الهندسة وأشكالها، ودوائرها وخطوطها المتصلة كالمربعات والمثلثات والمساحات والأرصاد والمقادر وعلم المسطرة وغيرها.

والمنفصلة كالأعداد المبسوطة والمركبة، ومنه تسطير صفائح سطر لاب والربع المجيب والمقنطر، وتسطير الرخامات المبسوطات والمنكوسات الخ.

وهذا القسم اشتركا (كذا) فيه الماهرون في علم الميقات والماهرون في علم الحساب.

وفريق من أصحاب الحساب يعرفون علم تمبجيت، وهو علم ارتفاع المهاريز والمدافع للرمي، وعلم الرياسة البحرية وسير مراكبها، وهذا الفريق شارك رصاد الكواكب الثابتة للاهتداء بها ليلا، وقل منهم من اجتمعت فيه معرفة ما ذكر أعلاه...

وسبب ما ذكر يمنته هو أن المولى عبد الرحمان كان تخالف مع جيش الوداية وما صدر له منهم... (10).

إذ ذاك بسط لهم اليد في أمور المخزنية، وجعل منهم الحناطي الداخلين والخارجين، وأسكنهم بإزاء الدار العالية من فاس العليا، ولما شقوا

العصا وأخرجهم منها، أسكن بها مكانهم قبيلة شراكة وأولاد جامع، ونهض ركابه الشريف لمكناس.

ولما أقام بها أمر وصيفه الباشا القايد محمد بن العواد البخاري الخلطي البوجنوني (11) أن ينتخب من الجيش السعيد عشرة من الطلبة أولاد أعيانهم، يقرأون علم الحساب وعلم الوقت للمهمات وأمور الدين، وإعانة لأمير المؤمنين : بمقابلتهم الأوقات النهارية بالأعمال المعروفة، والليلية بإعلامه بأوقاتها المعينة، والأحزاب القرآنية.

ولما مثلوا بين يديه عين لتعليمهم الفقيه البركة العلامة البحر الزاخر، المشارك الماهر : سيدي عبد الرحمن بن سيدي محمد فتحا بصري المكناسي (12)، وكانت له معرفة بثمانية عشر علما كان يدرس جلها، عدا ما لا يمكن إلا للخواص من الطالبين، نفع الله المسلمين بعلومه وأسراره رحمه الله آمين، وأمر لهم بالكسوة والصلة، ونهض ـ بالسلامة ـ قاصدا ما هو بصدده من أمور المسلمين.

ولما رجع ـ بالسلامة ـ وجد أربعة من العشرة نجبوا في علم الحساب والتوقيت، والباقون في علم الحساب فقط، فأمر مولانا باشاه المذكور أن يجعلهم علافين في الأرحي (13) الستة المعلومة : الذين هم 1) رحى عبيد الزنقة، 2) ورحى الجوارم، 3) ورحى سعاده، 4) ورحى سعود، 5) ورحى الزمراني، وزاد سيدنا 6) رحى تافللت، فجعل كل واحد منهم على رحى الخ..

1 ـ والأربعة النجباء صحبهم سيدنا ـ معه ـ بقصد الخدمة الشريفة كما ذكر، وهم الفقيه الوجيه، الأستاذ السيد بوسلهام بن سي علي بن الموذن

الخلطي البوجنوني (14)، وهو أنجبهم، وكان يحسن قراءة السبع، قرأ على الفقيه الأستاذ البركة السيد محمد بن الخليفي، كان يدرر بمكتب حمام الجديد، ونفع الله (كذا)، ولما قرأ زوجه شيخه ابنته، فأتى منها بولده السيد محمد الآتي ذكره أمام (15). وكان مولانا يأمره أن يقرأ أمامه قراءة السبع في وقت معين مدة من الزمان، وعند ختم كل سلكة يجعل له الختام، ويحتفل له بأنواع المأكولات والمشروبات، ويحضر به أعيان دار المخزن : من وزراء وحجاب وأمناء وكتاب وغيرهم الخ.. بعد مواساته وإكرامه له، ولا زال عند مولانا في مكانة إلى أن مرض بفاس وطلب أن يقدم لداره بمكناس وبقي ملازما الفراش إلى أن توفي عام خمسة وستين بعد المائتين والألف.

2 ـ وثاني النجباء الأربع : الفقيه البركة العلاف : السيد محمد ضا بن عب البخاري (16)، كان رحمه الله في غاية ما يكون فيما ذكر عنهم، وقد اشتهر بالكرم عند الخاص والعام، حتى إن دخل بيديه ما يساوي جرمه وزنا ذهبا لأنفقه في سبيل الله حالا ولا يبالي، وكان كثيرا ما يتعاهد مكاتب المدررين لادخال السرور على الصبيان بإكرام مؤدبهم، وهذا حاله : التعرض للنفحات الدنياوية والأخروية بالسعي على قدميه مع كبر سنه، لأنه عمر، ولما كان تقاعد على الخدمة الشريفة لما ذكر من عدم القوة، جعل علافا بأحد الأراحي الستة المذكورين، إلى أن توفي ـ رحمه الله ـ بمكناس في أيام مولانا الحسن الخ..

3 ـ وثالثهم : الفقيه الأديب الحسيب الحي : السيد محمد ضا بناصر النسب، يعرف بمولى الدور، بلغ الغاية في الخدمة والنباهة، ولا سيما فيما ذكر عنهم، ولما تقاعد عن الخدمة كان علافا كبيرا برحى الجوارم المعروفة، وكان ذو (كذا) همة عالية وسمت حسن، ولا يمر بداخل المدينة إلا راكبا على بغلة

السريجة المعتبرة، وكان هذا حاله في جميع الأوقات، ولا يرى ـ غالبا ـ إلا بعد مرات، توفي ـ رحمه الله ـ بمكناس في أيام المولى الحسن الخ..

4 ـ ورابعهم : الطالب الأجل، المبجل الأمثل : السيد الطاهر بن القائد محمد الرغاي النسب، وكانت له ثلاث رتب : علافا، مع التوقيت، والأذان لأنه كان له صوت حسن، وسمت مستحسن، في غاية ما يكون من اللطافة والصولة، توفي رحمه الله.

وقد كانوا في غاية ما يكون من القيام في أعمالهم، ومقابلة أوقاتهم الدينية حضرا وسفرا الخ، وكان المولى عبد الرحمن معتنيا بهم، مموها بقدرهم، بالغ في الإحسان إليهم كما ينبغي لأمثالهم، وعين لهم بنيقة ـ جيدة ـ بالدار العالية، وأطبق حيطانها بالملف، وخامية لبابها معلقة بأخراص من فضة، وجعل لهم فيها فروش (كذا) وزرابي وغطاء، وحسكة ومنار وسامرة بالزيت، وطبلة وقمقوم نحاس وصطلة للوضوء، ومجانات معلقة بداخلها، ومجانات الطوق الرافعات (كذا)، وأعطاهم جميع ما يحتاجون إليه من آلات التوقيت المعروفة عند أربابه، والكساوي الفاخمات (كذا)، والسروج الجيدة، والخيول المسومة والمعينة من الأروى السعيد : يركبونها في السفر، ووقت نزولهم ترد لمرابطها، وعين لهم الطعام من الكشينة السعيدة : من جميع مأكله من الكشينة البرانية، وكذا يوجه لهم (كذا) كشينة العيال بعض ما يأكله منه، وكذا الشمع والسكر والأتاي ومواعنه : من المجمر والنقرج (كذا) وغير ذلك، وعين لهم من يقابلهم فيما ذكر ومما يحتاجون إليه : من حنطة الفرايجية : أصحابا لهم، وفي السفر تضرب لهم قبة جيدة بإزاء الأفراج السعيد يحملها كبير الافراكَ بما فيها مما ذكر الخ، وهكذا ينبغي للملوك القائمين بالدين وحقوق العباد، عاملهم الله بفضله، وفي هذه المبالغة زيادة

نكال ونكاية لمن لم يشكر النعم، والله عزيز ذو انتقام، وقال تعالى : ﴿**فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح..**﴾الآية.

5 ـ ثم الطالب المبجل، الناسك الأفضل، التالي كتاب الله عز وجل : السيد المعطي بن العناية النسب، الغرباوي السفياني المعتكي أولاد علال (17)، كان يحفظ رواية ابن كثير ويحسنها، وكان ـ إذ ذاك ـ في حنطة الفراش السعيدة، وهي والتوقيت خطة واحدة، وكان وقع بينه وبين كبيرها مناوشة، فتشكى على سيدنا وطلب منه أن يجعله من جملة الموقتين، فقال له ـ رحمه الله ـ ألك معرفة بعلم الوقت والحساب ؟ فقال : نعم سيدي، أتقنهما غاية الإتقان، فأمر مولانا بامتحانه لدى الفقيه الماهر، العلامة النحرير، موقت القراويين الحبابي الفاسي (18)، فوجده كما ينبغي، فأخبر سيدنا بأنه يعرف ما ذكر معرفة تامة، ويحسن طرقه ومواده، فأنعم عليه سيدنا بالكسوة، وأعطاه مجانة الطوق من ذهب، ولم تتقدم لمن قبله.

وهذا كان قبل الأربعة النجباء المذكورين، وحسنت خدمته، وكان عند سيدنا في مكانة ورفعة إلخ، ولما وقعت المكيدة المعلومة بكبكب مع الوداية وعظم الأمر، اختفى سيدنا وفر بنفسه مع ثلاثة نفر وهو رابعهم، وفي هذه الحالة وهو يعلمه بالأوقات والساعات إلى أن وصل للغرب الأيسر، فنزل عند خادمه الأفلح ابن يش، واجتمعت عليه تلك القبائل : سفيان وبني مالك وطليكَ والخلط، إلى أن لحقوا (كذا) به مسخرو جيشه الأسعد بجميعهم، وقدم مع الجميع وتوجه لفاس، وأوقع بهم أعني الوداية، وأخرجهم من فاس الجديد عن آخرهم للبادية، وأسكن بها قبيلة شراكَة إلى هذا العهد، كما تقدم في السبب الموجب لانتخاب من ذكر من الطلبة بعد

الانتقام من الظلمة، ولا زال بالخدمة الشريفة إلى أن وجهه مؤدبا للشريفات بنات سيدنا للعرائش.

6 ـ وبعدما تقاعد على الخدمة نفع الله به عدد (كذا) كثير من طالبي هذا الفن : فمنهم الفقيه البركة الخير الناسك، الأمين الكبير بالأعتاب السعيدة : السيد بوعزة بن العربي يعرف بالفشر النسب (19)، وكان تقدمت له الخدمة بحنطة الفراش السعيد، وكان ملازم (كذا) لصلاة الخمس مع سيدنا، والحزب مع الموقت، فلما رأى مولانا ملازمته كلف به من يقرأ معه الحساب : وهو الفقيه البركة السيد محمد بن عب المتقدم الذكر، ولما نجب جعله سيدنا علافا بالأعتاب الشريفة هنا بمكناس، إلى أن أمر أمره رحمه الله.

7 ـ وقرأ أيضا مع الفقيه العدل، البركة الأفضل : السيد صالح النسب الحلموني (20)، وكان تقدمت له الخدمة بالحنطة، وهو عدل ببريمة (21)، وكان آخر عمره ملازم مجلس العلامة السيد المفضل السوسي بين العشائين، ومهما سمع اسمه ﷺ إلا قال : الله، وارتفع من محله وسقط على الأرض مغشيا عليه، وظهر ذلك بعده في أحد أولاده الأربعة الذكور، وبنتيه : إحداهما كانت تحفظ قراءة البصري، والثانية تحفظ ورش (22)، وتوفي رحمه الله.

8 ـ وقرأ عليه ـ أيضا ـ الطالب الخير الأمثل السيد العناية بن صالح الحلموني النسب، البركة الخير، كان مقدما بالمقام السعيد : بضريح مولانا إسماعيل رضي الله عنه، إلى أن توفي رحمه الله.

9 ـ وقرأ عليه ـ أيضا ـ العلاف الطالب الأجل سيدي قاسم النيار، الملازم تلاوة القرآن العظيم في جميع أوقاته، وكان مقدم (كذا) بمقام ولي الله تعالى المشهور البركة : سيدي عمرو الحصيني نفع الله به، وبضريح مولانا إسماعيل ـ أيضا ـ إلى هذا العهد، وتوفي رحمه الله.

وقرأ مع عدد كثير من الطلبة غير المذكورين، توفي ـ رحمه الله ـ في ربيع الثاني عام ستة وسبعين ـ بموحدة ـ ومائتان (كذا) وألف، ودفن بروضة سيدي أحمد الضاوي بسوق الغزل ببريمة.

وقد أمر مولانا أعزه الله باشا مكناس أن ينتخب له ـ أيضا ـ عدد (كذا) آخر من أعيان جيشه السعيد، فمنهم من وجههم لفاس وتطوان والعرائش وغيرهم، فنجب منهم عدد في الحساب والتوقيت والتعديل، وطلعوا للخدمة الشريفة صحبة الركاب السعيد.

10 ـ وهم الفقيه الأجل، المبجل الأفضل : السيد محمد بن المنعم البركة الأستاذ المذرر المتقدم الذكر السيد محمد ابن الخليفي، ولازم الخدمة إلى هذا العهد، وكان علافا لمسخري البخاري وكان كبير الموقتين، توفي بمكناس رحمه الله.

11 ـ والطالب البركة الأمثل : السيد محمد يدعى شطر النسب المالكي (23)، قرأ علم الحساب والتوقيت : بعمل الربع وبعمل الحساب، وروضة الأزهار، والتعديل، وكان يحفظ قراءة البصري، توفي رحمه الله قرأ على الفقيه السيد التهامي الزرهوني بالعرائش، وقرأ أيضا ـ بذكره ـ على السيد عبد الخالق الأودي، وعلى بريط النسب بثغر طنجة.

12 ـ ثم الفقيه المجهود (كذا) الماهر : السيد صالح بن يوسف النسب (24)، كان قرأ مع المذكورين أعلاه : مع شطر المذكور قبله، وكان يحفظ قراءة العشرين : الكبير والصغير، ويحسنها، ولما تقاعد على الخدمة كان علافا بأحد الأرحى الستة، ونفع الله به.

13 ـ ومن جملة من قرأ عليه السبع والعشرين : الفقيه الحسيب، الناسك المبجل الأفضل، المذرر العدل السيد علال يدعى أبا علال، بن السيد صالح العدل الحلموني (25) المتقدم الذكر، كان مذررا، نفع الله به ـ أيضا ـ عدد كثير (كذا) من أولاد المسلمين، قرأ عليه عدد من الأساتيذ وغيرهم مع صغر سنه، حتى كان تضرب به الأمثال، وترد عليه الوفود من الجبال بقصد القراءة عليه، رحمة الله علينا وعليه.

14 ـ وأخويه (كذا) اللذين هما أكبر منه : كبيرهم الطالب الأستاذ العدل ا السيد العربي بن صالح (26)، رجل من أهل الخير والكرم، ومحبا (كذا) لآل البيت وحملة القرآن العظيم، ولعباد الله الصالحين، كان قوي الطبع، درب اللسان، مهدار كلام (كذا)، حتى لا يسوغ للحاضرين أمامه كلام، وكثيرا ما يتفاخر بالثناء على هذا الجيش السعيد، وذكر قوتهم وبسالتهم وكرمهم وحيائهم ومحاسنهم وأعيانهم وخدمتهم على قدر محبتهم الخ..

وكانت (كذا) غبطة ومحبة في الشيخ الكامل مولاي محمد بنعيسى رضي الله عنه، وكان يلهج بها في جميع المحافل، وكان مقدما على الطلباء، ويلزمهم الحزب بالمقام السعيد بعد صلاة العصر، ويجعل لهم في بعض الليالي الإكرام بالضريح المبارك، ولاسيا في الليالي المعتبرات، وكان يلزم بعض

أعيان المدينة بالطعام والطيب والشموع : الذين فيهم محبة أهل الله، ومن تأخر صاكَ له بخيله ورجاله حتى يؤدي ما وظف عليه، وكان يسمى عند الطلباء بالباشا.

ومن محاسنه أنه كان يجعل للطلباء (لكَم وقرّد) في الليالي العظام، بمقام الشيخ الهمام : أعني ماعونا كبيرا من الطوس مملوء (كذا) بالطوبة، ويجعل فيه ما ينيف على الثلاثة أرطال من السمن المذاب، وما يزيد على الأربعة أرطال من غبرة السكار، ولا يبقى أحد من تلك الجموع إلا أكل منها وهم أكثر من المائة.

وإن كانت عنده وليمة أو عقيقة أفرط في أنواع الأطعمة، ويختم بالمذكورة، وذلك دليل على خيارته وحسن نيته، وإن رأى بمجلس حلوة مصنوعة أو عسل (كذا) خرج عن حاله، وهو الذي خلف والده المرحوم فيما أخبر عنه آنفا من كونه إن كان بمجلس من مجالس العلم والأفاضل، وسمع حديثا أو معجزة عنه ـ ﷺ ـ صاح وخر مغشيا عليه.

وكان تقدمت له خدمة بالحنطة السعيدة، ولم تتقدم له معرفة في الفن، وتقاعد ملازما للشهادة، كان طالبا ذلك من مولانا الخ..

14 ـ وأخوه المذرر الأستاذ العدل، الحبي الخير الأمثل : السيد الحاج المحجوب، كان خيرا ذاكرا ذو مروة وأخلاق حسنة، توفي ـ رحمه الله ـ قبل السيد العربي أخاه (كذا)، وكانوا يدعون النسب، كأولاد بوجنون المتقدمين الذكر.

15 ـ هذا ومن جملة المنتجين من الطبقة الثالثة من هذا الجيش المبارك السعيد : الطالب الأمجد السيد المجذوب بن القائد العناية

النسب (27)، كان جديا، قوي النفس، حسن السمت، كان يحسن الحساب والتوقيت، كان والده كبير مسخري البخاري، ولما تقاعد عن الخدمة كان علافا بالأرحى المعلومة، وكاتبا مع صهره الباشا القائد حمو بن الجيلاني، توفي رحمه الله بمكناس.

16 ـ وأخوه : الأستاذ سي عبد السلام : حاد قافي علم الحساب.

17 ـ وثانيهم الطالب الأجل، الأستاذ السيد العربي بن السيد بوعزة الفشر، وتمادى على الخدمة إلى آخر أيام المولى الحسن، توفي رحمه الله بمكناس.

18 ـ وباقي الطلبة المنتخبين لما ذكر : جلهم قرأوا علم الحساب ونجبوا فيه فقط، وجلسوا بمكناس : فمنهم من كان يدرر : كالطالب النبيه السيد المحجوب بن عبد الرحمن النسب، كان حيسوبيا صرفا، وكان يحسن رواية البصري، وكان إماما ومدررا بمسجد روي مزيل قرب سيدي علي منون نفع الله به.

19 ـ وكذا الطالب الأديب، الحيسوبي : السيد محمد بن رابح النسب.

20 ـ وكذا الطالب البركة النجيب في فن الحساب : السيد محمد بن عمرو النسب الفلالي، كان علافا برحى تافللت.

21 ـ وكذا الطالب الخير الأمثل، البركة : السيد محمد بن يش النسب، كان عدلا ببريعة، وكان لا يفارق السيد بناصر المتقدم الذكر في الأربعة النجباء : بقصد العمل والمذاكرة معه.

وعدد كثير منهم لم نجد و(كذا) من يخبرنا بهم، رحم الله الجميع.

☆ ☆ ☆

ولما توفي المولى عبد الرحمن قدس الله سره، وتولى الإمارة بعده خليفته وولده الأسعد الأرشد : سيدي محمد ....! ضابطا بلغ الغاية في علم الحساب وما يتفرع منه من علم الأرصاد وأحوال الفلك، ويحسن علم الهندسة والهيئة والتعادل بالأزياج لحركة الكواكب، وعلم الميقات والنصبة الفلكية، والأحكام النجمية.

قرأ - رحمه الله - على عدد من أكابر علماء هذه الفنون : منهم الداهية الأكبر الطالب : القائد الجيلالي بن حم البخاري (28)، كان ماهرا فيما ذكر عدا علم الهندسة : يعرف منه ما يحتاج إليه، وكذا له معرفة تامة بالأوفاق وأسرار الحروف والأعداد، كان كبير المشور السعيد وقته، ولما كبر سنه تولى باشا بفاس الإدريسية مدة، ثم ولى - أيضا - باشا بثغر طنجة، إلى أن توفي - بها - رحمه الله، وتولى مكانه - بفاس - الفقيه الماهر الأمثل، النبيه : السيد عبد الله بن أحمد.

وكذا سيدنا المولى سيدي محمد بن عبد الرحمن : أخذ عن الطالب الأفضل، الماهر في علم الفلك :

السيد الحاج عبد السلام يدعى الفلكي (29) : كان بالخدمة السعيدة إلى أن توفي رحمه الله.

وكذا أخذ علم الهندسة والهيئة وتمبنجيت : عن الماهر سي عبد الله العلج، أو سي عبد الرحمن العلج (30) الخ..

وكان يقرأ معه وصيفه الفقيه السيد عبد الله بن أحماد النسب، وأخوه الفقيه سي موسى : نشأوا معه ولازموه إلى أن توفي قدس الله سره، وسي

عبد الله هذا لازم معه قراءة ما ذكر من هذه العلوم، حتى حاز منها الحظ الوافر، وكان من أمرهما ما هو مسطر لكل منهما صدر هذا المقيد الخ..

وقد ألف تأليفا في علم المسطرة لم يأت أحد بمثله (31).

ولما تمهد ملكه، وحسنت سيرته وسياسته : أمر على عدد نحو الأربعين من جيشه السعيد، وغيره من سكان فاس العليا والمنشية بمراكش والصويرة وآسفي والجديدة ومولاي أبي شعيب أزمور.......... وأصيلا والرباط وسلا وغيرهم، وعين لهم العالمين بهذه الفنون بفاس، بعد ما أعطوا الكساوي والصلات والمئونة الميامية، فمن نجب منهم في الحساب والتوقيت طلع للخدمة مع الموقتون (كذا)، ومن علم الحساب طلع لخدمة طلبة الهندسة صحبة الركاب الشريف الخ..

22 ـ فمن جملتهم الطالب الماهر المتقدم الذكر : السيد محمد، بن بوسلهام الخلطي (32) الأستاذ المذكور صدرا للطلبة النجباء الأربع المنتخبين أولا.

قرأ القرآن العظيم ورواية سما : على خاله الفقيه البركة السيد محمد بن الخليفي المذكور كبير الموقتين، كان تأخر عن الخدمة لما وقع بينه وبين الفقيه شطر المتقدم، ورجع ـ أيضا ـ للخدمة بعد وفاة مولانا عبد الرحمن الله سره.

وقرأ من علم الهندسة ست مقالات من قلدس المعروف، وكان يحسنها غاية، ويتقن علم الحساب بمنية الإمام ابن غازي ـ رحمه الله ـ على الشريف الأجل، العالم الماهر : مولاي إدريس البلغيثي الفاسي (33)، وكذا علم الميقات والتعديل على أربابه.

وطلع للخدمة الشريفة ولا زال ملازما للخدمة إلى أن تقاعد عن الخدمة في هذا العهد أيام المولى يوسف لما كبر سنه، ولازال قيد الحياة إلى الآن، أطال الله عمره.

وفي أيام المولى الحسن كان عنده في مكانة، لأجل خدمته وضبطه وتحقيقه للأمور، ولصدقه وجده، وكان يوجهه للمراحل التي ينزل بها سيدنا عند سفره وانتقاله في جميع أقطار المغرب من إيالته السعيدة : من سوس إلى وجدة إلى سجلماسة وإلى وادي نون.

وأمره أن يجعل له كناشا يجمع فيه تلك المراحل بسوائعها ودقائقها ومقامه بها وما وقع فيها من الأمور المهات وعدد الحركات : كل واحدة بتاريخها العربي والعجمي كما هو مبين صدر هذا المقيد عنه مشافهة من كناشه، لأنه كان جعل نسختين : إحداهما دفعها لمولانا المقدس، والأخرى بقيت تحت يده إلى هذا العهد الذي نقلت فيه.

ومن نجابته أنه كان وجهه سيدنا لثغر العرائش وأمر باشاها سي التهامي بن (بياض) أن ينتخب له عددا من الطلبة من أبناء أعيانها، لأنها كانت في القديم دار سكنى هذا الجيش السعيد ادالة، ولازالوا (كذا) أحفادهم يعرفون إلى الآن، فعين له عدد كثير، وقرأ معهم علم الحساب والميقات إلى أن نجبوا في مدة قريبة.

ثم أيضا رشحه المولى عبد العزيز لتعليم جيش قصبة المنشية من مراكش، فاجتهد في تعليمهم ما ذكر إلى أن نجبوا وامتحنوا بأبي الخصيصات بالدار العالية، بمحضر الفقيه العالم السيد (بياض) الأخصاصي (34)، كان يحسن علم ما ذكر، وكان قاضيا بمدينة تازة، ثم صار من أعيان الكتاب،

وبمحضر سي المصطفى بن موسى، وكاتبه الآتي ذكرهما بعد، فنجبوا بعدما أنعم عليهم مولانا بالمونة، وبعد الامتحان خرجت لهم الكسوة، وطلع البعض منهم للخدمة بالحنطة السعيدة، وحاصله نفع الله على يده أناسا سفرا وحضرا، ولازال ينتفع منه إلى الآن، جزاه الله بالإحسان.

23 ـ وكذا الطالب الأجل : السيد إدريس بن القائد محمد الفيضي النسب الفلالي، كان حاذقا فيا ذكره.

24 ـ وكذا الطالب اللبيب السيد العباس الرغاي.

25 ـ وكذا الطالب الخير الذاكر : السيد الجيلاني بن بلخير النسب، يلقب ـ عند الطلبة ـ بطمطام، كان مكلفا عند سيدنا يخبره في الطريق يوم الرحيل بكل ساعة مضت، إلى أن يصل في تلك المرحلة للدار الذي ينزل بها، وكان سيدنا يلقبه بالبحري، لأنه كان سأله عن مرحلة فقال ذهبت منها إلى شاطئ البحر، وهذا سبب ما لقبه به الخ..

26 ـ وكذا الطالب الخير الأمثل، التالي كتاب الله عز وجل : السيد محمد يدعي خروبو النسب، كان على فترة، وكان يجود القرآن، ومن خيارته كان أمره سيدنا أن يحضر معه بعد الفجر وفراغه من قراءة الحزب بدويره بمسجده بالدار العالية بجامع الرملة، ويتلو معه القرآن العظيم، ويختم معه سلكة بعد سلكة مدة مقامه بمراكش في تلك الحركة، وأخبر أن سيدنا يحفظ القرآن حفظا متقنا كما ينبغي الخ..

27 ـ وكذا الطالب العلاف في محل والده السيد محمد بناصر النسب المذكور، وكان لا يحسن مما ذكر إلا التوقيت والحساب...

28 ـ هذا وغير من ذكر فيهم من نجب في علم الحساب والهندسة إلى آخره : فمنهم الطالب الأديب الحي : السيد قاسم بن محمد يدعى الدامي النسب (36)، كان في غاية ما يكون فيا ذكر، وكان المولى الحسن وجهه مكلفا بالمدفع وغيره مع ادالة العسكر والطبجية لخنفرة ببلاد زيان، وطال جلوسهم هناك سنين حتى تأهلوا، ولخيارته ومروءته جعلوه هناك قاضي، إلى هذا العهد أيام المولى يوسف وقدم بأولاده وعياله وأقام هنا بداره ببريمة نحو العام، وتوفي رحمه الله.

29 ـ وكذا الطالب النجيب السيد قاسم السلاوي النسب، كان جده باشا بمكناس، وكان في غاية ما يكون في الحساب والتوقيت وتسطير الرخائم، ولا زالت رخامة ممن عمله مكسرة على أحد المقابر بمولاي عبد الله بن أحمد المكاوي خارج البلد، رحمه الله.

30 ـ ومن جملتهم الطالب الخير الأمثل : السيد إدريس بن المرحوم الطالب السيد أحمد البرنوصي (37)، كان مكلفا عند العلاف الكبير بكتب قائمة المئونة المياومة : أعيان وحناطي ومخزن وعسكر، يتلقى ذلك من علافين (كذا) المذكورين ويثبتهم فيها، ويدفعها وزير الحرب : العلاف الكبير لسيدنا يوقع عليها بتنفيذ، وبعد هذا يعلم العلاف الكبير ـ بيده ـ كل بطاقة مثبتة في القائمة على حدتها، فيحوزونهم (كذا) العلافة، وكل واحد يدفع بطاقته لأمين الصائر، فيمكنه من مئونة المكلف لهم بذلك الخ..

وأما والده المذكور سي أحمد رحمه الله : كان أسود اللون، وكان توجه بمكاتب للمكلفين لأحد قبائل جبالة، فمر على جماعة وسلم عليهم فردوا عليه، والحالة هذه وفرسه أدهم، وسلهامه أسود، فقال أحدهم : ظلمات بعضها فوق

بعض، فسمع ذلك فحمل عليهم بفرسه وأخرج سيفه بيده، وكمل لهم الآية بقوله : إذا أخرج يده يفتك بهم، فعلموا أنه طالب، ورحبوا به غاية الخ..

توفي سي إدريس المذكور بسايس كان مريضا، ودفن بروضة الشيخ الكامل رضي الله عنه في...
ألحقنا الله به مسلمين.

31 ـ ومنهم الطالب الحسيب أحمد بن القائد محمد الشاذلي (38)، كان نجيبا غاية في علم الحساب، ومناسب (كذا) في الهندسة، وكان يكلفه كبيرهم بتعليم الطلبة الذين يتخلفون بخنطتهم : الحساب، حتى يكون في مجلسه ما يزيد على العشرين من الطلبة بمسجد مولاي اليزيد بقصبة المنشية الخ..

وكبير المهندسين ـ إذ ذاك ـ الشريف الأجل، الفقيه المبجل : مولاي أحمد الصويري، وكان عند المولى سيدي محمد في مكانة، لأنه كان شيخ الجماعة وقته في جميع الفنون المتعلقة بعلم الحساب والهندسة وما يتعلق بأحوال الفلك والهندسة وغير ذلك، وهو الذي علم الشريف مولاي ادريس البلغيثي ـ المذكور ـ الهندسة وغيرها، وكان بارعا فيا ذكر عنه، وكذا المولى سيدنا الحسن : كان يلاحظه ويجله، وكان جلوسه وقت المخزنية مع وزير الحرب، حتى إنه طلب من مولانا الحضور بالحديث الشريف بمجلس سيدنا فأذن له، وكان يجلس خلف الستر مع العلماء، وهذه أعظم مزية مكانة عنده، توفي ـ رحمه الله ـ بمراكش أيام المولى عبد العزيز.

32 ـ ومن النجباء المذكورين : الطالب النبيه : السيد الحسين النسب الترجي، كان يحسن الهندسة، لأنه قرأ مقالاتها الثلاثة عشر، ويعرف علم الوقت، وكان كلفه كبيرهم بالمدافع والمهارز يباشرهم، وكذا بالخزائن التي

هناك ـ بالدار البيضاء ـ لإقامة المدافع المذكورة والبارود هنـا بمكنـاس، إلى أن توفي رحمه الله.

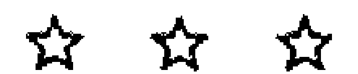
33 ـ وكـذا معينـه الطـالب الخير : السيـد الطيب بن سي الفـاطمي النسب البخاري، كان حيسوبيا فقط، وكان بعد ذلك تأخر بزاويـة سيـدنـا ومولاي أحمد التجاني، قائم (كـذا) بتنظيفهـا ومبـاشرتهـا غـايـة، إلى أن توفي رحمه الله أيام المولى يوسف.

34 ـ وكـذا من أعيـانهم الطـالب الخير المبـارك، الـذاكر : السيـد سليمان بن السيد الطاهر الرغاي (39) المذكور في الطبقة الأُولى.

35 ـ وكذا ابن أخيه الطالب الأَجل، الخير الذاكر الأَمثل : السيد عبد الرحمن النسب، ابن الطـالب البركـة السيـد العربي، (40) كانت تظهر لـه كرامـات، وكان من جملـة طلبـة الهنـدسـة، وبعـد ذلـك انتقـل لخنطـة التوقيت، ولا زال هو وعمه سليمان المذكور قيد الحياة إلخ...

36 ـ وكذا الطالب الأَجل، الحيسوبي : السيد عبـد السلام النسب التروجي، كان مكلفا بتطوان بسقالاتهـا ومـدافعهـا مـا يزيـد على العشرين سنة فأكثر، إلى أن قدم أيام المولى عبد الحفيظ، وأقـام بمكنـاس نحو العـامين إلى أن توفي رحمه الله.

37 ـ وكـذا الطـالب السجـاع الأَجـل : السيــد الجيـلاني النسب التروكَي، حيسوبيا (كذا)، وكانت له معرفـة في ارتفـاع المـدفع والمهراز، ولا زال قيد الحياة إلى الآن إلخ...



ولما توفي المولى سيدي محمد بن مولانا عبد الرحمن بمراكش قدس سره، وتولى بعده خليفته وولده الأسعد : الملك سيدنا ومولانا الحسن، الذي حاز من المحاسن كل وصف حسن، ولما تمهد ملكه وحسنت سيرته وسياس،،ته : أمر وصيفه باشا مكناس : القايد حم بن الجيلاني النسب السرغيني (41)؛ أن ينتخب له من الجيش السعيد عشرة من الطلبة - أولاد الأعيان - عند رجوعه من حركة سوس الأولى، فحضروا لديه وهو جالس على سرير ملكه بداخل قبة الزاج التي تشرف على غرسة البحراوية

بطرف مدرسة الدر العالية، وكبير مشوره الطالب القائد ادريس بن العلام النسب، (42) يقدم الطلبة واحدا بعد واحد، وكبير الموقتون (كذا) السيد محمد الخليفي - صدر الطقبة الثانية العبد الرحمانية - يعرف بهم، فصدر بنحو الأربعة منهم الذين كانوا يقرأون السبع، فقال له سيدنا أكلهم أساتيذ ؟ فقال لسيدنا : لكنهم كلهم طلباء كما ينبغي، وفيهم ثلاثة يعرفون الميقات والحساب، فأجابه سيدنا بقوله : يقدم لهم، ومراد المكلف المذكور أن يلزمهم سيدنا الخدمة في ذلك الوقت لإعانة من قبلهم في الخدمة والحزب،

فقال سيدنا أعزه الله : الجيلاني الرحالي موقت المسجد الأعظم يقرأون عليه إلخ، ونهض ركابه الشريف متوجها وقاصدا لما هو بصدد (كذا)، وهي حركة سوس الثانية، ولما رجع منها وحل ركابه الشريف مكناس : أمر بطلوع من نجب من الطلبة المذكورين للخدمة، فطلع منهم الثلاثة المشار عليهم أعلاه، فصلوا مع سيدنا العصر بمسجده بالدار العالية : بالمدرسة، ولما خرج الإمام والمؤذنون والموقتون وسيدنا أمام المحراب، فالتفت بوجهه

السعيد مقبلا عليهم، فجلسوا بين يديه حذور كبتيه، وابن الخليفي قائم على رؤوسهم أمام سيدنا، وسيدنا يبحثهم ويتذاكر معهم، حتى بحثهم على علم التعديل فأخبروه أنهم ما قرأوا غير عمل التسهيل، فقال ـ رحمه الله ـ لابد من قراءتهم التعديل بعمل المنهاج، وهو الإمام بن البناء رحمه الله،...... عليه شيء من الأزياج، فأجابه ابن الخليفي : سيدي نطلب إعانتهم لنا الآن على الأوقات، وهم يقرأون ماذكر سيدنا، فساعده على ذلك، وأنعم عليهم بالكسوة والمئونة وملازمون للأعتاب الشريفة، ويعين لهم وقتا لقراءة ماذكر على شيخهم الرحالي مدة مقام سيدنا بمكناس، فأقام به عام واحد (كذا) داخل فيه الخروج لحركة بني مجلد ورجوعه منها بالسلامة لمكناس أيضا.

وشيخهم هو الفقيه الجهبود الماهر في هذه الصناعة : السيد الجيلاني النسب الرحالي، (43) كان رجل (كذا) ذاكر زاهد موصوف بالكرم، وهو مقدم الطائفة الكنتية، (44) وكان من أهل السر، وكان مولاي أحمد الصويري يلازمه في مستودع المسجد الأعظم في غير أوقات المخزانية متى أم سيدنا بمكناس، إلى أن توفي ـ رحمه الله ـ عام ثمانية بعد الإثنا عشر مائة، ودفن بزاوية شيخه سيدي المختار الكنتي بمكناس.

قرأ ماذكر على الفقيه العالم الفاضل : السيد المكي الجنان المكناسي (45)، وكان رجل (كذا) صاحب أحوال، وكان الفقيه الحبابي الفاسي يقول للطلبة : هذا ابن غازي وقته، وقرأ على غيره من علماء هذا الفن في كل أرض.

كان علافا على حنطة الافراج السعيد، وكاتبا مع كبيرها القائد المدني، ومهما سمع بأحد في الغرب والحوز ألا يذهب إليه، ولا يحتاج لمشورة القائد المذكور حتى يرجع في الوقت الذي يرجع فيه ـ أيضا ـ لحنطته، وهذا سبب خدمته معهم. وكانت له معرفة بالفقيه السيد عبد الله بن أحماد المذكور، وتسبب له في التوقيت بمكناس بعدما زوجه بنته، ولم يعقب، وبقي إلى أن توفي ـ رحمه الله ـ في الوقت المذكور أعلاه إلخ...

38 ـ والطلبة الثلاثة الذين طلعوا للخدمة هم الطالب الأجل الأستاذ : السيد عبد القادر، بن المنعم السيد المعطي بن العناية (46) المتقدم الذكر، الذي كان ميقاتيا قبل الأربعة المذكورين النجباء أيام المولى عبد الرحمن، وولده هذا يحسن علم الحساب والتوقيت من طرقه، قرأ هو والمذكورين (كذا) بعده، ـ قبل تعيينهم ـ على الفقيه الماهر، العالم المشارك : سيدي أحمد بن العربي العرائشي المكناسي (47)، تقدم التعريف به في غير هذا المقيد، قرأ عليه التوقيت والتعديل هو والثالث، والثاني قرأ عليه معهما علم الوقت فقط، وقرءا عليه ما شاء الله من الفقه والنحو، كما قرأوه على الفقيه المبجل، الجهبود المدرس المحقق : سيدي الطاهر يدعي بأحد المكناسي، وكذا على الفقيه العدل : السيد محمد بن حلام المكناسي، وعلى الفقيه الأديب الكاتب العدل : السيد الغالي السنتيسي، رحم الله الجميع، وعلم الحساب كان قرأه على السيد سليمان الرغاي المذكور مهندسا، وقرأ المقنع هو مرافقه الثالث على الطالب الحادق المتقدم : السيد المجذوب بن العناية، وكذا قرءا الربع المجيب وروضة الأزهار على الفقيه البركة السيد

محمد شاطر، كا قرءا ـ معا ـ روضة الأزهار على العرائشي المذكور، وكذا قرءا عليه الستينية على علم الوقت بالحساب إلخ، ولما نهض مولانا لحركة بني مجلد تأخر الأول لضرر كان به، والثاني والثالث توجها صحبة الركاب الشريف لفاس إلخ...

39 ـ والثاني : الطالب السيد المصطفى بن القائد محمد بن موسى، أخ الطالب الأجل : القائد الجيلاني بن موسى النسب، كبير مشور مولانا عبد الرحمن وقته، كان خيرا دينا، وكان يقوم الثلث الأخير من الليل لتلاوة القرآن وللتجهد به منذ نشأ، وكان هذا وصفه حضرا وسفرا إلى أن لقي الله، فهنيئا له، ألحقنا الله به مسلمين، كان في غاية ما يكون في علم الحساب، كان تقدم له من جملة الطلبة الذين تعينوا للقراءة أيام المولى سيدي محمد، وقرأ علم الوقت على الفقيه الرحالي والفقيه العرائشي، وكان يحسن عمل الربع المجيب والستينية.

ولما تولى الوزارة الفقيه النزيه، النجيب الحادق، السياسي : السيد أحماد بن الفقيه الوزير السيد موسى بن أحمد بعد الحجابة : حسنت أخلاقه وسياسته، واستقم (كذا) أمره إلخ، وقد تقدم الكلام عليه لما توفي والده رحمه الله إلخ : عين له محلا يكون به مع الطالب الأديب، الأستاذ السيد حمان بن عزيز النسب الفلالي (48)، وهو أمين الداخل عنده بداره، كان ذو (كذا) مروءة وجد وصدق وديانة، فأنزله معه ليعينه على الأوقات الليلية، وكذا بالنهارية، ويقيم الصلاة في الأوقات الخمس، والحزب في وقتيه مع المكلفين عنده من الطلبة والأصحاب الداخلين والوصفان المقابلين إلخ.

40 ـ والثالث وصيفكم محمد العلمي، ابن وصيفكم الطالب الحي أحمد بن رحال : (49) كان أديبا أليفا عفيفا، لطيف الخلق والخلق، هينا لينا عاقلا، يؤثر على نفسه من غلبة الكرم عليه، متأدبا بآدابكم، متخلقا بخلقكم، نشأ بالأعتاب الزيدانية، كان محبا لهم ومحبوبا عندهم، ولا يفارق مجالسهم، حتى كأنه أخا صادقا لهم، كان يجالس سيدنا جدكم مولانا عبد الرحمن، وأخوه (كذا) مولانا أحمد، ومرافق (كذا) لعمكم مولانا عبد القادر، (50) لأوصافه المحمودة الجميلة، ولعلمه وأدبه وذكائه وفصاحته وفطنته.

وكان لا يجالس إلا الأكابر من ذوي الرياسة وأهل العلم والفضل، حتى انتخب وكان من جملة الكتاب بالأعتاب الشريفة، لنجابته ونباهته، وخطه الرفيع، وقلمه البريع (كذا)، إلى أن لازم مراقبة مقام جده والتنبيه لما لابد له من الإصلاحات، والزيادات المستحسنات، وذلك بإذن مولاي حسني.

فاجتمع شمله مع مرافقه هذا أحمد بن رحال : كان ـ قبل ـ في أيام المولى عبد الرحمن مذرر بمكتب سيدي النجار، لأنه كان يحسن تجويد القرآن بصوت حسن، وكان علافا برحى الكَوارم، وكان عدلا بباب بريمة المعهودة لهذا الجيش، وما تخلف عنها ـ إلى أن لقي الله ـ ما ينيف على الستين سنة، وكان نائبا على الأمين العلاف الكبير : السيد بوعزة الفشر : أبي الموارث ووكيل الغياب، لصدقه وأمانته.

وشقيقه الطالب الضرير، الأستاذ السيد عياد : كان يحسن قراءة السبع، وكان يؤدب الشرفاء والشريفات أبناء الملوك : كأولاد مولاي

المهدي بن عبد المالك، وأبناء مولاي عمر ومولاي عبد المالك، وكان مولانا عبد الرحمن يلاحظه ويصله، وإن قدم لهذه الحضرة السعيدة يكسيه ويكرمه، وكان نفد له مصرية بالتوتة داخل درب القطوط، مراعة (كذا) لخدمة والدهما مع مولانا سليمان، قدس الله سره.

كان عنده كبير حنطة المحفة، وتأخر مكلفا بها في أول أيام المولى عبد الرحمن، إلى أن توفي رحمه الله، ودفن بروضة الولي الأشهر، العالم : الأكبر : الإمام السهيلي بإزاء باب ضريحه، وهناك نخيلة على رأسه.

وهو القائد الحاج رحال بن عياد النسب، الحسناوي المختاري : من الكبارتة أجعانه، ينتسبون لسيدي لحسن يعرف بعريان الرأس وجبان الماء،.... كان ينتسب إدريسيا، وجدهم سيدي عبد القادر بولقرنات، ولا أدري من والد أحدهما أو جده، نفع الله بهما.

وأما والدتها الخيرة البركة دفينة زاوية مولانا إدريس الأكبر رضي الله عنه : من ذرية الوى الكامل : يعرف بسيدي محمد فتحا بن بزيان بالقنادسة بوادي الساورة من أعمال توات، ومن جملة خدامه آل تولال، وكان رجل من ذريته يتلاقى مع والدنا على أنه قريبه يسمى سيدي الماحي، كان عدلا سكناه بقصبة تلال، توفي رحمه الله...

هذا : وثالث الطلبة المذكورين محمد يدعى العلمي بن رحال : كان مدررا بالمسجد المرفوع بباب عيسي، ينتسب لمولاي عبد الله بن حمد المكاوي، كان يصلي فيه الجماعة في المغرب والعشاء إلى الآن، كانت طلبته

الشريفة الفاضلة لال مليكة بنت مولانا عبد الرحمن لتأديب ولد أخوها (كذا) : مولاي عمر وأخته، ولأجل ذلك اجتمع عليه عدد كثير من حمام الجديد وغيره مدة تزيد على الخمسة أعام.

إلى أن طلع للخدمة الشريفة عام أربعة وثلاثمائية وألف...

وكان ينزل عند الفقيه الحاجب السيد أحماد بن موسى، وكان وجهه سيدنا مع أحد أشياخه : السيد محمد بن بوسلهام لاستيعاب المراحل من مكناس إلى مهدية، إلى العرائش، إلى أصيلة، إلى طنجة، إلى تطوان، ورجعا - معا - إلى القصر الكبير، وافترقا كما أمر سيدنا : فتوجه ابن بوسلهام المذكور على وزان إلى فاس إلى أن رجع لمكناس، والثاني : رجع من القصر على وسط الغرب إلى مكناس، وكان وافق خروجهما من مكناس اليوم الأول من الليالي، ولم يروا شمسا في تلك المدة عدا أربعة أيام من كثرة الأمطار، ويوم الأخير من الليالي داخل فيه الثاني لمكناس.

وكان قبل هذا كلفه الحاجب المذكور بالدخول لمحل قراءة مولاي عمر نجل مولانا الحسن، هو وأخويه مولاي أحمد ومولاي اسماعيل الزيداني رحمهم الله، وأمره أن يكتب بلوحة مولاي عمر سطرين في ابتداء هذه الجهة، وسطرين في الأخرى، ويقرأ معه ما تقدم له من المرشد المعين، وذلك في صباح كل يوم، ولما رجع من الكلفة أمره - أيضا - بالدخول لأنجال سيدنا للمباشرة المذكورة، إلى أن نهض مولانا متوجها لحركة بني مجيلد، وقطع النظر عن حركة المراسي، وذلك عام الخمسة.

ولما رجع منها لمكناس بالسلامة، ونهض منه لفاس وأقام بها ما شاء الله، ونهض منها قاصدا زيارة القطب الكامل : مولانا عبد السلام بن مشيش، رضي الله عنه، والتبرك برجال تلك الجبال، نفع الله بهم، وذلك عام 6، إلى أن حل ركابه الشريف بمدينة تطوان، إلى طنجة وأصيلا والعرائش، ومنها رجع على وسط الغرب، ودخل لمكناس وأقام يه يوم 1 (كذا)، ورجع لفاس بالسلامة والعافية وأقام بها، إلخ...

ومنها وجه هذا الثالث لمراكش بقصد الخدمة مع نجله الأمجد، سيدي مولاي محمد فتحا : موقتا وعلافا على جميع الحناطي المنتخبة له، وكبير المشور ابن يط الشرقي، والفقيه العلامة الجهبوذ المشارك : سيدي الحاج المختار بن عبد الله النسب : هو الوزير، وذلك كله بقصد خلافة النجل المذكور، وأمر جميع عمال الحوز والدير وسوس بالحركة معه بقصد القدوم على مولانا للغرب، وأمرهم بالتخييم برباط الفتح إلى أن تلاقى مع سيدنا هناك...

وهذا بعد ما تفد للميقاتي المذكور أعلاه : فرس جيد من الأروى السعيد بسرجه، وبغلة، وأمة، وَتِينْدَا طرَّاحية، ومچانة الطوق في أحسن ما يكون، وشكلها غريب، على وجهها إثنا عشر حجرة...

وكذا كان كلفه سيدنا الفقيه العلامة الوزير سيدي الحاج المختار بن عبد الله بكناش المضن معه، وكان من جلسائه بعد الفراغ من المخزنية...

وفي عام تسعة وجهه ـ أيضا ـ مع نجله الفقيه المنعم مولاي عمر لوجدة وأنكاد ميقاتيا وعلافا على الحناطي مع الشريف، وكلفه الشريف

بمقابلة روائه وهو ير بغال الحمارة لحمل أثقالها، وكان عند الشريف في مكانة وصدق وجد. وفي اليوم الثاني الذي كان الشريف متوجها وقدم لوداع سيدنا بأبي الخصيصات : وجه سيدنا على القائد محمد بن الحفيان كبير الأفراج السعيد، وقال له : هافلان علاف عندكم على الحنطة من هذه الساعة، لاكن حتى يرجع من الكلفة مع مولاي عمر إن شاء الله...

وأقمنا بخدمتنا بالأعتاب الشريفة إلى أن وجهوا علي من جملة العلافة، فدفعوا لنا مكاتب تسراد العدائر السعيدة : من خيل وبغال وإبل بالغرب، لأن القاعدة بعد رجوع مولانا من الحركة : يوجه جميع هوائر البغال والخيل المضافة للاروى السعيد وإبل الأثقال، فحوزت مكاتب الغرب الأيسر : الحباسي، وابن عودة، والرموش، وقواد قبيلة شراردة، ودخلت لمكناس وأقمت بها ثمانية وعشرين يوما، وتوجهت لمراكش وحللت بها في متم حجة الحرام عام 1314.

وفي غدة فاتح عام خمسة عشر وثلاثمائة وألف وبعد ما مضت منه خمسة أيام : وجه علي الفقيه الوزير السيد أحماد، وألزمني الجلوس بداره نيابة عن السيد المصطفى بن موسى الميقاتي المتقدم الذكر، كان مقابلا له بداره في جميع الأوقات النهارية والليلية، وكان وجهه صحبة أخيه الفقيه السيد محمد فتحا لجنس الابروص لغرض شريف، فأقمت مقام المنوب عنه بعدما أنزلني بالدويرة التي يقرأون بها أنجاله [2] بداره : منهم الطالب الأرضي الأفلح، السيد العباس الحيسوبي الأنجح، وأولاد [4] أخيه السيد محمد المذكور، وأولاد [3] أخيه وزير الحرب وقته : السيد سعيد، وكذا نزول

الفقيه التحرير، الأستاذ العلامة المدرس بالقرويين : سيدي محمد الغمري أصلا، الفاسي قرارا.

ولما قدم السيد المصطفى من الغرض المذكور وتلاقى مع الفقيه : قال له قل لحمان : فلان النائب يبقى هنا مع أولادنا بالمحل، وفي جميع الأوقات يحضر معنا، ويكون جلوسكم واحد (كذا) : أعني الميقاتيين والطالب الأستاذ السيد حمان بن عزيز النسب : كان أمينا مصدقا عنده، ومكلفا بجميع أموره وخزائنه وبداره، وجميع الداخل عليه وعلى المخزن تحت يده، ولا يخرج من الدار عدا لصلاة الجمعة ويرجع حالا، لأن الفقيه ـ رحمه الله ـ كان يحتفل في كل جمعة لبعض الأشراف والعلماء وجميع الكتاب في روض معتبر له بالدار، وفي دويرة أخرى له هناك بالدار، إلى أن خرج لحركة الشاوية عامه، بعدما كان قدم أمامه أخاه الطالب السيد البشير خليفة سيدنا في محلة قاهرة، كما ذلك مبين في محله بمراحل تلك الحركة مع سيدنا، إلى أن ظفر برعاة الأعشاش وبغاتهم وطغاتهم، وقبض على ألوف منهم، وجههم للأحباس بمراكش ومكناس وفاس وتطوان، كما كان فعل قبل بقبيلة الرحامنة لما سعوا في الأرض الفساد مع كبيرهم الطاهر ابن سليمان، وفرقهم على الأحباس إلخ...

ولما رجع سيدنا مظفرا مسرورا من الشاوية لمراكش، وأقام بها مدة واستقامت الأمور وتمهد ملكه وانتشر الأمن في جميع أقطار المغرب : توفي الفقيه المذكور السيد أحماد، ولم يترك بعده من أصحاب السياسة أحد (كذا) في ذلك الوقت مع المولى عبد العزيز إلخ...

ثم قام معه أتم قيام الشجاع الدرغام : القايد المهدي المنبهي، لأن لـه عصابة وقوة بإخوانـه ومن انحـاش إليـه من جل قبـائل الحوز، واستولى على الأمور كاستواء بشر على العراق، إلى آخر ما حدث في ذلك حتى استوى الماء والخشب، والكل مبين في محله بحوادثه، كظهور أبي حمارة إلخ، وذلك مثبت ـ أيضا ـ بمحله بتاريخه إلخ...

وهذا الفقيه الوزير المذكور ـ رحمه الله ـ كان في غاية القيام في أمور الرعية والاهتمام بها، لاسيما حقوق الضعفاء والأراميل، لأن المولى عبـد العزيز ـ لصغاره (كـذا) ـ كان خـالي الـذهن من السيـاسـات، ولا يعرف دسـايس الناس وأحوالهم وما هم عليـه من الحيـال، فـاستولى عليـه كي لا يطلع عليـه أحد من الكبراء والوزراء، ولا يتلاقون به إلا في الأعيـاد، وكل واحـد منهم يدفع ماهو من واظفه (كذا) بيـد الفقيـه، والفقيـه يمكن سيـدنـا من ذلـك، ويبصره في الأمور وكيفيـة العمـل بما يـوقـع عليـه : بـالتنفيـذ، أو صـار بالبال، وكيف تكون ملاقاته مع خدامه، وبما يجيبهم بـه عن مقـاصـدهم، أو توبيخ من أوجب عليه التوبيخ، حتى ثبت واستيقظ من غفلته، ومن غلبـة الحياء المانع للتصرف، وكان مانعا له من التكاسل والركون للراحة إلخ...

ومـع هـذا لم يشغلـه شيء، ومـع هـذا لم يشغلـه مـا ذكر عن أوقـات الصلاة النهارية ـ مع الجماعة ـ بـداره، حتى مع الوصفـان الصغـار من جملـة أصحابه، ويسوي الصفوف بيـده، وكـذا صلاة العشـاء والفجر، وأمـا المغرب فـإن وجـده الحـال بـدار المخـزن فيصلي مـع كتـابـه وبعض من حضر من الحناطي، وإن خرج من دار المخزن قبلها فيصليها معنـا بـداره، وكان طلب

منا التأخر على صلاتها بنحو ثلث ساعة، وإن لم يظهر فنصلوها، ومهما قدم يحضر معنا بالحزب، وحين يبقى ربع الحزب يقول : إقرأوا بالفلالي، لأنكم ـ أهل مكناس ـ تحسنون ذلك، وهم السيد حمان بن عبد العزيز المذكور، والميقاتيين، والسيد إدريس أجانا المكناسي، مع من حضر من الأيمة، وذلك بعد المغرب والفجر.

وفي شهر رمضان المعظم يقوم غاية القيام بالتراويح، وكذا في العشرة الآخرة منه : يحيي ويختم السلكة ليلة بعد ليلة على العادة، وطلب مني أن أنتخب له عشرة من طلبة هذا الجيش السعيد بقصد ما ذكر، فيصلي معنا ما قدر عليه بعد العشاء ويدخل الداره، وعند السحور يخرج الطعام والأتاي، ويأمرنا أن نؤخر خمسة أحزاب الأخرة من السلكة ليحضرها معنا، وحين يبقى للفجر نحو الساعة فأقل : يخرج ويحضر الختام، وبعد قراءة الحزب يدفع سي حمان ريالا لكل واحد بيده، إلى أن يخرج رمضان إلخ،، وكذا إن وجدنا الحال بالحركة كحركة الشاوية : لا تكون فيها عدا التراويح بعد العشاء وقبل الفجر للإشفاع : السيد المصطفى قائم بسلكة التراويح بعد العشاء، وإني والسيد إدريس أجانا قائمين بعد السحور : كل واحد منا يقوم في ليلة، هذا ما شهدناه منه.

وأما عمله بداره : فقد أخبرنا عنه أنه حين يفرغ من حقوق النفس والأهل والعيال : يتوجه للقيام والأوراد والأذكار والأدعية، وربما كانت طريقته كنتية.

وكانت له صحبة وغبطـة في الشيخ مـا العينين وفي أولاده وتلامـذتـه ومن هو متعلق به، حتى إن الشيخ - رضي الله عنه - جعل فيه تـاليفـا سماه بالمسائل - أو المطالب أو ما في معناها - الأربعين الاحمدية الخ، لأنه - رحمه الله - كان طلب من الشيخ - رضي الله عنـه - أربعين مطلبـا يمن اللـه بهـا عليه، فمدحه الشيخ في هذا التأليف المذكور، وأثنى عليه، ويـذكر كل طلب بلفظه ويجيبه عنه، ويقول : أنظر هـذا الرجل ومـا هو عليـه من التكاليف ومع هذا لم يغفل عن الله، وأعظم مطالبـه الختم بـالحسنى، والالهام لما فيـه مصالح العباد، والقيام بحقوقهم قدر الطاقة، وكذا وكذا، إلى آخره.

وقد ختم الله له بالخير وبالحسنى والحمد لله، بشهادة من أخبرنا بذلـك عنه، وهو سيدنا الفقيه العالم العلامة، المشارك الماهر الأكمل : سيدي محمد بن مبارك الغيغائي (51)، كان ملازما له، ومحل نزوله معه بداره، وكان مكلف (كـذا) عنـده بمبـاشرة الكتب التي تنسخ، ومن جملـة من يؤم بـه الـخ، فلمـا حضرته الوفاة وجه عليـه، فلمـا دخل عليـه وجـده جـالس (كـذا) بـالفراش ومتكئا على الوسادات من الجانبين، فـأمره بقراءة القرآن العظيم وهو يسمع، لأنه كان له صوت حسن نحيف، وكان يجوده غاية، وسي حمان ببـاب القبـة في مقابلته، فأمره أن يحضر له ماء زمزم فأتاه به، فصار يضع المـاء في كفـه ويمسح بـه وجهـه وهو يحرك شفتيـه وهو متجلـد، حتى غلب عليـه الحـال، فأشار للفقيه أن يتم القراءة، ونادى سي حمـان فـأمره أن يضعـه على يمينـه، فخرج الفقيـه ودخلـوا على سي حمـان الإمـاء المكلفين بـالـدار، فـأشـار لهم يغطـون وجهـه ففعلـوا، ظنـا منهم غلبـة النـوم، وأشـار لهم يخرجـون عنـه

فخرجوا، وأقاموا بباب القبة، وحيث رأوه غبط في النوم دخلوا يتجسسون عليه، فنادوه فلم يجبهم، فوجدوه صار إلى عفو الله، رحمه الله وألحقنا به مسلمين، وقد كنت بداري ووجدني الحال شكيا، فسمعت الصياحة والنياحة فقمت وخرجت إلخ، حتى لحقت باب الدار داخلا إلى أن أخرجوه الإماء على النعش، فحملناه للباب الثاني : الفقيه المذكور الذي باشر غسله، والسيد حمان، وسي المصطفى الميقاتي المتقدم، فدخلوا الصحافة وأخذوه وأخرجوه للباب الثالث الذي فيه جميع من حضر لتشييع جنازته في الوقت الفلاني من اليوم الفلاني من الشهر الفلاني عام كذا، ودفن بكذا، رحمة الله علينا وعليه آمين، والوقت واليوم والتاريخ مقيد تحت يد سيادة صاحب الكناش الخ.

☆ ☆ ☆

وأما من قرأوا عليه من الطلبة : أولهم الطالب الأجل، الحيسوبي الامثل، الميقاتي المعدل الاكمل : السيد قاسم بن الأستاذ السيد عبد القادر الحسناوي النشواني (52) المذرر، قرأ معه ـ أولا ـ الحساب بالقلصادي، ونظم ابن سعيد «المقنع»، والتوقيت برسالة المارديني على الربع المجيب، وبعض أمور تتعلق بذلك، وأما عمل التعديلات قرأه على شيخينا : سيدي الجيلاني الرحالي، وسيدي أحمد العرائشي، رحمها الله بمنه، وأفاض عليهما من بركاتهم آمين، وذلك عام 1302 بمسجد الزيتونة.

ثم قرأ عليه ـ أيضا ـ الفقيه العلامة قاضي الجماعة بمكناس : سيدي محمد بن عبد السلام الطاهري الحسني (53) ـ تغمده الله برحمته ـ بعض

أبـواب من القلصـادي والمقنـع وعمـل الربـع بـالخيـط : ببيتـه بـالمـدرسـة الفلالية (54) بمكناس، عام أعلاه.

ثم قرأ ـ أيضا ـ مع البركة العلامـة قـاضي الأحواز : سيـدي أحمـد بن يوسف الناصري (55) نظم المقنع والربع عام 1307.

وقرأ مع الشريف العـدل الفقيـه سيـدي حسن المنـوني (56) الحسـاب والمقنع والربع وبعض أعمال التوقيت عام 1312.

وقرأ ـ أيضـا ـ مـع الشريف العـدل سيـدي مـولاي محمـد ـ فتحـا ـ الموقت بجامع النجارين (57)، بن الفقيه المنعم سيدي محمد المنوني (58)، كان ميقاتيا بالمسجد المذكور وكاتبا بالاعتاب الشريفـة رحمـه اللـه، وذلـك عـام 1335 م.

وكذا قرأ مع الطـالب الأديب الحي السيـد العبـاس ابن المنعم الفقيـه الوزير السيد أحماد بن موسى بن أحماد عمل الحساب بالقلصادي فقط أعلاه.

وكذا قرأ عليه الشريف الطالب سيدي المهدي يـدعى أب هـدي بن سيدي محمد بن المهدي الإسماعيلي (59) مؤدب الشرفاء بمسجد الشاوية خـارج بـاب الستينيـة : الحسـاب بـالقلصـادي... يحسن جزأي الصحيـح والكسـور الخ : عام 1340.

وكان تقـدم لـه آخر عـام 1309 : كان أمره الفقيـه السيـد أحمـاد بن موسى وهو حاجب بإذن من سيدنا : أن يحضر القراءة مع أنجال سيدنا، وهم

مولاي عمر ومولانا عبد العزيز ومولاي جعفر ومولاي عثمان ومولاي يوسف بمسجد بوطويل بالدار العالية بفاس، كانوا يقرأون علم الحساب على مولاي أحمد الصويري المتقدم الذكر، وأمر هو بالمطالعة معهم قبل القراءة، ويحضر معهم وقتها، وبعد فراغهم منها يراجع معهم، وبعده يأتي الفقيه الماهر موقت المسجد الأعظم بالعليا : السيد أحمد التواتي (60) يقرأ معهم التوقيت ويحضر هو معهم قبله والقراءة والمراجعة، وهذا كان برمضان المعظم عامه، وانتهى العمل حين عوشروا بعد العشرين منه الخ.

☆ ☆ ☆

هذا : ونرجع لباقي الطلبة الموقتون (كذا).

41 ـ السيد بنعيسى بن محمد السحيمي الحسناوي الميقاتي، وتقاعد على الخدمة، وكان من أصحاب الباشا الحاج بنعيسى بن حم، ولا زال ـ إلى الآن ـ مرافق لأولاده.

42 ـ والطالب السيد بوسلهام بن (بياض) الخلطي، يحسن علم الوقت، ويرفع بالقوس، ويعدل ببعض الأزياج إلى الأن.

43 ـ والسيد العربي بن المسن البركة الطالب السيد محمد الشريدي، كان والده باشا هنا بمكناس، كان ميقاتيا، ويصلح الماجانات وهي حرفته.

44 ـ ثم السيد عبد الوهاب بن سي ادريس الفيضي، يحسن عمل الحساب والوقت.

45 ـ وكذا الطالب السيد محمد الخليفي بن القائد محمد قرموده : كان يعرف علم الحساب قرأه على الفقيه السيد الجيلاني الرحالي، وتولى قائد المائة بمسخري البخاري.

46 ـ وكذا الطالب الأستاذ سي مّحمد بن بوعزة الفشر، كان مذررا، وقدر الله عليه وضرب أحد تلامذته كان ساء عليه الأدب فمات من حينه، وبقي بالسجن نحو العام، ولما تسرح رجع للخدمة.

47 ـ وأخوه الفقيه الحيسوبي الأمين بالاعتاب الشريفة : السيد مُحمد بن بوعزة الفشر (61).

48 ـ وكذا الطالب الخير السيد محمد بن الخليفي ابن الحاج بوسلهام : ولد الحنه، كان في حنطة الهندسة، ويعرف علم الوقت، كان قرأه على كاتبه، ووالده سي الحاج بوسلهام كان علافا على عسكر الاغا الخوحة أيام المولى سيدي محمد... تقاعد، (ولما) تقاعد على الخدمة وجه عليه الوزير السيد محمد المفضل غريط، وكلفه في الحركة بجميع قشه وكمانيته، وفي الحضر يجلس بباب قبته للمشورة، وبقي معه إلالى أن عجز لم يقدر على الخروج من منزله، إلى أن توفي هنا الخ.

49 ـ والطالب الحيسوبي الحادق سي الجيلاني يدعى لبحر النسب الجبوري، كان قايد المائة بمسخريهم.

50 ـ وابن عمه سي الميلودي الجباصي من أولاد ابن موسى، كان حيسوبيا وفي حنطة الهندسة، وحين تقاعد على الخدمة صار محترفا جبابدي وخياط.

51 ـ وكـذا السيـد ادريس يـدعى ولـد الحرة، كان حيسوبيـا، وكان مكلفا بملزومة الدقيق المياومة للدار العالية بالله، بوصلها بنفسه الخ.

52 ـ والطـالب الميقـاتي السيـد محمـد سي العربي بن القـائـد المعطي الزعري، كان كبير المسخرين، يدعي أب عزيزي.

الهوامش

1 ـ قارن مع «اتحاف أعلام الناس» 4 / 313 ـ 314.

4 / 388.

5 / 355.

2 ـ «المصدر» 1 / 380 وما بعدها.

3 ـ «المصدر» 1 / 392, 465.

4 ـ الأزياج جمع زيج، وهو إسم للجـداول الموضوعـة لتعـديل الكواكب، فينقسم كل جدول ـ طولا وعرضا ـ إلى مربعات يرسم بداخلها الأعداد المعنيـة بـالأمر، ووظيفـة هـذه الجـداول أن تستخرج ـ بـواسطتهـا ـ الحركات الطولية والعرضية للكوكب المرصود، حتى يعرف موضعـه في دائرة فلـك البروج لأي وقت فرض، كما يعرف منهـا زمن حصـول الكسوف للشمس والخسوف للقمر وما إلى ذلك.

5 ـ الكواكب السبعة هي الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل.

6 ـ الخمسة المتحيرة هي عطارد والكواكب المذكورة بعده وشيكاء والكواكب ـ على العموم ـ تارة يكون سيرها مستقيما : من المشرق إلى المغرب، وهو واقع الشمس والقمر : «النيرين الأعظمين».
والخمسة المتحيرة يختلف سيرها : سرعة وبطئا وتوسطا، فتسير تارة مستقيمة، وتارة راجعة إلى الوراء بعد وقفة قصيرة تسمى «الكنس»، أما الخنس فهو حركة هذه الكواكب عند رجوعها إلى الوراء.

7 ـ يرجع في التعريف بهذا العلم إلى كشف الظنون نشر مكتبة المثنى ببغداد : ع 948 ـ 949.

8 ـ يرجع في التعريف بهذا العلم إلى المصدر الأخير : ع 912.

9 ـ من مقدمات علم الأحكام النجومية.

10 ـ عن واقعة الودايا يرجع إلى الاستقصا نشر دار الكتاب بالبيضاء سنة 1956 : 9 / 32 ـ 41.
وللشيخ عبد الكبير بن المجذوب الفاسي الفهري تقييد في شرح هذه الواقعة ألفه في شكل مقامه، وسماه «إعراب الترجمان عن قضية الأوداية مع مولانا عبد الرحمن»، منه نسخة ـ بخط مؤلفه ـ في الخزانة الملكية قسم المجموعة الزيدانية رقم 3305.

11 ـ هو ابن العواد الكبير : القائد، الطالب : محمد بن عبد الله، ثم كان باشا بمكناس أيا نفس العاهل : القائد الجيلاني ابن العواد، ويوجد

بنفس المدينة زنقة تحمل إسم «درب ابن العواد» أسفل حي الكدية قريبا من سوق الدقاقين وسوق الجزارين.

12 ـ ترجمته في «إتحاف أعلام الناس» 5 / 287 ـ 288.

13 ـ جمع رحى : فرقة من الجيش تشتمل على ألف جندي بين فارس وراجل.

14 ـ ترجمته في «إتحاف أعلام الناس» 2 / 76 ـ 77.

15 ـ عند الترجمة رقم 22.

16 ـ يستعرض الحاج العربي المشرفي قواد الجيش أيام س محمد 4 إلى أن يقول : «ومنهم ـ أيضا ـ الذين يقبضون مؤنات الجيش كل يوم... الفقيهان : «السيد ابن عب، والسيد صالح»، حسب «الحسام المشرفي» خ.ع.ك 76 22 : ورقة 148.

17 ـ ترجمته في «إتحاف أعلام الناس» 4 / 313 ـ 314.

18 ـ القصد إلى الحاج محمد بن الطاهر الحبابي، المترجم في «سلوة الأنفاس» 2 / 360.

19 ـ ترجمته في «إتحاف أعلام الناس» 2 / 77 ـ 79، وقرأت بخط ولده عبد السلام آتي الذكر : «توفي والدنا رحمه الله... سيدي بوعزة، بن المرحوم المنعم : القائد العربي، بن المرحوم المقدس بالله : سيدي بوعزة السفياني : يوم السبت 11 حجة عام 1300، ودفن بالزاوية الدرقاوية التي كانت ـ في القديم ـ بجامع الأقواس بابن العراصي المجاورة لداره، رحم الله الجميع...».

20 ـ ترجمة في «إتحاف أعلام الناس» 4 / 387.

21 ـ سيذكر المؤلف عند الترجمة رقم 40 : أن هذه الناحية هي المعهودة لجلوس العدول من البواخر.

22 ـ إحدى البنتين تسمى «فضيلة»، وكانت بقيد الحياة عام 1307 هـ.

23 ـ سيذكره المؤلف بين أساتذة عبد القادر بن المعطي الغرباوي : عند الترجمة رقم 38.

24 ـ ترجمته في «إتحاف أعلام الناس» 4 / 388.

25 ـ ترجمته في «نفس المصدر» 5 / 480 ـ 481.

26 ـ كان بين معلمي الأميرات في قصر المدرسة بمكناس، حسب «العز والصولة...» 1 / 79.

27 ـ سيذكره المؤلف بين أساتذة عبد القادر بن المعطي الغرباوي : عند الترجمة رقم 38.

28 ـ ترجمته في «إتحاف أعلام الناس» 2 / 110 ـ 111.

29 ـ أنظر عنه «مظاهر يقظة المغرب الحديث» : الطبعة الأولى 1 / 168 ـ 169.

30 ـ الواقع أن اسمه عبد الرحمن، انظر عنه «المصدر الأخير» 1 / 105, 167.

31 ـ عن هذا التاليف ونشاط مؤلفه في بعث دراسة الرياضيات بمغرب ق 19 : يرجع إلى «نفس المصدر» 1 / 145 ـ 150, 164 ـ 165.

32 ـ أنظر عنه «المصدر ذاته» 1 / 99 ـ 100، وهناك ست وثائق تتصل

بمهامه التوظيفية، وهي الواردة نصوصها بملحقات هـذه المقيـدة عنـد الأرقام 1 ـ 6.

33 ـ «المصدر ذاته» 1 / 105.

34 ـ

35 ـ ترجمته في «إتحاف أعلام الناس» 2 / 31.

36 ـ ترجمته «بالمصدر الأخير» 5 / 530 ـ 535.

37 ـ ترجمته «بالمصدر الأخير» 2 / 29.

38 ـ ترجمته «بالمصدر الأخير» 1 / 467.

39 ـ سيذكره المؤلف بين أساتـذة عبـد القـادر بن المعطي الغربـاوي، آتي الذكر عند الترجمة رقم 38.

40 ـ صـار مقـدم المشهـد الإدريسي بـزرهـون، إلى أن تـوفي أواخر الستينيات هـ.

41 ـ توفي في تارودانت أوائل عام 1318هـ.

42 ـ كان والده العربي السفياني قائـد المشور أيـام السلطـان أبي زيـد بن هشام، وتوفي أواخر عام 1317 هـ.

43 ـ ترجمتـه في «إتحـاف أعـلام النـاس» 2 / 112 ـ 114، وعن المـزاول الشمسية التي خططها : يرجع إلى «مظاهر يقظـة المغرب الحـديث» 1 / 162.

44 ـ من الوثائق التي تتصل باعتناقه للطريقة الكنتيـة : رسـالـة كتبهـا

لصهره عبد الله بن أحمد عن أشغال بناء الزاوية الكنتية بمكناس، حيث يسزد نصها عند اللحق رقم 7.

45 ـ ذكره أبو إسحاق إبراهيم التادلي ضمن أشياخه ـ بفاس ـ في الميقات والتعديل، انظر «مظاهر يقظة المغرب الحديث» 1 / 96.

46 ـ ترجمته في «إتحاف أعلام الناس» 5 / 355 ـ 356.

47 ـ ترجمه ابن زيدان باسم أحمد بن الحاج عبد القادر، حسب «إتحاف أعلام الناس» 1 / 455 ـ 456.

48 ـ له ذكر ـ عرضي ـ بالمصدر الأخير 1 / 393.

49 ـ ترجمته «بالمصدر ذاته» 1 / 465 ـ 466، وعنه يتحدث المؤلف في الفقرات الموالية، فيوجه الخطاب للمؤرخ ابن زيدان المقترح لكتابة هذه المقيدة.

50 ـ ترجمته «بنفس المصدر» 5 / 353 ـ 354، والأوصاف التالية إليه تشير.

51 ـ ترجمته في «الإعلام» المراكشي : المطبعة الملكية 7 / 168 ـ 170.

52 ـ ترجمته في «إتحاف أعلام الناس» 5 / 535 ـ 536، وهو والد الطالب الحي السيد عبد السلام، المؤدب بمسجد حاموش في حي القنوط.

53 ـ ترجمته في «نفس المصدر» 4 / 299 ـ 300.

54 ـ بيته هو الملاصق لمصلى هذه المدرسة يسار الداخل له.

55 ـ ترجمته عند عبد الحفيظ الفاسي في «معجم الشيوخ» 1 / 146 ـ

147، وكانت وفاته ليلة 22 شعبان عام 1355 هـ، ومن غده دفن في الزاوية الناصرية بحي باب البرادعيين.

56 ـ ترجمته عند محمد المنوني في «وثائق ونصوص...» ص 146 ـ 183.

57 ـ من صدور الشهود بمكناس، وبها توفي عشية الأربعاء 23 شوال عام 1371 هـ، حسب «المصدر الأخير» ص 203.

58 ـ ترجمته في «إتحاف أعلام الناس» 4 / 277.

59 ـ توفي يوم الجمعة 11 شعبان عام 1362 هـ.

60 ـ ترجمته عند عبد الكبير بن هاشم الكتاني في «زهر الأس في بيوتات فاس» : خ.ع.ك 1281 : ج 1 عند ذكر بيت بني التواتي.

61 ـ هناك ظهيران حسني وعزيزي يقران محمد بن بوعزة الفشار على وظيفة الأمانة بقصري المدرسة والحنشة بمكناس، وثانيهما يشرك مع المذكور ـ في الأمانة ـ أخاه الأستاذ الحبسوبي السيد عبد السلام الفشار، المتوفى صبيحة الإثنين 5 ربيع الثاني عام 1356 هـ، والظهيران سيرد نصهما عند الملحقين رقم 8, 9.

الملحقـــات

ملحق 1 : رسالة من الحاجب موسى بن أحمد
إلى محمد بن بوسلهام بالإذن له بالرجوع
من العرائش بعد تعليم طلبتها الحساب والتوقيت :

محبنا الأعز الأرضى، الموقت : السيد محمد بن بوسلهام البخاري، أمنـك الله، وسلام عليك ورحمة الله، عن خير مولانا نصره الله.

وبعد : فقد وصلنا كتابك مخبرا بقضائك الغرض الـذي كلفت بـه من تعليم طلبـة العرائش الحسـاب والتـوقيت، وأنهم حصلـوا مـا قرأت معهم من الكتب التي ذكرت، وظهرت نجابتهم، واشتقت للرجوع لمحل خدمتك.

وقد كتب بذلك العامل، وأجيب بأن يحسن إليك ويوجهك، ليتوجه من يقرأ معهم الهندسة إن شاء الله، فاقـدم على بركـة اللـه، وقـد دعـا لـك مولانا نصره الله ـ بخير، وعلى المحبة، والسلام.

في 29 جمادى الأُولى عام 1294.
موسى بن أحمد لطف الله به

«العز والصولة...» 2 / 149

ملحق 2 : رسالة من س الحسن 1
توصي بمساعدة محمد بن بوسلهام في مهمة مخزنية

كافة خدامنا الأرضين : أعيان آيات عطه، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله.

وبعد : فنامركم أن تستوصوا خيرا بحامله الطالب محمد بن بوسلهام الميقاتي الموجه لاحتبار طريق تافلالت، وتقفوا معه فيا يعرض له من جهتكم من كل ما يرجع لعمله الموجه بقصده، وقوف حزم واعتناء به وبمن معه، وتوجهوا من يصاحبهم حتى يخرجوا من تراب إيالتكم، والسلام.

23 رمضان المعظم عام 1310

صح من أصله

ملحق 3 : رسالة من الوزير الصدر
أحمد بن موسى توصى بمساعدة محمد بن
بوسلهام في مهمة مخزنية

أحبتنا وخدام سيدنا الأرضين : كافة قواد الشاوية، أمنكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله، بوجود مولانا نصره الله.

وبعد : فيامركم سيدنا ـ أعزه الله ـ أن توجهوا مع الطالب الميقاتي السيد محمد بن بوسلهام الموجه لاختبار الطريق : من يدله عليها، ويبصره

بغثها وسمينها، إلى أن يقضي الغرض الذي توجه لأجله ويرجع، واستوصوا به خيرا ولابد، وعلى المحبة، والسلام.

في 24 جمادى 2 عام 1313

صح من أصله

ملحق 4 : رسالة إلى باشا مراكش

في شأن ترشيح محمد بن بوسلهام

لتدريس الحساب والتوقيت بجامع المنصور

مع بعض طلبة الجيش

الباشا علال ولد أحمد أمالك، وبعد فالإثنا عشر طالبا من أولاد الجيش السعيد الذين عينوا لقراءه التوقيت بجامع المنصور : قد عين لتعليمهم الميقاتي الطالب محمد بن بوسلهام البخاري، وبين له كيفية العمل في القراءة معهم.

وهو أن يجعل معهم نصاب من القلصادي في الحساب صباحا، ونصاب من المقنع بين الظهرين : وبعد الفراغ من نصاب المقنع يقرأ معهم الربع.

ونفذ لكل واحد من الطلبة خمس أواقي من الأحباس، وخمس أواقي من المستفاد : مياومة، وأمر الناظر وأمين المستفاد بدفع ذلك على يدك ويد مولاي المصطفى القاضي.

وأعلمناك لتكون على بال، حتى لا يقع تراخي في القراءة، ولا في أوقاتها المعينة، ولا في المرتب، والسلام.

26 رجب عام أعلاه : (1316)

سجل مكاتب عزيزية

بالخزانة الحسنية رقم 439

ص 179

ملحق 5 : ظهير عزيزي بتعيين
محمد بن بوسلهام موقتا بمنار جامع
المنصور بمراكش

يعلم من كتابنا هذا أسمى الله مقداره، وأجرى على فلك الإسعاد مداره، أننا ـ بحول من له الحول والقوة، والطول والمنة ـ كلفنا وصيفنا الطالب محمد بن بوسلهام البخاري بأمر التوقيت بمنار جامع المنصور بالمنشية، بالحضرة المراكشية السمية، وطوقناه القيام بوظيفه على العموم والإطلاق، والشمول والاستغراق.

على أن يسلك فيه مسلك المعتبرين من الموقتين، ذوي الإصابة في تعديلهم وتوقيتهم المحققين، حتى يجعل ذلك في حصن التحصين، ويقوم بواجبه قيام عارف حازم ضابط أمين، وأذنا له في جعل النائب عنه من أهل الفن العارفين به لعذر من الأعذار، كسفر أو شبهه.

فنامر ناظر أحباس المسجد الجامع المذكور أن يعلمه، وينفذ ما هو معد لميقاته، ويعمل بمقتضاه في الورود والصدور.

صدر به أمرنا ـ المعتز بالله تعالى ـ في 24 ربيع الثاني، عام 1318.

صح من أصله

ملحق 6 : ظهير عزيزي بالإنعام على محمد بن بوسلهام بدار بمراكش

يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره، وجعل فيا يرضي الله ورسوله طيه ونشره : أننا ـ بحول الله وقته، وشامل يمنه ومنته ـ أنعمنا على وصيفنا الطالب محمد بن بوسلهام الميقاتي : بالدار المعروفة لولد سيدي عياد ببوطويل بالمنشية السعيدة، التي كانت بيد عياد الجمال وبيد النزق بعده، ويو عنا له الانتفاع بها من غير كراء يلزمه فيها.

فنامر الواقف عليه من خدامنا وولاة أمرنا أن يعلمه ويعمل بمقتضاه. والسلام.

صدر به أمرنا ـ المعتز بالله تعالى ـ في 24 ربيع الثاني، عام 1318

صح من أصله

ملحق 7 : رسالة الجيلاني الرحالي
عن أشغال بناء الزاوية الكنتية
بمكناس، حسب إشارة لها عند التعلق رقم 44

سيدنا وعوض والدنا، الفقيه العلامة الأمجد، السميدع التحرير الأرشد، سيدي عبد الله بن القائد أحمد، أمنك الله ورعاك، وسلام عليك ورحمة الله، عن خير مولانا نصره الله.

هذا : وقد وصلنا كتابك الأعز، مخبرا بما أخبرك به الولد الصالح البار، الفقيه سيدي الحاج المختار، من عدم نيلنا للجير لبناء الزاوية المختارية، نفعنا الله وإياك بصاحبها، آمين.

وكتاب آخر للباشا، القائد حم بن الجيلاني : بما ينهض عزمه ويقويه ويشد العضد.

وأمرتنا فيه بالقدوم إليه وتمكينه من كتابه، فقد امتثلنا الأمر، فلما قرأه وأطلعناه على كتابنا، أجاب بما يسرنا، وأظهر الفرح والنشاط، وانفصلنا على أنه يقدم بعد غد للزاوية حتى يراها، فترصدنا له فقدم علينا موفيا بالوعد، ثم اقتضى الحال أن ندخله لدارنا حين قدم علينا للمسجد الأعظم، فأدخلناه وأكرمناه بما يناسب قدره، فخرجنا قاصدين الزاوية المباركة، فلما رآها فرح ودعا لك هو والحاضرون بخير، تقبل الله، آمين.

ثم قال : كم فرض عليّ ؟ فأجبته بألفي مثقال، فقال اللحم والدم لشيخنا سيدنا وملانا المختار، ثم إنه أمر أصحاب الجير أن يصنعوا لنا كوشة،

وقال : كلما احتجتم إليه من الجير وغيره يصلكم، واحسبوا علينا ثمنه، إلى أن تستوفى العدة، وإن يسر الله الزيادة فنزيد، فأجبناه بالدعاء الصالح، وذهب بسلام.

وها نحن أجبنا سيادتك بما صدر منه بالقول، وسنجيبك ـ بحول الله ـ بما يصدر منه بالفعل، فجزاك الله عنا خيرا، آمين، فلقد أفصحت وبينت على المراد، وأعربت عما كان منا يراد، أبقاك الله لنا ذخرا ولجميع العباد، وعلى المحبة، والسلام.

في 5 ربيع النبوي الأنور، عام 1303

كناشة بالخزانة الحسنية رقم 3916

من المجموعة الزيدانية : ورقة 267.

ملحق 8 : ظهير حسني بإقرار
محمد بن بوعزة الفشار على وظيفة
الأمانة بقصري المدرسة والمخنشة بمكناس

اقررنا ـ بحول الله وقوته، وشامل يمنه ومنته ـ حامله وصيفنا الأرضى، الطالب، محمد بن بوعزة الفشار، على ماكان مكلفا به والده ـ رحمه الله ـ من أمور جانبنا العالي بالله بهذه الحضرة المكناسية صانها الله : من كل ما يحدث بالمدرسة والمخنشة حرسها الله بعزه وعنايته، وألبسهما رداء نصره وهيبته : من الزيادة أو النقصان في المؤنة الشهرية، وتقييد ضحيه

العيد الموجهة لها، والوقوف عليها حتى تصل، والخليع في وقته، وتنفيذ ضرورياته على حسب العادة فيه، وتنفيذ ما يدفع لها عادة في المواسم، مع الشرفاء والشريفات خارجها، وغير ذلك من كل ما هو من متعلقات دارنا السعيدة، فهو الواسطة في جميعه، والمتولى الكتابة فيه.

ومنها مطالعة الأمناء له على قائمة صائر الدار العالية بالله ليعلم عليها باسمه.

ومنها مفاتح خزائن جانبنا العالى بالله، وما يجعل فيها يكون على يده.

ومنها ما يفرض على البرابر من الحطب والبياض، يكون قبوله منهم وإخراجه من محل خزنه على يده.

ومنها تنفيذ الزيادة أو النقصان في قائمة راتب الجيش البخاري ومن في حكمه ومؤنته كذلك.

ومنها تقييد وصفان جانبنا ـ العالي بالله ـ بباب مراح، وتفريق رواتبهم عليهم، وغير ذلك مما ينفذ لهم من زرع وغيره.

ومنها أمور بوابة أعتابنا الشريفة وما أضيف إليها، مما يقبضونه من الكسوة والزرع والصلة وغير ذلك، فعلى يديه.

ومنها ما هو بأجدال السعيد من الغنم وتقييده، مع ما زاد وما نقص، وجزه في وقته، ودفع صوفته لمن تدفع له عادة، والبقر الحلوب الذي يكون بالزريبة، وتقييد عدده، مع نتاجه، وتوجيهه ـ بعد جفافه وإحصاء عدده

على من يجعل ـ عادة ـ في ذمته ـ لعزيب العرائش، على يد خديمنا الأمين الحاج أحمد المسعودي وأمناء مرسى العرائش وعاملها، وليكن يوجه لنا نسخة من خطوطهم بوصوله إليهم، ويبقى الأصول تحت يده، والخيل : الذكور والإناث ثمه أيضا، وتنفيذ علفها، وضبط أمورها : من زائد وناقص، فكل ذلك على يديه، وهو الواسطة فيه.

إقرارا تاما، شاملا عاما، نامر الواقف عليه من عمالنا، وولاة أمرنا، أن يشدوا عضده على ذلك، والسلام.

صدر به أمرنا ـ المعتز بالله ـ في رابع قعدة الحرام، عام 1301.

صح من أصله

ملحق 9 : ظهير عزيزي بإقرار
محمد بن بوعزة الفشار على وظيفة
الأمانة بقصري المدرسة
والمحنشة بمكناس

جددنا ـ بحول الله وقوته، وشامل يمنه ومنته ـ لما سكه وصيفنا الأرضى، الطالب محمد بن بوعزة الفشار، حكم ما بيده من ظهير سيدنا الوالد قدس الله ثراه، المتضمن إقراره على ما كان مكلفا به والده المذكور من أمور جانبنا العالي بالله بمحروسة مكناسة الزيتون، التي من جملتها تنفيذ ما يحدث من الزيادة أو النقصان في المؤن الشهرية لدارنا العالية بالله ثمه : المدرسة والمحنشة صانها الله برعايته، وألبسها رداء عزه وعنايته، وكذا تقييد

ضحيـة عيـد النحر الموجهـة لهـا، والوقوف عليهـا حتى تصل محلهـا، والخليع اللازم لها، ودفعه في وقته بجميع ما يلزم من ضرورياته، مع تنفيذ ما عهـد دفعـه لهـا من عوائـد مـواسم الليـالي الكبـار، ولمن في حسـابهـا من الشرفـاء والشريفـات خـارج الـدار، وغير ذلـك من كل مـا هو من متعلقـات دارنـا السعيدة المذكورة، فهو الواسطة في جميعه، والمتولى الكتابة فيه.

ومنها مطالعة الأمناء له على قائمة صـائر دارنـا العـاليـة بـاللـه، ليعلم عليها باسمه.

ومنها مفاتح خزائن جانبنا العالي باللـه، ومـا يجعل فيهـا يكون على يده.

ومنها ما يفرض على البرابر من الحطب والبياض، يكون قبولـه منهم وإخراجه من محل خزنه على يده.

ومنها تنفيذ الزيادة أو النقصان في قائمة راتب الجيش البخـاري ومن في حكمه ومؤنته كذلك.

ومنها تقييد وصفـان جـانبنـا ـ العـالي بـاللـه ـ ببـاب مراح وتفريق رواتبهم عليهم، وغير ذلك مما ينفذ لهم من زرع وغيره.

ومنها أمور بوابة أعتابنا الشريفة وما أضيف إليها : مما يقبضونـه من الكسوة والزرع والصلة وغير ذلك فعلى يده.

ومنها ما هو بأكدال السعيد : من الغنم وتقييده، مع ما زيد فيه وما نقص، وجزه في وقته، ودفع صوفته لمن تدفع له عادة، والبقر الحلوب الـذي

يكون بالزريبة، وتقييد عدده مع نتاجه، وتوجيهه ـ بعد جفافه وإحصاء عدده على من يجعل ـ عادة ـ في ذمته ـ لعزيب العرائش، على يد خديمنا الأمين المسعودي وأمناء مرسى العرائش وعاملها، وليكن يوجه لنا نسخة من خطوطهم بوصوله إليهم، ويبقي الأصول تحت يده، والخيل : الذكور والإناث ثمه أيضا، وتنفيذ علفها، وضبط أمورها من زائد أو ناقص، فكل ذلك على يده، وهو الواسطة فيه.

تجديدا وإقرارا تامين، نافذين عامين.

وعززناه في ذلك كله بأخيه وصيفنا الطالب عبد السلام، وجعلنا يده معه فيه يدا واحدة، لما ثبت عندنا من صدقهما.

نامر الواقف عليه من عمالنا، وولاة شريف أمرنا، أن يعمل بمقتضى ذلك، ويشد عضدهما عليه، والسلام.

في 14 جمادى الثانية، عام 1318

صح من أصله

م.م

بين أنفا والدار البيضاء

عبد العزيز بن عبد الله

أنفا كانت مدينة زاهرة قبل القرن السابع الهجري كما كانت مركزا للقراصنة ومجمعا خصبا للجنان والبساتين وكان بطيخ أنفا مشهورا بالجودة تتلقفه الحواضر الكبرى كفاس وقد استولى عليها البرتغال عام 876 هـ وهو عام احتلال أصيلا تقريبا وهدموا أنفا ثم عادوا إليها في حدود 920 هـ إلا أن صاحب الاستقصا يقول بأن احتلالها تم في حدود 874 هـ حيث ظلت مهجورة أزيد من 40 سنة ثم جددوا بناءها واستقروا بها إلى حدود 1154 هـ (الاستقصا ج 2 ص 2 159).

والسنة التي استولى فيها البرتغاليون على المعمورة أي 1515/921 هي تقريبا سنة عودتهم إلى أنفا حيث سموها Casabranca ويزعم (منويل) أن الاحتلال البرتغالي للمدينة استمر إلى عهد المولى عبد الله بن المولى اسماعيل (الاستقصا ج 2 ص 172) كما يلاحظ القنصل الفرنسي شيني Chènier

وكذلك كايي Caillè (ان اسم أنفا تغير إلى الدار البيضاء أيام سيدي محمد ابن عبد الله الذي توفي عام 1204 هـ ويؤكد ذلك ما كتبه الرحالة الدغاركي هوست Host حوالي 1174 هـ/1760 م.

وأنفا هي مدينة النمل حسب مذكرة في وثائق دوكاستر (السعديون ج 3 ص 358) نزهة المشتاق للادريسي (وصف افريقيا ص 48).

وكانت مركزا للرماية فيها ما يسمى بالقريبيات أي الاغراض البحرية المنصوبة للرماية (الاستقصا ج 4 ص 247).

كما كانت مهاجرا لسكان مدن أخرى حيث توفي بها ابن رضوان الوزير صاحب القلم الأعلى وكاتب أبي عنان المريني المتوفي عام 733 هـ/1332 م وكذلك عبد السلام بن زروق العرائشي عام 763 هـ/1361 م.

وقد تولى قضاءها محدث حافظ اقرأ في مالقة ومراكش هو عمران بن موسى بن ميمون الهواري المتوفي عام 648 هـ) مما يدل على أنها كانت بين الحواضر الهامة التي استحقت تولية قاض في مثل أهمية ابن ميمون على رأسها مع أن القضاة كان عددهم محصورا في أهم الحواضر.

وقد سكنها ابن عصفور على بن أبي الحسين بن مومن بن محمد الاشبيلي الحضرمي. حيث توفي عام 669 هـ/1270 م ـ 1971 م وقد سكن مراكش ثم تونس وهو حامل لواء العربية بالأندلس وتلميذ ابن الشلوبين.

(فوات الوفيات ج 2 ص 2 93

شذرات الذهب ج 5 ص 330

وفيات ابن قنفذ (667 هـ)/ عنوان الدراية ص 188/كشف الظنون ص 1822 / بغية الوعاة ص 357 / صلة الصلة ص 142

ملحق بروكلمان ج 1 ص 546

الإعلام للمراكشي ج 6 ص 46 (خ)

مصنفاته :

1 ـ الممتع في التصريف

2 ـ المقرب في النحو

3 ـ المفتاح والهلال

4 ـ السالف والعذار

5 ـ شرح الجمل

6 ـ شرح المتنبي

7 ـ شرح الحماسة

8 ـ سرقات الشعراء

9 ـ شرح كتاب سيبويه

ويظهر أن أنفا كانت آنذاك مدينة آهلة ذات قيمة اقتصادية حيث كان بها وال للجباية هو عبو من بني الترجمان لقيه بها ومدحه ذو الوزارتين ابن الخطيب السلماني. (الإعلام للمراكشي ج 4 ص 5).

وكانت تشكل أواخر القرن الهجري الماضي إقليما واحدا مع الجديدة التي كانت تسمى المهدومة بعد أن سميت مانزاغان وكان عاملها عام 1293 هـ هو محمد بن ادريس الجراري كما كان عاملا عليها في عهد جلالة الحسن الأول عبد الله بن قاسم حصار السلاوي.

والواقع أنه بعد أن هدم البرتغاليون أنفا بقيت أنقاضا يلتجىء إليها البدو وأحيانا موردا للماء تنهل منها السفن والمراكب ويظهر أن دارا بيضاء أي مبيضة بالجير أو الكلس كانت على الشاطىء آنذاك وقد اتخذها البحارة البرتغاليون صوة أو منارة للاهتداء بها في البحر فلذلك أطلقوا عليها اسم Casabranca ثم سماها الأسبان Casablanca والسلطان سيدي محمد بن عبد الله هو الذي جدد بناء الأسوار المهدمة ولعل ذلك بعد جلاء البرتغاليين عن الجديدة عام 1183 هـ/1769 م وقد عمل محمد الثالث آنذاك على دعم التحصينات بين العرائش والرباط والجديدة والصويرة الحديثة العهد بالتأسيس فأسس بالدار البيضاء صقالة قوية لحمل بطارية مدفعية وعمر المدينة بالإدالة من شلوح حاحة وعبيد البخاري بمكناس ومازال أحد مساجد المدينة يحمل اسم جامع الشلوح إلا أن المدينة كانت إلى أوائل القرن الماضي حسب رواية رحالين أجانب مخيمات أكثر منها بناءات تعسكر فيها حركات المخزن كمرحلة بين الرباط ومراكش على غرار فضالة والمنصورية وكانت الطريق الساحلية قد تأسست آنذاك بين فاس ومراكش في حين كانت تمر قبل من الأطلس (أزرو - خنيفرة - بني ملال - مراكش) حيث كانت تمتد (تامسنا) وبذلك لم يعرف إقليم الدار البيضاء وميناؤها أي نشاط اقتصادي قبل تأسيس هذه الطريق الساحلية بفضل مجهود الأسرة العلوية المالكة التي طورت مصادر ومنافذ التجارة الخارجية ولذلك سمح محمد الثالث للتجار الأجانب بالاستقرار في جميع مدن الساحل عاملا على خلق حركة تبادل هامة تسمح بإقرار ضرائب جديدة واحتكار تجاري لصالح بيت المال.

وتامسنا هي الناحية الواقعة بين نهري أم الربيع وأبي رقراق وامتـدت إلى تادلا وكانت عاصمتها شالة وأطلقت بعد ذلـك على إقليم الـدار البيضـاء وكانت مركزا للبرغواطيين.

وبرغواطـة قيل بـالراء وقيل بـاللام حسب ابن هشـام اللخمي إلا أن ابن حزم في الجمهرة رسمهـا بـالراء ويقـال للبرغواطيين البربـاطيين نسبـة إلى برباط بالأندلس ويصل بعض المؤرخين البرغواطيين بالباغـاطيين Baquates لا سيما بعدما عثر عـام 1919 في وليلي أي شمال شرقي الاقليم البرغواطي على كتابات تشهد بقرب هذا الاقليم من منطقة الباغاطيين.

ويظهر أن أنفا كانت هذا العهـد مركزا لتجـارة الحبوب كأهم بضـاعـة كان المخزن قـد خولهـا رخصـة بـذلـك منـذ عـام 1197 هـ/1782 م لشركـة اسبـانيـة بقـادس ثم عـام 1204 هـ/1789 م. لشركـة أخرى بمـدريـد هي Compaña de Los Cinco Cremios Mayores

ولكن السلطان الولى سليمان أقفل الميناء عام 1209 هـ/ 1794 م بعد ثورة عامل الشاويـة الـذي كان يقطن بـالمـدينـة ونقل إلى الربـاط التجـار المسيحيين الذين كانوا قد استقروا بهـا ولم يفتح المينـاء من جـديـد إلا عـام 1246 هـ/1830م في عهـد المـولى عبـد الرحمن بن هشـام حيث عـاد إليهـا التجـار الأجـانب عـام 1258 هـ/1842 وخـاصـة عـام 1266 هـ/1852 من بينهم التجار الفرنسيون الـذين كانوا يبحثون عن الصوف الخـام للتحرر من السـوق الانجليزيـة عن طريـق الشركـة الفرنسيـة للـوديف Compagnie Française Lodève التي تأسست منذ عام 1852 بالـدار البيضـاء وقـد عملت على التحرر من تبعيـة السـوق الانجليزيـة وأسست لهـا فروعـا في العرائش والرباط.

ثم التحق بهم انجليز جبل طارق والالمان والبرتغاليون والإسبان وقد استقر أول نائب قنصل أوربي بها عام 1171 هـ/1857 ومنذ ذلك تضخمت الجالية الأوربية وأصبحت بواخر شركة Paquet ترسوا بالميناء وتطور رواج التجارة فبلغت عام 1324 هـ/1906م ما قدره 14 مليون فرنك ذهبي وتجاوز نشاط المرسى حركة ميناء طنجة نفسه.

وقد تطورت الملاحة البخارية منذ عام 1883 عن طريق ست شركات كان لها عامل مأمور في ميناء الدار البيضاء يضمن خاصة حمولة لعودة الباخرة ولكن هؤلاء العملاء كانوا يديرون مشاريع تجارية ودور تأمين ملاحي انجليزية وفرنسية وألمانية كما كانت للشركات الملاحية دور تجارية كبرى كذلك مثل شركة (باكي) التي كانت لها مستغلات فلاحية.

وعلى إثر قرض 1322 هـ/1904 م ومؤتمر الجزيرة الخضراء عام 1324 هـ/1906 أصبح موظفون فرنسيون يراقبون ديوانة الدار البيضاء وكذلك الاشغال التي كانت تقوم بها شركة فرنسية لإصلاح الميناء مما أقلق قبائل الشاوية التي اصطدمت عام 1325 هـ/1907 م بالعمال الأوربيين فتدخلت باخرة فرنسية وعمت الفوضى وانبثق الانتهاز للخوض في الماء العكر وتعرض الملاح لهجمات الفوضويين بإثارة الدساسين الأجانب لتفسح فرنسا لنفسها المجال من أجل قنبلة المدينة يوم 5 غشت 1907 حيث وصل أسطول فرنسي بعد يومين فأنزل بالشاطىء ألفين من الجند بقيادة الجنرال (درود) كما وجهت إسبانيا أسطولا آخر وجنودا واحتل الجيش الفرنسي منطقة الشاوية وشبت الأحداث المفتعلة التي أدت إلى فرض عقد الحماية عام 1912 ولكن أبي الله إلا أن تكون الدار البيضاء منطلقا لثورة الملك والشعب عام 1953.

وكانت المعاهدات السرية قد عقدت بين فرنسا وإسبانيا وانجلترا لاقتسام إفريقيا الشمالية شرقا وغربا (أي من مصر إلى المغرب الأقصى).

ونضرب أمثلة للمواد التي نفق سوقها في المدينة وأرباضها :

فالحبوب بدأت تجارتها بالدار البيضاء منذ سنتي 1855 ـ 1856 بإشراف عملاء فرنسيين من دار باستري Pastré de Marseille لتموين جيش الشرق في القرم وبعد انتهاء الحرب تحررت السفن البخارية وأسهمت في دعم العلاقات التجارية البحرية والواقع أن الدار البيضاء انقلبت منذ عام 1858 حسب بوميي من قرية خلال أربع سنوات إلى مدينة صغيرة جميلة مبيضة الأسوار بأزقة حديثة البناء تعلو جانبيها دور ومخازن واسعة.

أما الصوف ففي بداية عام 1858 حظر المخزن تصديره للخارج فانزعجت الجالية الأوربية بالدار البيضاء ثم سمحت الحكومة المغربية بالوسق عام 1860 لسنة واحدة وقد تقاعست آنذاك الشركات الأوربية عن ترويج أموال في تربية الاغنام خاصة بعد الازمة الطارئة اثر الحرب الإسبانية المغربية عام 1859 ـ 1860 بالإضافة إلى ظهور الكوليرا عام 1860 ثم عام 1868 وبينها حدوث مجاذبات في عامي 1863 و1865 في الشاوية بين مديونة وزناتة Beaumier : Le choléra au Maroc - Sa marche au Sahara Jusqu'au Sénégal en 1868, Bulletin Sté Géog. de Paris, mars 1872.

وقد ظل الصوف المادة المطلوبة أكثر من غيرها في الغرب وقد قدر إنتاج منطقة الشاوية منها عام 1864 نحو خمسة ملايين كيلو بينما تارجح التصدير بين نصف مليون كيلو وثلاثة ملايين كانت توسق نحو مرسيليا

ودانكيرك والهافر عن طريق دور فرنسية في إطار تقلبات أسعار السوق الفرنسية.

وكانت أسواق الصوف تنعقد في مديونة بين أبريل ويونيه طوال ثلاثة أشهر كل يوم خميس في شكل بورصة واسعة للاصواف يتقاطر عليها التجار الأجانب وقد بلغ تصدير الصوف بالدار البيضاء عام 1871 نحو 50 ٪ من مجموع صادراتها وكانت الدار البيضاء تشكل أواخر القرن الماضي أعظم مركز مغربي لتصدير الذرة حيث بلغ وسقها ما بين 50 و60 ٪ من مجموع الصادرات المتراوحة بين عشرة وعشرين ألف طن.

وكان المزارعون الفرنسيون أول من كون شركات فلاحية مع المغاربة للزراعة أو تربية الماشية وكانوا يعملون على حماية المزارعين المغاربة لتحريرهم من مراقبة المخزن وإطلاق أيديهم في ذلك حيث لم يكونوا يتابعون قضائيا إلا بعد إخبار السلطة القنصلية بدعوى حماية مصالح مواطنيها من الشركات والطريقة الغالبة في هذه الشركة هي أن التاجر الأوربي كان يقوم بتمويل أو دفع البذور واقتسام المنتجات بحيث كان تدخل الأجانب في توفير التقنيات الزراعية منعدما تقريبا إلى عام 1900 ولا كذلك في خصوص توريد أغراس جديدة وقد وقع العدول عن تجارب زراعة القطن في ارباض المدينة خاصة بعد عام 1867 أما في خصوص قطعان الغنم فإن المصدرين الفرنسيين أصبحوا يملكون قبل عام 1870 نحو العشرين ألف رأس مع اتساع الأراضي التي أصبحوا يملكونها حول المدينة.

وقد تأسس عام 1893 بالدار البيضاء مصنع صغير للصابون من طرف رجلي أعمال المانيين وكان سكان درعة يصنعون صابون الغاسول وقد تطور المشروع عام 1900 بمصانع جديدة ظهرت عام 1907 للسيجار أو

لفافة التبغ ومصنعين للمياه الغازية ومصنع للزرابي فكان المنطلق الأول للصناعة بالمدينة.

ومنذ عام 1875 أسس رجل الاعمال الأمريكي جوهن كوب John Cobb بالدار البيضاء طاحونة بخارية كانت تعمل بلا مواد للاهالي أي تطحن قموحا تملكها وتبيع طحينها.

وكانت المنازعات التجارية لا تخضع للقاضي الشرعي ولا للمحتسب التي تنحصر اختصاصاته في الصناعة التقليدية اللهم إلا إذا تعلق الأمر بالمكاييل والموازين وتحديد الأسعار فالنزاع بين التجار كان يفصل فيه عامل المدينة أو الوالي نفسه وكثيرا ما يحيل القضية على محكمة تجارية تصدر أحكامها طبقا لعرف التجار وكان أعضاؤها 8 يختارهم زملاؤهم بعد تصديق العامل كممثل للسلطان ويتولى خليفة العامل السهر على تنفيذ الأحكام وإذا وقع نزاع مع تجار أوربيين يرفع التاجر القضية إلى القنصلية التي تحيلها على العامل لتفصل فيها المحكمة المذكورة فالأمر راجع في كلتا الحالتين إلى والي المدينة أو الاقليم، وقد بدأت الدار البيضاء تدخل في شبكة السياحة الدولية منذ عام 1890 إذ رغم مصاريف السفر الباهظة وهلهلة الملاحة الدولية التي كانت تتعرض لأخطار الغرق فإن السياح أصبحوا يتواردون على المغرب بعد أن كانوا يقتصرون على مرسى قريبة من أوربا هي طنجة وكان بالمدينة نزل مالبث أن تعزز بمؤسسات فندقية أخرى بلغت ثلاثة نزلات خاصة عام 1901 أهمها نزل فرنسا ثم نزل مدريد الذي تأسس منذ 1898 ثم فندق انجليزي في ملك رجل من جبل طارق وقد أسس عام 1894 (النادي الدولي لأنفا) ثم (النادي الأسباني) وملعب للبولو وثلاثة ملاعب للتنس ومركز للعبة الاوتاد وهي البولينغ (Quilles).

أما سكان المدينة فقد تزايد باطراد ففي عام 1850 كان بالدار البيضاء نحو خمسمائة من الأوربيين ارتفع عددهم إلى ما يتراوح بين إثني عشر وأربعة عشر ألفا عام 1900.

وكان الفرنسيون في عام 1873 أهم عناصر الجالية الأجنبية بالدار البيضاء حيث كانوا يشرفون على 50 إلى 60 ٪ من التجارة الخارجية غير أن الاسبان أصبحوا من حيث العدد أضخم عناصر الجالية عام 1878 (أزيد من 50 ٪) إلى عام 1907 وقد وصف نائب القنصل الفرنسي المدينة عام 1876 ملاحظا وجود ثلاثين بناية كبرى منحها المخزن للتجار الأوربيين هيأ المدينة لأن تصبح أول مدينة تجارية في المغرب (1) وقد زارها جلالة الحسن الأول في نفس هذا العام لإصدار أوامره السامية ببدء الأعمال لإحداث ميناء فتهافت تجار جدد وأحدث خط ملاحي جديد هو Valery بالإضافة إلى شركتي Forwood و Paquet وفي عام 1871 سمح المخزن بتصدير الحبوب ثم تجدد الإذن عامي 1873 و1875 حسب التقارير الاقتصادية خلال هذه السنوات عن القنصليات بالدار البيضاء.

وكانت الحبوب تشمل الحمص والشعير تحمله يوميا إلى المدينة الفان إلى ثلاثة آلاف جمل بلغت حمولتها عام 1891 أزيد من ثلاثين ألف قنطار. إلا أن القلق بدا يخامر التجار الأجانب عام 1878 عندما انخفضت الأسعار الفلاحية في السوق الأوربية وحدثت في المنطقة مجاعة عقبها وباء الكوليرا (2) مات من جرائه 7 ٪ من السكان ويظهر أن سنتي 1878

---

1) (الأوربيون بالدار البيضاء) في القرن التاسع عشر (1856 - 1906) - بقلم مييج Miege وهوج Hugues طبعة لاروز Larose Paris V

2) ايركان - المغرب الحديث.

و1879 كانتا أشد سنوات نصف القرن بالشاوية حيث ارتفع ثمن القمح بـ 600 ٪ وتزايد قلق الأجانب الذين نقص عددهم بالدار البيضاء وحدها من 225 عام 1878 إلى 169 عام 1880 إلى 160 عام 1884 وظلت الجالية الفرنسية مع ذلك أغنى الجاليات لأنها استمرت في صفقاتها لاقتناء الأصواف والجلود واستيراد السكر والزراعة وتربية المواشي بتعاون مع الفلاح المغربي إلا أن النكبات التي تتابعت طوال سنتين (1878 ـ 1880) أفقدتها كل قطعانها وأموالها التي كانت تقدر آنذاك بعدة آلاف من رؤوس الغنم والبقر (منها 15.000 شاة) فغادر فريق من الفرنسيين المدينة إلى فرنسا أو طنجة وبذلك انحدر عددهم من 38 إلى 12 شخصا عام 1884 وهو نفس عدد الألمان في تلك السنة بينما ظل عدد الأسبان 96 شخصا.

وفي عام 1887 بدأ عهد جديد في الدار البيضاء بإحداث مصالح بريدية وانتظام السفريات في الخطوط البحرية وتأسيس تلغراف بطنجة سهل الاتصال بدور تجارية بأوربا واقتناء سفن جرَّارة للميناء وإقامة منار صغير لهداية السفن وإقرار حرية إصدار القمح والشعير طوال ثلاث سنوات (مقابل رسوم للتصدير تبلغ خمسة عشر ريال لفنيق أوصاع من القمح وستة ريال لنفس الكيل من الشعير) وأصبحت سنة 1890 أنصع سنة في هذا القرن جعلت من الدار البيضاء أول حاضرة تجارية في المغرب بمرسى ترابط فيها في آن واحد عشرة إلى خمسة عشر مركبا شراعيا تسهم في الإشراف على نشاطها عشرون دارا تجارية أوربية وقد ارتفعت الجالية الأوربية من 318 نسمة عام 1890 إلى 428 عام 1893 كان للاسبان فيها حصة الأسد (300 شخص).

غير أن الظروف الاقتصادية والسياسية اتسمت بالتقلب وعدم الاستقرار لا سيما بعد وفاة الحسن الأول فلم يصل عدد الأجانب لأكثر من 450 نسمة عام 1895 حيث ظهرت الكوليرا من جديد ففقدت المدينة 65 من سكانها طوال ثلاث سنوات (إلى عام 1898 ومع ذلك فإن مرسى الدار البيضاء كانت عام 1902 في الصف الأول من موانى المغرب بلغ عدد السفن المرابطة فيها عام 1904 سبع عشرة سفينة بسبب جودة الموسم الفلاحي الذي كان يكيف مستوى وبعد النشاط التجاري وهنالك ارتفع عدد السكان الأوربيين من 477 عام 1901 إلى 570 عام 1905 وقد لوحظ أن أعلى زيادة نسبية كانت للجالية الألمانية التي ارتفعت من شخصين عام 1878 إلى 30 عام 1905 وأصبح أفرادها متكاتفين أكثر من زملائهم خاصة منهم الواردين من هامبورغ وبريم ومع ذلك ظل الأسبان يشكلون ثلثي مجموع السكان الأوربيين واستمر التجارالفرنسيون يصدرون الأصواف والجلود بينما شاركهم الألمان وانجليز جبل طارق في وسق الحبوب الى الخارج إلى أن طرأت أزمة على سوق الصوف نظرا للأزمة العالمية آخر القرن الماضي فتقاعس الفرنسيون عن نشاطهم (*).

ويمكن القول بأنه في أوائل النصف الثاني من القرن الماضي تحولت مدينة الدار البيضاء من قرية صغيرة بسيطة إلى حاضرة حقيقية استعرت فيها حمى البناء والتشييد فلم يعد العرض يغطي الطلب نظرا لكثرة

---

*) Crise lainière à la fin des XIX.

1) Maurice Colral, le terme sur la laine peignée et la crise de Roubaix in Revue Polit. et Parlem., Janvier 1901 (p. 104).

2) Tromson R.J., Wooe Prices in Great Britain, 1902.

الواردين من الأجانب وتعقدت الازمة عام 1867 حيث ارتفع سعر الكراء وأصبحت المخازن عام 1874 لا تسع حاجات التجارة وشارك المخزن في حركة البناء مؤجّرا المتاجر بنسبة ستة في المائة من ثمن التكلفة وتضايقت الأراضي البور أو المحروثة حول المدينة سنة فسنة وأصبح الواردون مع ذلك لا يجدون بعد 1887 أي مكان لترويج تجارتهم بأي ثمن وبذلك أصبحت معالم المدينة تتغير باستمرار في كل عام وأصبحت النوالات تزحف نحو الجهة الغربية يقطنها بالإضافة إلى رجال الحرف والحمالين مهاجرون من البادية وظهر منظر جديد هو أكداس البضائع في الازقة والطرق في مثل علو المنازل حيث بلغت الواردات في بعض الأحايين أزيد من 120.000 كيس وقد تفضل السلطان آنذاك تلبية لطلب التجار الأوربيين بمد حدود المدينة أي بتوسيع الشبكة البلدية فتقرر إقامة سور في الجنوب الغربي تم بناؤه عام 1892 وفصلت المتاجر عن المساكن حتى لا يتضايق التجار من حركة القوافل التي تحمل السلع ووجد التجار أنفسهم وراء النوايل بعيدين عن مركز الأعمال وعن الميناء فوجهوا عرائض للمفوضيات بطنجة يطلبون إبعاد النوايل فرفض السلطان واضطر الأجانب للبناء وراء الاسوار حيث برزت العناصر الأولية للدار البيضاء العصرية من ضمنها بعض الفنادق وطاحونتان وضيع بعيدة عن المدينة ومركز للصيد وتضاعفت الفنادق عام 1900 وأصبحت الازقة تنظف يوميا الأمر الذي لم يمنع من ظهور الوباء عام 1878 فتضاعف النشاط البلدي لتطهير الشوارع تحت سلطة والي المدينة معززا بالسلك القنصلي ودخلت في سلك الاستعمال ثلاث عربات نقل الأزبال تشتغل يوميا بل وقع ترصيف بعض الطرقات من عام 1884 إلى 1888 بالإضافة إلى حفر بعض قنوات الماء الحار لتصفية مجاري المدينة إلا

أن السلك القنصلي بدأ بحكم التدخلات السياسية الأوربية النابعة عن الأوفاق السرية يحشر أنفه في بعض القضايا الوطنية فتدخل القنصلان الاسباني والانجليزي عام 1863 ـ بطلب من التجار الأجانب ـ لفض الخلاف بين قائد مديونة وقبيلته ومثل ذلك وقع غداة وفاة السلطان الحسن الأول عام 1894 حيث خيمت قبيلة الشاوية في أرباض المدينة لحمل واليها على تسريح المعتقلين من أفرادها وكان الوالي آنذاك هو القائد بركاش الذي تدخلت الجالية فعزل من منصبه محتفظا بأمانة المرسى بينما شغل منصب الوالي القائد أحمد بن العربي ومع ذلك فإن العلاقات ظلت طيبة بين الأهالي والتجار الأجانب حسبما يتجلى من تقارير القنصليات إلا أن المحميين (3) تكاثروا وبلغ عددهم عدة آلاف بين مستخدمين وخدمة ومشاركين فلاحيين مما أضفى على المدينة طابعا مغايرا للحواضر المغربية الأخرى حتى زعم وزير فرنسا المفوض في طنجة عام 1875 ان علائق التجارة تربط هذه المنطقة بأوربا ومهما يكن فإن الحياة اليومية للمواطن المغربي بدأت تتغير متأثرة ببعض المظاهر الأوربية كتطور تقنية الأعمال التجارية واستعمال الحوالات التجارية التي لم تكن معروفة قبل 1870 وانتشرت الاسبانية بين الأهالي نظرا لوفرة التجار الاسبان كما انتشر استعمال الغوليات (أي الكحوليات) ومنذ ذلك بدأ العنصر الاسرائيلي يلبس الزي الأوربي.

3) من ذلك أن الوزير الانجليزي ساطو(Satow) عندما زار الدار البيضاء عام 1894 استقبله أزيد من 130 مغربيا من المحميين الانجليز الذين يبلغ عددهم بإضافة أفراد عائلاتهم إلى نحو السبعمائة.

ونستنتج من هذا العرض الوجيز أن التجارة الأُوربية ساعدت على قيام مدينة الدار البيضاء فتوارد عليها طوال نصف قرن تجار أجانب وأهال بعضهم من البادية وآخرون من مدن مختلفة وأصبح عدد السكان يمثل في مختلف الحقب نحو أربعين ضعفا من عدد أفراد الجالية الأجنبية فارتفع هذا العدد من 4.000 عام 1866 إلى 8.000 عام 1878 إلى 14.000 عام 1890 إلى 24.000 عام 1905.

وفي أواخر القرن الماضي أصبح الأجانب يشكلون مجموعة متماسكة اجتماعيا ومنذ أول هذا القرن ارتفعت بينها حواجز فظهرت منتديات كفروع لجمعيات أُوربية غير أن الفرنسيين أسسوا منذ عام 1885 جماعة الحلف الفرنسي بسبعة وثلاثين عضوا ما لبث عددهم أن ارتفع إلى ستة وأربعين كما أن الألمان كونوا فرعا للرابطة البحرية Ligne Maritime ثم شكلوا عام 1905 جمعية لتطوير المصالح الألمانية بالمدينة وقد استقرت بالمدينة البعثة الكاتوليكية منذ عام 1868 (بعد أن كانت مفوضية البعثة في طنجة توجه رسلا لها بين الفينة والأُخرى أضيفت إليها بعثة بروتستانتية هي بعثة الشمال الإفريقي عام 1881 ووقع تدشين أول كنيسة عام 1891 (للفرنسيسكان).

وهكذا نرى أنه في ظرف خمسين سنة قطن الدار البيضاء من الأجانب (بإضافة المواليد التي وصلت إلى 155 قبيل مؤتمر الجزيرة) 2192 من الأُوربيين مما جعل من المدينة أكبر موئل - بعد طنجة - لهذه الفسيفساء من الجنسيات التي بدأت تتوالد بكثرة حيث وصلت بعد عام 1890 إلى خمسة مواليد للأسرة الواحدة.

وأصبح مرسى الدار البيضاء يشكل منذ 1907 أكبر ميناء تجاري بالمغرب غير أن الجالية الأوربية ارتفعت من ألف عام 1907 إلى 5.000 عام 1909 ثم 9.000 عام 1912 بينما قفز الرواج الاقتصادي في ظرف 5 سنوات (1908 ـ 1913) من 19 إلى 80 مليون فرنك وبعد توقف الهجرة خلال الحرب العظمى تواردت رؤوس الأموال الأجنبية وتضاعفت المضاربات وأثمان الأراضي الزراعية فأسست الضيع والعمارات وتزايد عدد سكان الحاضرة بهجرة الأوربيين والبدو حتى ارتفع من 35.000 عام 1907 إلى (47.000 عام 1912 و106.000 من بينهم 35.000 أوربي) عام 1926 بسبب تفقير البادية وتهافت سكانها على الميناء والمصانع والاوراش انتجاعا للعيش.

وقد تصاعد من 20.000 ألفا عام 1325 هـ / 1907 إلى 472.920 عام 1952 بخصوص المغاربة المسلمين وحدهم يضاف إليهم 74.783 من المغاربة اليهود الذين كانوا يشكلون آنذاك أكثر من ثلث سكان المغرب الاسرائليين الذين وجدوا في بلادنا ملجأ أمينا من عسف وعبث أوربا منذ النفي العام بالأندلس أي منذ أوائل القرن التاسع الهجري.

وقد بلغ سكان الدار البيضاء حسب إحصاء 1975 2.010.800 نسمة من جملة 17.305.000 للمغرب كله ومعلوم أن تقديرات المؤرخين تراوحت عبر التاريخ بين ثلاثة ملايين و30 مليون وأجريت عام 1917 إحصاءات أسفرت عن تسجيل 5,5 في منطقة النفوذ الفرنسي ولاحظ كوتيي Gautierأن مغرب القرن التاسع الميلادي كان أكثر عمرانا كما أكد كوستاف لوبون أن عددهم في عصره وصل إلى سبعة ملايين وأوصلهم صاحب (النخبة الازهرية) إلى ثمانية وكذلك ايركان (في المغرب الحديث) بينما جازف

موليراس Moulieras فأوصلهم إلى ما بين 20 و25 مليون (عام 1895) وقد أكد طيراس أن السلام الذي عاش فيه المغرب طويلا كان من شأنه تضخيم عدد السكان حيث وصلت حظائره إلى 50 مليون رأس عام 1859.

ولم تكن مدينة الدار البيضاء تتوفر إلا على عملاء قنصليين تجاريين خلفهم نواب قناصلة محترفون ثم قناصلة فكان للدار البيضاء الاسبقية في هذا المجال على الرباط والصويرة إذ منذ عام 1900 أصبح فيها أربعة قناصل وتسعة نواب قناصل أو مأمورون قنصليون هم القناصلة الأسبان والانجليز والفرنسيون والألمان ونواب قنصليون عن النمسا والولايات المتحدة وإيطاليا وبلجيكا والبرتغال والبرازيل والدنمارك وهولندا والسويد والنرويج (راجع B. Meakin, the Land Of The Moors فيريو فالفرنسيون هم فيريو P. Ferrieu إلى عام 1866 / جيلبير Gilbert من عام 1866 إلى عام 1869 / فليش Flesh من عام 1869 إلى 1877 / سوفير Sauvaire من 1877 إلى 1879 / دوموفوازين De mauvoisin من 1880 إلى 1882 / كرافري Craveri من 1883 إلى 1888 / كولومب Colomb من 1886 إلى 1897 / بينار Pinard من 1898 إلى 1901.

والقناصلة الإنجليز هم : وولدريج Wooldrige من 1857 إلى 1868 / دوبوي Dupuis من 1868 إلى 1872 / لابين Lapeen من 1872 إلى 1884 / هونتير Hunter من 1884 إلى 1890 فيرنو Fernau من 1895 إلى 1897 / ماكلين Maclean من 1893 إلى 1906.

ويضاف إلى هؤلاء مأمورون في القنصليات الفرنسية والإنجليزية والألمانية في حين أضيف إلى القنصلية الإسبانية عام 1884 بعد معاهدة

تطوان شخص مكلف في القنصلية بجباية قسط من رسوم الجمارك لأداء تعويضات الحرب التي تحملها المغرب آنذاك.

وتوجد سلسلة من السجلات وضعت في بلدية الدار البيضاء تحمل عقود الحالة المدنية المحررة في نيابة قنصلية ثم قنصلية فرنسا بالدار البيضاء منذ 1870.

أما الأطباء فقد استقر بالمدينة عام 1873 الدكتور فريزار Frezard حيث مكث أزيد من خمسة أعوام وأصبح للمدينة منذ عام 1881 طبيبان قبل أن تتوفر كل قنصلية اسبانية على طبيب عسكري هو Jordan جوردان ابتداء من عام 1889 ثم القنصلية الفرنسية بطبيبها ميرل Merle وانضاف أطباء خصوصيون حيث أصبح للمدينة عام 1904 خمسة أطباء يتقاسمون زبناء المدينة.

أما المعاهد الدراسية الأجنبية فإن أطفال الجالية كانوا يوجهون إلى أوربا لمتابعة دراستهم أو في طنجة ثم فتحت مدرسة الفرنسيسكان الابتدائية عقبتها مدارس خاصة بينما أسست مدرسة الحلف الاسرائيلي عام 1897 وكانت تقبل تلاميذ من جميع الديانات.

الرباط **عبد العزيز بنعبد الله**

الوجود العربي في سويسرة

قاسم الزهيري

أثناء إقامته في جنيف خلال بضع سنوات في مهام دبلوماسية، أنجز الكاتب تأليفا تحت عنوان : «سويسرة والعالم الإسلامي». وهو جاهز للطبع. وقد خص «المناهل» ببعض فصوله. وفيما يلي مقتطفات عن الوجود العربي في سويسرة مؤملين أن نتبعه بفصول أخرى في الأعداد القادمة.

بدأ اتصال العرب بسويسرة في الوقت الذي دخلت فيه أوربا إلى التاريخ. وكان التجار الفنيقيون أول من ارتادوا سويسرة واستقروا في المنطقة الواقعة بين نهر الرين وجبال الألب والجورا مثلما استوطنوا كثيرا من أرجاء أوربا والعالم المعروف وغير المعروف إذ ذاك. وربما التقوا هناك

بشعب الهيلفيت الذي قدم من غاليا وعرفت سويسرة باسمه إلى اليوم «هيلفيتيا» (1).

كانت سويسرة معروفة منذ قديم الزمان بالاستقرار والغنى والنماء. وكانت محل أطماع الجيران، ومقصد الراغبين في الثراء. مما دفع العرب والسوريين بوجه خاص إلى الهجرة إليها. وكان السوريون يحتكرون إذ ذاك تجارة المنتوجات الأجنبية مثل التوابل. كما كانوا يتقنون المعاملات المصرفية. وربما كانوا أول من مسك هذه المعاملات في سويسرة. وفي العهود الأولى لظهور المسيحية نزح كثير من السوريين ممن اعتنقوا الديانة الجديدة لنشرها في أوربا. وكان في ركبهم كثير من التجار العرب.

وفي العهد الإسلامي، وصل الفتح إلى سويسرة على يد عرب «المغرب» (2). أقام هؤلاء قاعدة في البلدة الصغيرة المسماة اليوم «غارد فريني» Garde Freinet سنة 889 م، ومنها كانوا ينتشرون في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا، ولما وصلوا إلى سلسلة جبال الألب احتلوا جميع المرتفعات والممرات وأقاموا بها تحصينات لمراقبة ما حولها. وكانوا يتلقون النجدات من الأندلس وإفريقيا.

وفي سنة 906 م كان العرب يسيطرون على جبال الألب ويرتادونها طولاً وعرضاً. واستولوا على جبل جوكس Mont - Joux المعروف اليوم بـ «لوغران سان بيرنار» Le grand Saint - Bernard. وفي سنة 940 م وصلوا

---

1) (السويسريون والعرب عبر القرون) بقلم أنور حاتم Suisse et Arabes à travers les Siècles par Anuar Hatem

2) المصدر المتقدم ص 15.

إلى سان موريس Saint - Maurice مما مكن لهم التسلل إلى مقاطعة «ڤالي» Valais ومنها نفذوا إلى مقاطعة ڤو Vaud واحتلوا شيون Chillon كما وصلوا إلى جبال كريزون Grisons مارين من سان غال Saint - Gall حتى وصلوا إلى بحيرة «كونسطانس». ثم لفوا على مقاطعة جنيف ودخلوا إلى جورا Jura.

في سنة 943 م حاول ملك إيطاليا هوغ Hugues انتزاع قاعدة «غارد فيرني» من أيدي العرب لقطع الإمدادات التي كانوا يتلقونها عن طريق البحر الأبيض المتوسط. وطلب مساعدة صهره أمبراطور بيزنطة إذ ذاك ليكابين Lécapène. فأسعفه بالجيش والعتاد، وبدأ الغارة على القاعدة حين بلغه أن منافسه على إيطاليا بيرانجي Béranger يستعد للهجوم عليه. فصرف الجيش البيزانطي وتحالف مع العرب معترفا بسيادتهم على ما كان تحت أيديهم شريطة أن يمنعوا خصمه من الوصول إلى إيطاليا.

واصل العرب فتح مقاطعة «ڤالي» واحتلوا سنة 972 م سان مايول Saint Mayeul. فكان لهذا الاحتلال وقع كبير في أوربا بإسرها إذ ذاك. فجهزت جيشا يفوق الجيش العربي عددا وعدة وهاجمته من جميع الجهات سنة 975 م. فسقطت قاعدة غارد فريني وتبعتها جميع الحصون العربية.

وبالرغم عن بقاء العرب نحو قرن في سويسرة، فإنهم لم يؤسسوا بها إمارات. وظل بها الكثير منهم حيث تعاطوا مهنا حرة من جملتها الزراعة؛ واختلطوا بأهلها. والجدير بالذكر أنهم تركوا أثرا مهما في مقاطعة الڤالي الواقعة بالوادي العالي لنهر الرين، «ومن المعروف أن العرب هم الذين أدخلوا إلى هذه المنطقة سواقي الري التي لا تزال تستعمل حتى اليوم. وان

المسلمين الذين أتوا من اسبانيا قد أدخلوها إلى هذه المنطقة منذ حوالي أحد عشر قرنا. وبقي قسم منهم في هذه الوديـان السحيقـة وانصهروا مع سكانهـا وأصبحوا شعبا واحدا» (3).

ولا تزال كلمات عربية موجودة في اللغة المتداولة لحد اليوم منهـا على سبيـل المثـال Allalinhorn أو جبـل اللـه ويقـع في سلسلـة جبـال الألب بمقـاطعـة «ڤـالي»» و Almagelhorn جبل المـاجل وكلمـة Gaby وهـو مركـز معروف كانت تجبى فيـه الضرائب وبلـدة تحمـل اسم La Sarraz وهـو لفـظ منحـدر من Sarrasin الإسم الـذي كان يطلـق على العرب المسلمين وبلـدة Shams في مقاطعة تقع على منحدر جبلي تغمره الشمس.

☆ ☆ ☆

ننتقل إلى الوجود العربي والإسلامي بسويسرة في الوقت الحـاضر. من المتعذر إعطاء رقم دقيق، ولم يجر أي إحصاء رسمي لعـدد العرب والمسلمين في سـويسرة لعـدة أسبـاب منهـا كثرة تنقـل الأشخـاص والعـائـلات من وإلى سـويسرة في السلـك الـدبلـومـاسي والمنظمات الـدوليـة بهـذه البـلاد بصـورة مطردة. وتـوافـد المهـاجرين من الشرق الإسـلامي بسبب الأزمـات التي تشهدها المنطقة. وإذا كانت سلطـات الأمن السـويسريـة تملـك لوائح بعـدد المسلمين، فإنهـا لم تكشف عنهـا. ويقـدر المهتمون بـالموضوع أن عـدد المسلمين بسويسرة يتراوح بين خمسين ألفا ومائة ألف شخص.

وقـد كتبت جريـدة «لاسـويس» (4) : بـأن المسلمين يشكلـون ثـالث جماعة دينية في سويسرة بعـد الكاثوليـك والبروتستـانت. وأن عـدد المسلمين

---

3) سويسرة بين يديك بقلم روجي دي باسكيه.

4) بتاريخ 15 مارس 1982 م.

يتراوح بين 50.000 و60.000 حسب نتائج الإحصاء الذي قام به المكتب الوطني السويسري للإحصاء سنة 1980 م. وأضافت الجريدة قائلة : لكن أعضاء الجماعة الإسلامية يقدرون العدد ما بين 70.000 و100.000 شخص.

ولا يعرف أيضا عدد المسلمين من أصل سويسري على وجه التدقيق. فالتقديرات تتحدث عن ثلاثة آلاف. وذكرت جريدة «لاسويس» أن عدم التمكن من إحصاء دقيق لهؤلاء المسلمين راجع إلى «أن الكثير منهم يمتنعون عن إعلان إسلامهم ويدأبون على التصريح بأنهم بروتستانت، أو كاثوليك لئلا يعرضوا وظائفهم إلى الخطر، إذ أن كثيرا منهم يحتلون مناصب مهمة».

هذا، ويوجد ما يزيد عن عشرة مراكز إسلامية أغلبها يتوفر على مساجد لأداء الفرائض الخمس وصلاة الأعياد الإسلامية وقلة منها يتوفر على مدارس تلقن مبادئ الدين واللغة العربية وتقوم بنشاط ثقافي.

الرباط **قاسم الزهيري**

جنة العريف (*)

د. رشيد عبد الرحمن العبيدي

أيّ سفرٍ هـــذا الجـــلالُ حيـــالي !
مـــا أطقتُ احتمال مـــاقـــد بـــدالي
ايقظـــوني من سحر (هـــاروت) إني
غـــارق خـــاطري ببحر المُحـــالِ
إن قلبي ومـــا تُكِنُّ ضلـــوعي
من شـــديـــدِ الأسى شجي المقـــالِ

☆ ☆ ☆

(☆) نظمت في غرناطة الأندلس في ثنايا (جنة العربف) ذات الغرف الخضر...

إيـه غرنـاطـةَ الليـالي الطـوالِ   حـدثيني عن أهـل تلـك الليـالي
حـدثيني عن الشمـوخ تهـاوى   في جـلال... وعن جبـاه عـوالي
حـدثيني عن الرجـال سيـوفـا   في ميـادين نخـوة وصيـالِ
حـدثي النفس عن مـواكب مجـد   قـد تخطَّتْ على طريـق المعـالي

عن هـوى من عرائس الشِعْرِ غضّ
لابن زيـدونَ فَـوْقَ جيـدٍ حـالي
عن عُيـونٍ يَـزِدْنَ زهْـوَكِ سِحْراً
وجـوارٍ يَبْعثْنَ سِحْر الجمـالِ
وريـاضٍ يَنْضِخْنَ في كلِّ وجـهٍ
عبقـاً عـاطراً... رضيُّ الـدّلال

☆ ☆ ☆

هـذه (جنَّـةُ العريف)... خيـال   في ضمير الـزمـان أي خيـال
إنهـا مـوكبُ العروس تجلَّت   في زُفـاف محفـوفـة بـالجـلال
فعلى الـدرب من شـذاهـا عبير   والنـدى العبقريّ ريـح الشمالِ

عُرَف للهـوى النقيّ تُـواري
في الـزوايـا رفيـقَ حسْنِ المقـالِ

☆ ☆ ☆

إيـه يـاجنّـة العريف تعـاليْ   أقنعيني فـالشـك فيّ مُغـالي
أفـأنت الفردوس في الأرض حقـا   لست أدري ! أم بنت عمّ وخـالِ
نسب ظـاهر بكلّ انحنـاء   في مروج تميس فـوق التـلال
في خرير الميـاه، وهـو شجيّ   حـامل في الغنـاء شوق الجبـال

في الغـــزالات لاعبـــات لـــواه يتفلَّتْنَ من شراك الغـــــــزال

كلّ تغريـــدة تُطِـلُّ علينـــا من أعـــاليـــك لحن قرن خـــالى

كل نبت على ترابـــك جـــاث فهـو غرس رعتـه أيـدي الرجـال

كيف أسلمت للـزمـــان قيـــادا وجرعت الرّدى بغير قِتـــــالِ

كنت أمنـــــا بـــل كان لـــلأمن مهــــذ

بين أحضــــــــان جَـــــــدْولٍ ودوالي

أين أوْدَتْ زُنــودُ تلـــــك الرجــــال ؟

كيف بــــادَتْ معـــاقِـلُ الأبْطــــالِ ؟

ولِم السُّـؤل !؟ قَـــدْ تـــزول جبــــال

فســوى اللـــــه ـ كُلُّنـــا للــــزوالِ...!

☆ ☆ ☆

أهـل هـذي الـدّيـارِ كم من ديـارٍ قـد أضَعْنـا وكم مَضى من مثـال !

نتـــداعى فيستبـــدّ طغــــام وعلى الأنف مِغْـــــوَلُ الإذلالِ

ومنـــاشيرُ فُرقـــةٍ في حمـــانـــا صَيَّرَتْنَـــا مُقطعي الأوصـــال

ففلسطينُ محسنـــةٌ من جـــديـــدٍ تتعرى على دروب النّضـــــالِ

كلُّ خُطـو على طريـق التحـدّي هـو خطـو على طريـق المنـالِ

أجمعـــوا أمرَكُم وشُـــدُّوا خُطـــاكُمْ

وعَلَى اللـــــهِ نَصْرُكُمْ في التــــوالي

مراكش **د. رشيد العبيدي**

مع أبي سالم العياشي (*)
في رحلته إلى المشرق
(2)

عبدالقادر زمامة

رافقنا الرحالة المغربي أبا سالم العياشي في رحلتـه إلى المشرق. ورودا. وصدورا... وتتبعنا ما كتبـه عنهـا في كتـابـه : «مـاء المـوائـد» وهو الاسم الذي اختاره أبو سالم. لوصف رحلته الثالثـة. التي أنجزهـا سنـة 1072 هـ = 1661 م...

ونحن نعلم أن أبا سالم أنجز قبل هـذه الرحلـة رحلتين اثنتين... الأُولى سنـة 1059 هـ = 1649 م. والثـانيـة سنـة 1064 هـ = 1653 م. وكلتـاهمـا بطريق البَرّ... وعَرَف المسالك. والطرق. واكتسبَ تجربةً. وخبرةً. بالمجتمعات التي مر بها. وأصبح بإمكانه أن يكتب تقريرا. جغرافيا. اقتصاديا. تاريخيا. عن مشاهداته وممارساته...! يستفيد منه الناس...!

(*) راجع مجلة (المناهل) العدد 27 يوليوز 1983 م.

والطريف في الأمر أن أبا سالم كتب هذا التقرير فعلا وقدَّمه هـديـةً في شكل رسالة ممتعة. أتحف بها صديقه. وتلميذه. قـاضي فـاس. أبـا العبـاس أحمد بن سعيد المكَيلدي. مختصِرَ كتـاب : المعيـار. ومؤلفَ كتـاب : التيسير في أحكام التسعير... المتوفى سنة 1094 هـ = 1682 م. بعد أستـاذه العيـاشي بأربع سنوات...

وهذا التقرير. أو هـذه الرسـالـة. كتبهـا أبو سـالم. سنـة 1068 هـ = 1657 م. وهي السنة التي عزم فيها أحمد بن سعيـد المكَيلـدي، على الرحلـة لأداء فريضة الحج... وأرسل رسوله إليه ليخبره بما عزم عليه...!

وكان أبو سالم يؤمّل أن تلميذه. وصـديقـه. المكَيلـدي. يؤخّر الرحلـة. إلى السنـة المواليـة. 1069 هـ = 1658 م. ليكـونـا معـا في رفقـة واحـدة... يؤنس كل منهما الآخر...

فلما حـالت الظروف الخـاصـة. دون تحقيق هـذه الرغبـة... كتب أبو سالم هذا التقرير الطريف. في شكل رسالة... يصف فيها المراحل. والمنازل. والطرق. والأسواق. وأحوال الأمن. وأصنـاف البضـاعـة. وأنواع الـزاد. ومـا ينبغي الاحتيـاط فيـه. والاستعـداد إليـه من مشـاكل. ومـلابسـات. ومعاملات..!

وأبو سالم في رسالته هـذه. خبيرٌ. ذكيٌ. مخلصٌ. صريحٌ. واقعيٌ. يقـدّمُ خلاصة تجاربه. إلى شخص عزيز عليه. يؤمل أن يجد فيهـا العون. والسنـد. والدليل... ليقوم بهذه الرحلة في ظروف حسنـة وأول شيء يهتم بـه أبو سـالم ويلح على تلميـذه أن يهتم بـه. هو إعـداد النفس. إعـدادا كاملا. للإخلاص.

والصبر. والتحمـل. والمجاملـة. والتغـاضي عن أخطـاء الرفقـاء... ومعـايب الناس... والتمسك بالأناة. والصبر في كل الظروف...!

ومن الطريف أن أبـا سلـام يستعمل في هـذا المعنى. تعبيرا. مغربيـا. شهيرا. مازال مسموعا. ومعروفا. إلى الآن... وهو قوله عن الصبر :

ـ واجعله في فَم المَزْوَد......!!

ويعني بذلك أن يكون الصبر قريبا منه. حاضرا لديـه. في كل وقت. وفي كل مكان...!!!

وإلى جـانب الإعـداد النفسي. يلـح أبـو سـالم على تلميـذه أن يتجهَّـزَ بأنواع من البضـاعـة المغربيـة. لتكون أثنـاء هـذه الرحلـة الطويلـة. بمنزلـة عُملة. يقايض بها. ويأخذ في مقابلِها أنواعاً من البضاعة. التي يحتـاج إليهـا. من عَلَفٍ وطعـام. وشراب. وأدوات. ومـا إلى ذلـك... ويقـول أبـو سـالم في ذلك....

«... فإذا أخذت في تجهيز أمرك. فاشتر شيئـاً من الجلـد الأحمر. فـإنـه نـافق أمـامـك... وستصل إلى قرى لا يعبؤون بـالـذهب... ولا يعرفون لـه قدرا....! ولا يستخرج الإنسان من عندهم ما يحتـاج إليـه. من زاد. وعَلَف. ودواب. وتبن. وحَطَب. إلا بمـا يسميــه الحجـاج **العطريــة** وأنفـع ذلــك **القرنفل.** مع شيء من **الكحـل** والسـواك. والـزعفران. والجـاوي. والمشـط. وشيء من الإبر. والكاغد. والجناوي (1) الصغـار. والألواح. فلا تُخلِ نفسـكَ من ذلك. فربما يُطْلَبُ في بلد. ما لا يُطْلَبُ في غيره....!!!».

---

1) السكاكين : والمفرد الجنوي. وهـذا الاستعمال معروف في المغرب. والأصـل فيـه أن نـوعـا من هذه السـكاكين كان مستورداً من مدينة جنوة... ثم وقع التعميم...

وهـذا يعطينـا معلـومـات عن نـوع التجهيز. الـذي كان للرحـالين. المُقْدمين على اجتيـاز عـدة أقـاليم. وأقطـار في المـدن. والقرى. والصحـاري. والمفـازات. ونـوع المقـايضـات. والمبـادلات. التي كانت تتم بينهم. وبين من يمرون بهم....

والعياشي يذكر المراحل. والمنازل التي سير منها المكَيلـدي. على شكل مجموعـات. كل مجموعـة تنتهي بمدينـة شهيرة. أو قريـة أو واحـة. أو واد. أو عين. أو زاوية لأهل العلم والعبادة... ويقدّرُ ذلك تقـديرا بـالأيـام. ويزوّد صديقه بكل المعلومات التي هو في حاجة إليها...!

فمن بداية الرحلة في سجلماسة. إلى فكيك ثمان. أو تسع ليـالٍ. مروراً بعدة أعلام جغرافية... ومن فكيك إلى مدينة بسكرة. ما يقرب من إحـدى وعشرين ليلة. مروراً بعدة قُرى. وواحات. وأضرحة. وزوايا...

فهناك قبل الوصول إلى فكَيك. ماء الكراكر... وتلغمت... والحمـاد... وواد الصفصاف... وواد چير... وبشار... وأم اليباس...

وهنـاك قبل الـوصـول إلى بسكرة... يُـوسمغـون... وأم القرار... وعن ماضي... وتاجموت... والأغواط... وسيل خالد...

ولعل أغرب ما نجده عند العياشي من معلومات. ونحن نرافقه في هذا التقرير. أو هـذه الرسـالـة... هـو قـولـه مـوجهـا الخطـاب إلى صـديقـه المكَيلدي...

«... وخذ لنفسك ما تحتاج إليه من البارود... والرصاص... واتخذ لأصحابك ولنفسك مدافع (2)... فإنها في الطريق هَيْبَةٌ. وأيّ هيبة... فاستكثر منها جهدك... وأمر من يستمع لك بذلك... فإنها نعم السلاح. لمن هو في تلك الطريق...!!».

وقد لا حظ العياشي أن مدنية بسكرة رخيصة الأسعار. فيما يرجع للبضاعة التي يحتاج إليها ركب الحجاج... كما لا حظ أنها أول عمل الترك...!!! وله بها أصدقاء ينزل عندهم. ويوصي الآن صديقه المكَيلدي بزيارتهم... والسلام عليهم...

ومن بسكرة إلى مدنية تَوْزَر يُعَدّدُ العياشي المنازل. ويصف خصائصها... وينهج نفس النهج في المسافة الفاصلة بينها وبين مدنية قابس... ويلاحظ العياشي أن مدينة قابس. هي آخر بلاد يرى فيها أهل هذا الركب نهرا جاريا...!!

ومن توزر.. إلى قابس... إلى طرابلس... يوصي العياشي بزيارة أضرحة الصالحين. وزوايا أهل العلم... كما يوصي بزيارة أستاذه. محمد بن مساهل... الذي عرفه في مدينة طرابلس... واستفاد من علمه وفضله..!

ومن الملاحظات الدقيقة التي سجلها العياشي في هذه الرسالة. أن معالم مدينة طرابلس الإسلامية. قد تغير الكثير منها... واندثرت بعضُ مقابر أهل العِلم والصلاح بها. لأن هذه المدينة وقعت عليها عدة إغارات صليبية. ويقول :

---

2) يعني بها ما نسميه : البنادق... المكاحل... وهذا الاستعمال معروف في مصادر مشرقية ومغربية...

«... وزُورُوا هنالك من الصـالحين الأموات وهم قليلون... لأن البلـد حـديث عهـد بكُفْرٍ...! فقـد تـداولتـه أيــدي المسلمين والنصــارى... مراراً متعددة... فلذلك خَفِيت قبورُ كثير ممن فيها من الصالحين... وإلاّ فقد كان فيها كثير من العلماء والصالحين في العصر الأول..!».

وتستفيـد من حـديث العيـاشي أن الحجـاج كانوا يمكثـون في مـدنيـة طرابلس. مدة طويلة. لإعداد أنفسهم لقطع المفـازات الصعبـة التي تنتظرهم للوصول إلى مصر مروراً ببرقة..!

ففي هـذه المـدينـة يقـع شراء الـدقيـق. ومنـــه يُعَـدُّ البشماط (3)... والبسيسة (4)... والمحمصة... مما هو ضروري في الزاد... في ذلك العصر...

وفيها يقع شراء الإبل... والغرائر... والقِرَب للماء... وما إلى ذلك من أنـواع الـزاد المحتـاج إليـــه.. لقطـع مفـــازة برقـــة... والـوصـول إلى الجبـل الأخضر..!

وأبو سالم العياشي يقدّر الشيخ أحمـد زرُّوق وفضلـه. وعلمـه. كما يقـدر منهاجه الصوفي. وآراءه. وكتبه. وما قام به داخل بلاده وخارجهـا من دعوة وإرشاد ونُصح.

ويقدر ما قامت به زاويته القريبة من مسراته من أعمـال لهـذا حض صـديقـه المكَيلـدي على زيـارة ضريـح الشيـخ زروق. وزاويتـه والقــائمين عليها...!

---

3) البجماط.. والبشماط. نوع معروف من الخبز المحلّى المجفف أنظر Dozy ج 1 ص 51.

4) البسيسة. دقيق الشعير المقلو المزيت المحلّى. انظر Dozy ج 1 ص 82.

ومفـازة برقـة قطعهـا العيـاشي ورُوداً وصـدوراً... وعرف مشـاكل الراحلين بها وما ينتظرهم فيها من وحشـة وحر وقلـة مـاء... لكنـه قـدَّم لصديقـه خلاصـة الاحتيـاطـات التي ينبغي أن يقوم بها وهو يَقطعها مع رفاقه لأول مرة في حياته...!

وفي الاسكندرية يذكُر العياشي أنه نظم قصيدة في مـدح الشيخ أبي العبـاس المرسي دفين ذلك الثغر المصري... وعلقها على بـاب روضتـه.. كما يذكر أضرحة يعرفها هناك لعدد من أهل العلم والصلاح... يحضُّ صديقه المكَيلدي على زيارتها... منها ضريح ابن الحـاجب... والطرطوشي... ويختم حديثه عن الاسكندرية بقوله :

«وليس في تلك المدينة ما تحتاجون إلى شرائه..!»

وفي مصر (القاهرة) يعرّف أبو سالم صديقَه بما هو في حـاجـة إليـه من اتصالات ومشاهدات مفيدة.. وهو يقضي أياماً معدودة في هـذه العـاصمـة الكبرى على صلـة بـالكتب... والأزهر... والعلمـاء... وفيهم شيوخ العيـاشي وأصدقـاؤه ومفيـدوه... كما يعرّفـه بمـا يلـزمـه من تجـديـد للـزاد والمطـايـا والأدوات...

فهنـاك الشيـخ علي الـدمشقي صـديـق العيـاشي. ودلال الكتب بالأزهر...! وصلة الوصل بين الوافـدين على القـاهرة وكثير من أهل الفضل والعلم...

أما قائمة الأساتذة الـذين اختـارهم العيـاشي لصـديقـه ليتصل بهم فهم مذكورون في فهرست العياشي التي أجاز بها تلميـذه وصـديقـه أبـا العبـاس أحمد بن سعيد المكَيلدي... وهي المسماة :

«اقْتِفَاءُ الأَثَر بعد ذهاب أهْل الأَثَر...»

ولا شـــك أن المكَيلـــدي كان في شـــوق كبير إلى عَـــالَم الأزهر.. والأساتذة.. والكُتب... وأشفى غلته من ذلك كله لأنه ـ كما يظهر من كتبه وترجمته (5) ـ كان دا شخصية علمية مهتمة بالتطلع والاستفادة والاستزادة من العلوم والمعارف والأسانيد..!

ولا شك أنه كان على نهج أستاذه العياشي يربط الصلة العلمية والودية بعدد من الأعلام ممن لهم شهرة علمية أو صوفية.. أو لهم أسانيد في روايات كتب الحديث الشريف.. وكتب الأئمة الأعلام في العلوم الاخرى...!

ويعيّن العياشي تاريخا محدداً للخروج من مدنية القاهرة وقصد الديار الحجازية... وهذا التاريخ هو اليوم الثاني والعشرون من شهر شوال...

وحيث إن الطريق تشق صحراء سيناء والفصل فصل حَرّ.. فإن العياشي يُلح أن يُكثر أهل الركب من قِرَب المـــاء استعـــدادا لعطش الصحراء...!!

ومنازل الطريق في صحراء سيناء إلى العقبة (أيلة) ومنها إلى ينبوع منازل شاقة قليلة المياه الصالحة للشرب. ولكنها ممهّدة. مطروقة. وبها يخزنُ الحجاجُ بعض أزوادهم. ليأخذوه بعد رجوعهم من الحجاز..!!

---

5) المكَيلدي من أشياخ اليوسي راجع ترجمته في السلوة ج 3 ص 206. وفهرس الفهارس ج 1 ص 420. ط فاس 1346 هـ. وغيرهما من المصادر.

والعياشي على خبرة بأماكن اتصال الركب المغربي بالركب المصري... وكذلك بأماكن اللقاء بالركب الشامي... وكل ذلك حصل له بتجربته الخاصة وممارسته الذاتية.. في رحلتيْه السابقتيْن...

وفي كل من ينبوع.. وبَدْر.. ورابغ.. يتحدث العياشي عما يجب من أعمال واستعدادات وممارسات منها ما هو صحي. وما هو اقتصادي. وما هو ديني...

ويخاطب صديقه المكَيلدي قائلا :

«واجتهد أن يكون قُوتُك من يوم احرامك أحلَّ ما عندكَ... وإن قدرْتَ على ذلك في جميع سفرك فافعل. واجعل أحَلَّ ما عندك للقُوت.. وما يليه للّباس.. وما يليه للدوابّ وغير ذلك..!!».

وهكذا لا ينفك العياشي يغذِّي عقلَ تلميذه ورُوحَه وأخلاقَه بما يؤهله لأداء رسالة العِلم والدين والخُلق على الوجه الأكمل....!

وفي رابغ كان الإحرام بالحج. وإلى مكة المكرمة كان السعي. وفي المسجد الحرام كانت نهاية الرحلة. حيث أقبل المكَيلدي على أداء مناسك الحج... ابتداءً من الطواف... وانتهاءً بعرفات... وأيامِ منىً...

ويبقى على المكَيلدي بعد ذلك أن ينظِّم صلته بالأساتذة من أشياخ العياشي وأصدقائه. ومن يحضر الموسم من أهل الأقطار الأخرى...

ولعل العياشي كان حريصا على أن يرى شيوخَه في مكة تلميذَه في المغرب وما يمتاز به من معرفة واطلاع وأخلاق ونبل وتواضع...

ونحن نعلم أن علاقة العياشي بشيوخه في مكة وفي غيرها. قبل كتابة هذه الرسالة وبعدها كانت علاقة تقدير وتكريم. ومودة وإفادة... وقلمه في كتاب (ماء الموائد) وفي غيره يصور ذلك أدق تصوير....! (6).

وإذا كنا لم نطلع على شيء من آثار أبي العباس المكيلدي. يُفصّل لنا ما أجمله العياشي في هذه الرغبات والنصائح والتوجيهات التي أمده بها في هذه الرسالة حول شيوخ العلم والرواية في مكة وغيرها... فإننا مطمئنون إلى أن المكَيلدي كان في حاجة إليها. ولذلك طلبها من أستاذه ليهتدي بها ويتصرف على ضوئها...

وقد وقع الحديث عن «فهرست» لأبي العباس المكَيلدي لكننا لحد الآن ـ فيا نعلم ـ لا نستطيع إثباتاً ولا نفيا في هذا الموضوع..!!

ولو كانت هذه الفهرست بأيدينا لأمكننا أن نعرف شيوخ المكَيلدي بالضبط في المشرق، كا عرفنا شيوخ العياشي.

وفي المدينة المنورة لأجل الزيارة. يجد العياشي المناسبة تقتضي أن يجدّد له تلميذُه العهدَ بالمعالم والأعلام ويبلغ رسالةَ الشوق كاملةً إلى الديار ومن يحل تلك الديار... ويدعو له بما يرجو من الله قبوله...!

بعد ذلك يتفرغ لحديث العلم والعلماء. والمشيخة والشيوخ. فللعياشي شيوخ في المدينة وأصدقاء وأحباب من أقطار شتى فيهم المغربي والمشرقي يود أن يتصل بهم تلميذه المكَيلدي ويبلغهم تحياته وتمنياته...

---

6) كتب العياشي بعد فهرست : اقتفاء الأثر : فهرست أخرى سماها : (اتحاف الاخلاء بأسانيد الأجلاء) : مخطوطة.

ولعله فعل. ولعله وجد في أولئك الشيوخ وفي غيرهم ضالته المنشودة في الإفادة والاستفادة والرواية والإسناد...!

وهكذا ينهي أبو سالم العياشي هذا التقرير أو هذه الرسالة الطريفة التي تصور تفكيره وتعبيره وما كان يشغله من رغبات واهتمامات...

ولا نودع الحديث عن المكَيلدي والعياشي دون أن نشير إلى أن هذه الرسالة وقعت تسميتها باسم : رحلة العياشي الصغرى...!! ومنها عدة نسخ خطية في خزائن خاصة وعامة... أطلعنا على بعضها... أثناء دراستنا للعياشي وآثاره الشعرية والنثرية.. فهذه الرسالة هي ما يسمَّى برحلة العياشي الصغرى... (7) وهي المترجمة إلى اللغة الفرنسية...

فاس **عبد القادر زمامة**

---

7) الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية. د. محمد الأخضر ص 100. ط. الدار البيضاء 1977 م.

الرّدُّ المَغربي
على الرسَالة المنسُوبة للشيخ محمد بن عبد الوهّاب

أحمد العراقي

نشرت مجلة «الدارة» (السعودية) في عددها الأول من سنتها السابعة رسالة منسوبة للشيخ محمد بن عبد الوهاب، قيل انه كان بعثها إلى أهل المغرب. وقد وردت نسبتها إليه بالفعل في نصها المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط (1) وفي بعض المصادر المشرقية (2) والمغربية (3)، إلا أن فضيلة الدكتور عبد الله الصالح العثيمين كان قد تساءل في مقال له في نفس المجلة (4) عن صحة هذه النسبة وأثبت بكثير من الحجج عدم صحتها.

---

1) وعنه نشرها الشيخ أبو تراب في مجلة «الدارة» : ع 1، س 7، ص 6 ـ 16.

2) الدرر السنية، لعبد الرحمان بن قاسم : 56/1 ـ 59 (نقلا عن مقال «حول الرسالة المنسوبة للشيخ محمد بن عبد الوهاب»، د. عبد الله الصالح العثيمين، مجلة «الدارة» : ع 1، س 9، ص 221 ـ 227).

3) الترجمانة الكبرى، للزياني : ص 394 ـ 396.

4) الدارة : ع 1، س 9، ص 221 ـ 227.

والحق أن المتتبع لخبر هذه الرسالة في بعض المصادر المغربية يجد ما يؤيد هذه الحجج ويزكيها، ومن ذلك.

ـ أن هذه الرسالة بعث بها إلى المغرب ـ مباشرة أو عن طريق علماء تونس ـ بعد استيلاء زعماء الدعوة على الحرمين الشريفين (5). ومن المعلوم أن هذا الاستيلاء كان قد تم سنة 1218 هـ (6)، وكان ذلك بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب باثنتي عشرة سنة.

ـ أنها وصلت إلى المغرب في غضون سنة 1226 هـ (7)، وكانت مرت على وفاة الشيخ آنذاك عشرون سنة. فإذا كان الشيخ هو باعثها فهل ظلت أكثر من عشرين سنة في طريقها إلى المغرب ؟!

ـ أنها قطعا مكتوبة زمن سعود بن عبد العزيز بعد استيلائه على الحرمين الشريفين، فاليه وجه الرد المغربي عليها وهو المخاطب فيه وقد ورد فيه اسمه أكثر من مرة. فهي اذن ليست للشيخ محمد بن عبد الوهاب ولكنها لغيره، وقد تكون كما يظن الدكتور عبد الله الصالح العثيمين لابنه الشيخ عبد الله.

وعلى كل فإن هذه الرسالة قد وصلت إلى المغرب ـ كما تقدم لنا ـ سنة 1226 هـ، وذلك في غضون حكم السلطان المولى سليمان العلوى (1206 ـ 1238 هـ)، وكان تصدى للرد عليها بأمر منه وعلى لسانه أحد كبار علمائه

---

5) الاستقصا، للناصرى : 120/8.

6) أثر الدعوة الوهابية، لمحمد الفقى : ص 93 ـ 95.

7) الاستقصا : 119/8.

وشاعر دولته الشيخ أبو الفيض حمدون بن الحاج السلمي (8)، وذهب بهذا الرد ولده الأمير ابراهيم حين سافر للحج (9)، في نفس السنة، وكان السلطان المذكور قد وجه ولده في جماعة من علماء المغرب وأعيانه (10)، لأداء فريضة الحج وللاتصال بآل سعود أولي الأمر بالحجاز.

وأما فيما يخص هذا الرد فإنه عبارة عن قصيدة ميمية من البسيط على نهج بردة البوصيري، جعلها الناظم في تسعة وتسعين ومائة بيت تتخللها فقرات من النثر. استهلها بذكر بعض المواطن الحجازية والتشوق اليها، متخلصا إلى الصلاة على الرسول عليه السلام ثم تحية سعود ـ المرسل اليه ـ والاشارة إلى ـ المرسل ـ السلطان سليمان الذي كتب الرد باسمه وعلى لسانه. وانتقل بعد هذا إلى الموضوع، فدعا في البداية لسعود بالجزاء الحسن لما أولاه من عناية باماتة البدع وتوفير الأمن والهناء في ربوع الحجاز وذلك بالقضاء على أهل السلب والنهب، ثم أخذ في مناقشة ما نادت به دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كمنع لثم ما يعظمه الشرع وزيارة الأنبياء والأولياء والبناء على القبور ونحو ذلك من الأقوال والأفعال والغلو في الحكم على مرتكب ذلك سدا للذرائع، ولاحظ أن علماء الأصول والفروع قد اختلفوا في الحكم على ذلك ولكنهم لم يغالوا فيه ولم يكفروا مرتكبه ولا أفتوا بقتله. واستمر في المناقشة طويلا محتجا بكثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الفقهاء والمحدثين والصوفية، ثم دعا سعودا إلى الرفق

8) انظر ترجمته ومصادرها في مقدمة تحقيقنا لديوانه «النوافح الغالية»، ص 44 ـ 80.

9) الجيش العرموم، لاكنسوس : 196/1.

10) الاستقصا : 120/8 ـ 121.

بخلق الله مبينا أن ما صدر عنه من نصح له هو من باب «الدين النصيحة»، وأنه لم يخرج في ذلك عن نهج الامام أحمد بن حنبل - وبه يقتدى زعماء دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - في الرد على كل من ركب هواه وزاغ عن الجادة.

لم نعد عن منهج الامام أحمد في
رد على راكب هوى ومجترم

وتطرق بعد هذا إلى التنبيه لأمور يشيعها الناس عن زعماء الدعوة وأتباعهم، وهي بدع مخالفة للدين، ومنها دعوة من دان بدعوتهم إلى قطع رحمه بوالديه والاقرار بشركهم ودعاء أمهات المؤمنين لوالداتهم، ولكنه يشك في صحة ذلك ويعتبره كذبا ملصقا بهم من قبل خصومهم.

سعود هذا الذى سمعت قلت به
وفقا لما نقلوا عن ساكن الحرم
فإن يكن ذاك كاذبا وذلك ما
نظن فاسمح لما طغى به القلم
وانما هز أقلامي لنصحك ما
بلغته عنك من أحاسن الشيم

ويخلص من هذا أخيرا لمدحه، ثم ينهي الرد بالإشارة إلى أنه قد بعث ابنه - يعني ابن السلطان الأمير ابراهيم - لينوب عنه في تأدية مناسكه بالحرمين.

ومما ينبغي أن نلاحظه أن هذا الرد قد أثار داخل المغرب وخارجه سخط بعض الأوساط الرافضة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب واعتبرته

تجاوبا معها وركونا إلى زعمائها وأتباعهم (11). ويبدو فعلا أن مسارعة السلطان المغربي للرد على رسالة سعود، وارسال ابنه الأمير ابراهيم على رأس وفد مهم من العلماء إلى الحرمين للوقوف على حقيقة أمر هذه الدعوة يمكن اعتبارهما تجاوبا بين ميوله السلفية الاصلاحية التي كان يعبر عنها في بعض كتاباته (12) وبين التصحيح الذي حملته دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وأما ما يتضمنه الرد من نقد غير يسير لما نادت به الدعوة فهو من قبيل التأكد من سلامة مبادئها والتمييز بين ما هو أصيل فيها وبين ما أضافه إليها خصومها قصد تشويهها. وقد تأكد الوفد الذى أرسله السلطان برئاسة ابنه - على ما تحكيه وتتناقله بعض المصادر التاريخية - أن زعماء الدعوة وأتباعهم على غاية الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام، من صلاة وطهارة وصيام، ونهي عن المنكر الحرام، وتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات والآثام التي كانت تفعل بها جهارا من غير نكير (13).

وفيما يلي نص الرد (14).

حق الهناء لكم جيران ذى سلم

وبارق واللوى والبان والعلم

---

11) من هؤلاء : أبو القاسم الزياني، انظر ما كتبه في الترجمانة الكبرى، ص 388 - 389 و396.

ومنهم : صاحب «ما أبرزته الأقدار في نصرة ذوى المناقب والأسرار»، وهي رسالة رد فيها صاحبها على جواب حمدون على لسان سلطانه وانتقده بعنف. (مخط. الخزانة العامة بالرباط، رقم 1115 د).

12) منها رسالته في أبطال المواسم والبدع. انظرها في : الترجمانة الكبرى، ص 466 - 470.

13) الاستقصا : 121/8.

14) النوافح الغالية، لحمدون بن الحاج : ص 439 - 364.

قـــدّستم أنفســـا أهيـل كاظمـــة
وســـــاكني المنحنى والـــواد من اضم
هــل المقـــدس غير واد فـــاطمـــة
وهـل طـوى غير ذى طـوى من الحرم
أراك يـــا وادى الأراك مقتطعـــا
من جنـــة الخلـــد في وسم وفي نسم
وكيف لا ورسـول اللـــه تربتـــه
هنــاك مــزريــة بــالمســك والــزهم
لا طيب يعـدل تربـا ضم أعظمــه
طـــوبى لمنتشـــق منــــه وملتثم
عليــه أذكى صـلاة اللــه مــا نفحت
نســائم منـــه تهـــدى الــزّور للّقم
عليـــه أذكى صـلاة اللــه مــا برقت
بــوارق من سنـــاه الـــدّارىء الطّسم
عليــه أذكى صـلاة اللــه مــا وفــدت
حجّـــاج بيت لــــه جـــاءوه كالحمم
وعنـــه عـــادوا بـــأوجـــه مبيّضـــة
في رحمــة اللـــه مـــا تخــاف من نقم
لا شيء يمنـــــع من حـــــجّ ومعتمر
وزورة تكمـــل المـــأمــول من حرم
إذ عـاد درب الحجــاز اليـوم ســالكــه
أهنـــا وآمن من حمــامـــة الحرم

مـذ لاح فيـه «سعـود» مـاحيـا بـدعـا
قـد أحـدثتهـا ملـوك العرب والعجم
«سعـود» بعـد سـلام الله شـاعـك من
غرب يسير لشرق ضـــائـــع النّسم

هــذا كتــاب اليــك من محبّ أتى
إذ مـا تـأتّى لـه الاتيـان بـالقـدم
مخــاطبــا لــك بــاللســان من قلم
إذ مــا تسنّى لــه تخــاطب بفم
وانّــه من «سليمــان» وانّــه بســ
ــم اللــه، لا زلت بسم اللــه أىّ سم
اعلم وقيت الردى بقيت بــدر هــدى
لبــوســا آىّ ردا من السّنــا العمم
إن قمت فينــا بــأمر لم يقم أحــد
بــه فجــوزيت مــا يجــزاه ذو نعم

بقطـع أهـل الحراب بـالحجـاز بـأن
يقتلــوا أو يصلّبــوا بــلا رحم
أو أن تقطّــع أيــديهم وأرجلهم
من الخـلاف أو ان ينفلـوا من ارضهم
حتّى جرى المـاء في عـود الحجـاز لأن
طلعت سعــد سعــود غير ملتثم
وانبثّ نــور الأمــان أىّ متّسم
وافترّ زهر الأمــاني أىّ مبتسم

لا زال متّسما بـــــــــــالأمن مبتسما

بـــاليمن مرتسما بـــالحسن لم يـــذم

وقـــد حيينـــا بمـــا أمتّ من بـــدع

كانت قـــذى بعيـــون الـــدّين لم يرم

وكانت السّنّـــة البيضـــاء مظلمـــة

بهـــا وكان بهـــا الاســـلام لم يقم

فـــأصبحت وهي شمس غير آفلـــة

نـــورا وقـــد قـــام اسـلام على قـــدم

وتمّ حـــجّ لـــــذى حـــجّ ومعتمر

لـــــذى اعتمار بـــلا ضعف ولا سقم

وقـــد بنيت على ســدّ الـــذّرائـــع مـــا

تقـــول وهـــو بنـــاء «الأصبحيّ» حمي

وقـــال أهـــل الأصـــول والفروع بـــه

على اختـــلاف والاختـــلاف من رحم

كمنـــع أن يلثمـــوا مـــا الشّرع عظّمـــه

ممّـــا ســـوى حجر بـــالبيت ملتثم

وزورة الأنبيـــــاء والبنـــــاء على

قبر ونحـــــوه من فعـــــل ومن كلم

لكنّهم مـــا تغـــالـــوا فيـــه مـــا حكمـــوا

بـــــالكفر والقتـــل لا وهم ذوو الحكم

دروا بـــأن ليـــالي الجهـــل غـــاشيـــة

نهـــار حـــقّ وقـــد أعمت عن اللّقم

لا سيّما من ذوى بـــدو وأجـــــدر أن

لا يعلمــوا وهم الأحــق بـــــاللّــوم

ومــــــا رأوا كفرهم أصــــلا وقتلهم

لا بـــابن ذى يــزن ولا أبي هرم (15)

إلاّ الــذى كان خــارجــا بيــدعتــه

من الضّرورى علمــــــا غير منبهم

فــذاك كفره قطــع لا خــلاف بـــه

ومــا ســوى ذلــك الخــلاف فيــه نمي

وكلّ مـا ليس فيـه القطـع مسلـك من

يريــد قطعــه رفــق جــاذب الخصم

فــلا تــزل بــدعــة بيـــدعــة فترى

فيــه مثيــل الــذى اتّقى دمــا بــدم

مـا كان تكفير ذى ذنب بعهــد صحـــ

ـــــابــــــة وهم نجم وأيّما نجم

«أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتـديتم اهتـديتم» (16)، وقرىء «وبـالنُّجُم هم يهتدون» (17). أخرج البيهقي بسند صحيح أنّ جـابر بن عبـد اللـه سئل : «هل كنتم تسمّون شيئا من الـذّنوب كفرا أو شركا أو نفـاقـا ؟ قـال : معـاذ الله، ولكنّا كنّا نقول : مؤمنون مذنبون».

إذ لم يكن مقتــــــــــداهم يكفّره

وفي الصّحيــــــــح وان زنى على رغم

---

15) كناية عن السيف والسنان.

16) حديث شريف، انظره في : كشف الخفاء، للعجلوني، 132/1.

17) النحل، 16.

أخرج البخارى ومسلم والترمذى عن أبي ذرّ رضي الله عنـه، أنّ رسول الله ﷺ قـال : «أتـاني جبريل فبشرني أنّـه من مـات من أمتـك لا يشرك بـاللّـه شيئـا دخـل الجنّـة. قلت : وان زنى وان سرق، قـال : وان زنى وان سرق، قلت : وان زنى وان سرق، قـــال : وان زنى وان سرق، قلت : وان زنى وان سرق، قال وان زنى وان سرق، ثمّ قال في الرابعة : على رغم أنف أبي ذرّ».

إذ لم يكن مقتـــداه الـــذّكر يكفره
وذاك في آيـــــة النّســـــــاء كالعلم

«ان الله لا يغفر أن يشرك به...» 18)، إذ هي المحكمة فيما تشابـه من آيات الوعيد محكمة، فتقيـد مطلقهـا وتبيّن مستحقّهـا، ومن عـدل عنهـا مـا عدل، وفيه استحقّ أن يسبق السيف العدل.

وفيـــــه أىّ وعيــــد للمكفّر مســـــ
ـــلمـــا يخـــاف بـــه من ســوء مختتم

فيه أى في الذّكر، قال تعالى : ﴿**يـا أيهـا الـذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله...**﴾ (19)، انظر سبب النزول، وما قاله الرسول ممّا تكاد به الجبـال تـزول، أخرى أخرج أحمـد والبخـارى ومسلم والترمـذى، واللفـظ للأخيرين، عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال : «أيمـا امرىء قـال لأخيـه كافر، فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال، والا رجعت عليه». وفي روايـة أبي

18) النساء، 48.

19) النساء، 94.

داود عنـه «أيما رجل مسلم كفّر رجـلا مسلمـا فـإن كان كافرا وإلا كان هـو الكافر». وهذا مبالغة زاجرة عن ذلـك الضّير، أو وعيـد أن لا يختم لـه بخير. والآثار في هذا شهيرة كاشتهار الشّمس في الظّهيرة.

مـــا كان أصحـــاب أحمـــد وشيعتـــه
وهم هم سرج السّـــــــــارين في الظلّم
يرون شيئـا من الأعمـال تركـه كفـــ
ـــر غير ذى الخمس وهي خير معتصم

في أحمد تورية سرية. أخرج الترمذى عن شقيق بن عبد الله التابعي ـ المتفق على جلالتـه ـ قـال : «كان أصحـاب محمـد ﷺ لا يرون شيئـا من الأعمـال تركـه كفر غير الصلاة». وكان الامـام أحمـد يرى أنّ تـارك الصلاة يقتـل كفرا، وهـو قـول ابن حبيب من مـذهبنـا، وهـو قـول أكثر المحـدثين وقليل من الفقهاء، وهو قوي من جهة الدّليل. قال في «التوضيح» بعـد ذكر أحاديث فيهـا لـذلـك ترجيح «وعلى المشهور فتحمل هـذه الأحـاديث ومـا أشبهها على التارك جحـدا». وإليـه أشـار خليل في «المختصر» بقولـه : «وقتل بالسيف حدّا... إلى قوله : والجاحد كافر».

مـــا قـــال أحمـــد والأئمّـــة الغرر الـــ
ـــمستمسكـــون بحبـــــل غير منفصم
الاّ الـــذى قـــالـــه الرســول وهـــو بمـــا
يقـــول أعلم لا يحـــلّ سفـــــك دم
الاّ بـــاحـــدى ثـــلاث فصّلت وبـــدت
لـــديـــك كالشّمس لا كالنّـــار في علم

وقال ذو الذكر ان تابوا وقال مبيـ
ـنه أمرت وما للشّمس من كتم

قال الله جل علاه : ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم**﴾ (20).

وقال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل النّاس..» الخ (21)، فهذا حديث بلغ مبلغ التواتر فكان كالشّمس.

فان تقل لم تحقّق توبة لسوى
من لم يجد في فعال منه أو كلم

نقل بيان الرّسول لا بيان يرى
وراءه فيه كشف كلّ ملتثم

وقال انّي أمرت أن أقاتلهم
حتّى يقولوا وقد قالوا بملء فم

بل ما رأوا قتل أهل الاعتزال وأشـ
ـركوا بقولهم بخلق فعلهم

فكيف أن يأمروا بقتل ذى رشد
مستمسك بحبال الله معتصم

أو أن يقتّل من نادى الرّسول وقا
ل آتني يا رسول الله ذا الكرم

---

20) التوبة، 5.

21) تمام الحديث النبوى الشريف : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلاه إلا الله، فمن قال لا إلاه إلا الله عصم منّي ماله ونفسه الاّ بحقّه، وحسابه على الله». (انظره في : كشف الخفاء : 194/1).

وعــذره في لـو انّهم رضـوا (22) ورسـو
ل اللـــــه في قبره حيّ بـــــلا وهم

حيّ حيـــاة علت على حيـــاة ذوى
شهـــــادة وســـــواهم من ذوى الشّمم

أخرج (أحمد) والبيهقي عن أبي هريرة رفعه : «ما منكم من أحد يسلّم عليّ الاّ ردّ الله اليّ روحي حتّى أردّ عليه السّلام». قـال الجلال (23) : «أى الاّ قـد ردّ اللـه عليّ روحي قبـل ذلـك، لما في روايـة البيهقي في «حيـاة الأنبياء» : الاّ وقـد ردّ اللـه عليّ روحي. والردّ يستلزم الاستمرار، إذ لا يخلو الـزّمـان من مصـلّ عليـه في سـائر الأقطـار، وأنّـه ﷺ في البرزخ مشغـول بأحوال الملكوت مستغرق في مشاهده كما كان في الدنيـا حـالـة الوحي، فعبّر عن افاقته من تلك المشاهدة والاستغراق بردّ الرّوح».

لمـــا أتى من أحـــاديث مصحّحـــة
في ردّه للسّـلام عنـــد كلّ سمي (24)

وقـــــد أتى عن كثير أنّهم سمعـــوا
ردّ السّـــــــــــلام ولم يمن ولم يهم

قـال الجلال السّيوطي في «تنوير الحلـك» : «في معجم الشّيـخ برهـان الدّين البقاعي قـال : حـدّثني الامـام أبو الفضل بن أبي الفضل النّويرى أنّ السّيّد نور الـدّين الأيجي والـد الشّريف عفيف الـدّين لمّا ورد إلى الرّوضة

22) فيـه اشـارة إلى قولـه تعـالى : «ولو أنهم رضوا مـا آتـاهم الله ورسولـه وقـالـوا حسبنـا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انّا إلى الله راغبون». (التوبة، 59).

23) يريد الحافظ جلال الدين عبد الرحمان السيوطي.

24) يريد سميع، وفيه اكتفاء بديعي.

الشّريفة وقال : السّلام عليك أيّها النّبيء ورحمة الله وبركاتـه، سمع من كان بحضرته قـائلا يقول من القبر = وعليـك السّلام يـا ولـدى». وقـال أبو نصر عبد الواحـد بن عبـد الملـك محمّـد بن أبي سعـد الصّوفي الكرخي : «حججت وزرت النّبيّ ﷺ، فبينمـا أنـا جـالس عنـد الحجرة اذ دخل الشّيخ أبـو بكر الدّياربكرىّ، ووقف بازاء وجه النّبي ﷺ وقـال : السّلام عليـك يـا رسول الله. فسمعت صوتـا من داخل الحجرة يقول : وعليـك السّلام يـا أبـا بكر. وسمعـه من حضر». وفي نحـو سماع ردّ السّـلام سماع الكـلام، قـال الجـلال في تنوير الحلك : وفي كتاب «مصباح الظّلام في المستغيثين بخير الأنام» للامـام شمس الدّين محمد بن موسى بن النّعمان قـال : سمعت يوسف بن عليّ الزّنـاتي يحكي عن امرأة هاشميّة كانت مجاورة بـالمدينـة، وكان بعض الخدّام يؤذيهـا، قالت : فاستغثت بالنّبيّ ﷺ، فسمعت قائلا من الرّوضة يقول : أما لك في رسول الله أسوة حسنة ؟ فاصبرى كما صبرت أو نحو هـذا. قـالت فزال عنّي ما كنت فيه، ومات الخدّام الثّلاثـة الـذين كانوا يؤذونني». وأقوى من سماع ردّ السّلام ومن سماع الكلام مـا في «تنوير الحلـك» عن «بعض المجـاميع حجّ سيّـدي أحمـد الرّفـاعي فلمّـا وقف تجـاه الحجرة الشّريفـة أنشـد : في حـالـة البعــد (25) الــخ... فخرج اليــد الشّريفــة من القبر فقبّلهــا». انظر شرح «الحصن» عنـد قولـه في فضـل أمـاكن الاجـابـة وعنـد قبـور الأنبيـاء عليهم الصّلاة والسّلام.

---

25) تمام ما أنشده :

في حـالـة البعـد روحي كنت أرسلهـ ... تقبّــل الأرض عنّي وهي نـــــائبتي

وهــذه نـوبــة الأشبــاح قـد حضرت ... ـفـمدد يمينـك كي تحظى بهـا شفتي

ومن تردّد في تصــديــق ذلــك فهــ

ــــو عن حــديث سرى النّبيّ في صمم

إذ قــالت الأنبيــاء عنــد رؤيتــه

أهــلا وسهــلا ومرحبــا ولم تجم

وعن حــــديث «تحــاجّ آدم وكليــ

ــم اللــه مــوسى» وغير ذاك من كلم

وليس يخفى عليــك مــا رأى العتبـ

ــيّ عنـــــد قبر ولم يكن من الحلم

وجــاءنــا قــل بجــاه عين مرحمــة

وردّ عين الـــــذى دعــــا وكان عم

بــل آيــة الفتــح بيّنت وســاطتــه

في كل مــــا كان من فتــح ومن نعم

والمــدّ بــالرّوح لا بــالجسم مرتبــط

والرّوح من أمر ربّي فهي في لثم

ولو ســألت الــذي نــادى الرّسول وقــــ

ـــــال آتني لأرى المجـــاز غير كمي

وأنتم العرب العرب الـــــذين رأوا

مجـــازا اعـــذب من حقيقـــة بفم

ولا مجـــاز ترونـــه مجـــازا إلى

دم ومـــــــال وعرض أى محترم

وجــاء من زارني بعــد الــوفــاة كأن

قــد زارني في الحيــاة ســائــلا كرمي

أخرج الطّبراني في «الكبير» والبيهقي في «السّنن» عن ابن عمر رفعه : «من حجّ فزارني بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي». والآثار الأثيرة في هذا كثيرة.

وانّ ما جاز للنّبيّ مثله للـ
ـولّي عند الذّكيّ الحاذق الفهم.

انظر شرح «الحصن» عند قوله : «وجرّبت استجابة الدّعاء عند قبور الصّالحين بشروط معروفة».

أحقّ بالدّفع رأى المنع انّ شهو
د النّفع ينفي مقاله فلم يقم

ذكر ابن العربي المالكي أنّه لا يزار قبر لينتفع به غير قبر نبينا ﷺ، وجعلها من العبادات وأنفع أمرهم، واعتمده من لا يحصى عددا، وما عدم منهم مددا، وما علينا في الدّفع ممّن عدم النّفع و«انّما الأعمال بالنّية»، وفي القصيدة السّينية (26) :

«ولا تسمعن من قاصر النّفع فيهم
على من يكن حيّا فذاك من الطّلس
فانّ شهود النّفع ينفي مقاله
ولا سيا والقوم نصّوا على العكس»

بل في الحقيقة من أمّ الوليّ فلم
يؤمّ الاّ النّبيّ اليّمّ في أمم

26) هي لحسن بن أبي قاسم ابن باديس، المتوفى سنة 787 هـ، قالها في مدح الشيخ عبد القادر الجيلاني وغيره من بعض الصالحين من رجال بغداد.

وكلّهم من رســـول اللــــــه ملتمس
غرفـا من البحر أو رشفـا من الـــدّيم
ونهيـــه عن زيــــارة القبــور لمـــا
كانـوا عليــه ومــا بــالعهـد من قــدم
وقـــال بعـــد ألا زوروا لتــــذكركم
أخرى وانّ مـــآل الحيّ للعـــــدم
وانّ من جملـــة التي تـــذكّرنـــا
مــا كان أصحـــابها عليـــه من خــدم
فنتّقي مـــا اتّقـــوا من جــــالب النّقم
ونقتفي مـــا اقتفـــوا من جــاذب النّعم
وإنّما لعن الرســـول متّخـــــذى
قبــور قــــادتهم كعـــابـــــد الصّنم
لا بـــــانيـــــا لقبـــورهم معظّمهم
وهم وحرمــــة بيت اللـــــه من حرم
كانت قلـــوبهم معمـــورة بـــــالا
ه «لم يسعني» (27) شهيـد صــارم الصّرم
وليس مقصــود بـــانيهـــا مفـــاخرة
بهــــا فيحرم بـــــل تعظيم محترم

27) الاشارة فيه إلى ما ينسب للنبي عليه السلام حكاية عن الله تعالى : «قال الله : لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبـدى المؤمن اللين الوادع». (انظره في : كشف الخفـاء : 195/2).

وطلس آثـــــارهم كما فعلت لمـــــا
أدّى اجتهـــادك لا حرمت من رحم
طمس لأخبـــارهم في العـــالمين فـلا
عين ولا أثر مبـــق لـــــذكرهم
مــا النّـــاس أمثـــالكم كلّ لـــه خبر
بهم يفرّق بين البهم والبهم
بـل غـــالب منهم لـولا مشـاهــدة
آثــــار قبرهم تهـــديـــه كالعلم
لم يجر ذكرهم فيـــه ولا استــويـــا
ذو البرّ والصّـــدق والتّقـوى وذو الجرم
ولم ترد بلـــدا أو بـــدوا اجتمعــوا
على وليّ عظيم القـــــــدر منفخم
الاّ وأكبرهم يروى وأصغرهم
مـــا كان في ذلـــك الــوليّ من سيم
وذاك أدعى لأن يعمّ زائره
نـور ويرأب مــا أثــأت يــد الظّلم
أتبـــاع أحمـــد (28) مـــا لكم نفيتم عن
أتبــاع أحمــد (29) مــا ألقوه من سلم
لا والــذى خلـق الإنسـان من علـق
وعلّم الكلّ بعـــد الجهــل بـــالقلم

---

28) يريد أحمد بن حنبل.

29) يريد النبي محمد عليه السلام.

لأنتم عنـــد أهـل العقـل أعقـل من
أن تصرمـــوا حبـــل ودّ غير منصرم
أنتم من الرّاسخين في العلـــــوم وهم
أهـــل الحـــــديث المبين كلّ مكتتم
أمـــا امـــامكم الإمـــام أحمـــد في
حـديث أحمـــد ذو سبـق وذو قـــدم
هـو الامـــــام المقـــدّم المقـــوم في
روايـــــــة ودرايــــــــة ومفتهم
ومسنـد لـه في الحـديث مسنـدنـا
وكم روينـــاه مرويـــا لكلّ ظمي
وقـــد سمعتم آثـــار الرسـول وفي
آثـــاره كلّ غنيــــة لكلّ سمي (30)
فـــانّهـــا أسفرت عمّـــا تلثّم من
منزّل حكم وأيّمـــــــــــا حكـم
من لم تقـده سـلاسـل الحـديث إلى
جنّـات رشـده قـادتـه إلى جحم
وفيــــه أنّ التي نجت من الفرق السّـ
ـــواد الأعظم فـــانظروا ذوى العظم

أخرج الطّبراني عن أنس قال : «خرج علينا رسول اللـه ﷺ فقـال : انّ بني اسرائيل افترقوا على احدى وسبعين فرقـة، وستفترق هـذه الأمّـة على

---

30) يريد سميع، وفيه اكتفاء بديعي.

اثنتين وسبعين فرقة كلّها على الضّلالة الاّ السّواد الأعظم. قالوا : من السّواد الأعظم ؟ قال : من كان على ما أنا عليه أنا وأصحابي، من لم يمار في دين الله، ولم يكفّر أحدا من أهل التوحيد بذنب غفر له».

ولّما ذكر العارف المكّي هذا الحديث في مقدّمة شرحه على «العقيدة الحاجبية» قال ما معناه أنّ الدّليل على أنّ ما عليه أهل السّنّة والجماعة هو الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه هو ما هم عليه من حسن المتابعة الجارية على مقتضى العبودية، وما أكرمهم الله به من المعارف الالهامية والخوارق التي هي الوراثة المحمدية أو مستلزمة لها.

وفيه كم أثر أثير انبأكم
فانّها كاثرت ما كان من أمم
وفيه قد أيس الشّيطان ملجمكم
فتح وختم له بأيّما لجم

أخرج مسلم عن جابر أنّ رسول الله ﷺ قال : «انّ الشيطان قد أيس أن يعبده المصلّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم». التحريش، الاغراء بين الناس أو الكلاب. والمعنى أنّ ابليس قد أيس أن يرتدّ أهل جزيرة العرب بعد الاسلام إلى الكفر، وليس له سبيل إلى ردّهم إلى الكفر لأنّ الاسلام ثبت في قلوبهم، ولكن أبدا يوقع الفتنة والعداوة بينهم بالخصومة وقتل بعضهم بعضا، والعياذ بالله.

الفتح سالب الاشراك عن حرم
وساكنيه وذاك منتهى الحرم
والختم ناه عن القتال بينهم
طوعا لشيطان اداهم إلى ضرم

«سعــود» انّــا رجــونــا أن تكــون بمــا

طلعت فيــه سعيـــدا طـــاهر الشّيم

طلعت في منبــع الهـــدى ومنبتـــه

ومـــزهر الـــوحي والخيرات والرّحم

أجــارك اللــه أن تكــون فيــه ســوى

بـــــــــدر التّمام ولم تنقص ولم تصم

تتلــو بـــه شمســـه التي بهـــا طلعت

بـــالمـؤمنين رؤوف شـــامـل الرّخم

بهـــذه الحلّـــة الحسنى تجـلّ «سعـــ

ـــود» فيــه تعكسهم كالخيــل بـــاللجم

إذا رفقت لخلـــق اللـــــه كنت لهم

أبـــا شفيقـــا تقـــودهم بـــلا خطم

«سعـــود» انّي وربّي نــاصــح لــك في

رفـــق بني الأمّـــــة الغراء في الأمم

مهـد اليــك نصيحــة تروقــك والــدّ

ين النّصيحـــة انّني نصيــح امي (31)

أستغفر اللـــــه من قــول بــلا عمـــل

لقـــد نسبت بـــه نســلا لـــذى عقم

انّي أحــقّ بـــأن تكــون تبـــدأني

نصحا وانّي لعـذب النّصح منـك ظمي

31) يريد أمين، وفيه اكتفاء بديعي.

فـــــانّما نحن اخـــوة وكلمتنـــــــا
في الـــدّين واحـــدة لم نعـــد عن لقم
لم نعـد عن منهـج الامـــام أحمـد في
ردّ على راكب هــــــــــوى ومجترم
شمس بشيبـــان كادت أن تفـوق بـــه
ربيعـــة مضرا في الصّـــدق والخـــدم
وقـــد كفـــانـــا كرامـــة ومنقبـــة
لـــــه ومرقبـــــة عليــــــاء لم ترم
مــــا كان من محن في قلبهـــا منـح
إذ أخلصتـــه خلـوص التّبر بـــالضّرم

إذ كانت اربـــاب أهـواء تقـــدّم في
مجــالس الملـــك مــأمـون ومعتصم
وواثـــق سحروهم بـــالبيـــان ومـــا
قـــد زوّروا في كـلام بـــاهر الخصم
وأوقـــدوا نــــار حرب في قلـــوبهم
على ذوى السّنّــــة الأعلـــون في القيم

حتّى أتـــاهم محمـــدا لنـــــارهم
سيـــــل من اليّم أو سيـــــل من العرم
مــا جـاء عن عـالم أفـاض في حجـج
مبينـــــــــــة ابن أبي دؤاد في طغم
إذ قـال هـذا الـذى تـدعـو لـه وترى
قتـــل الـــذي لم يقـــل بــــه ولم يرم

دعا لـه من مضى من قبـل أو سكتـوا

من بعـــد علمهم أو بعـــد جهلهم

فـإن تقـل قـد دعـوا فـأنت أكـذب في

مــا تــدّعي من سجــاح غير محتشم

وان تقـــل علمـــوا لكنّهم سكتـــوا

ألم يسعـــــك سكـــوت ملجم لفم

وان تقـل جهلـوا فــأنت يــا لكــع

علمت مــــا جهلــوا، أأنت من نعم ؟

وإذ بــدا متــوكّـل بــدا خـــذمـــا

فرى فعـــــدّ خليفـــــة وذا شمم

لكـونـه قـد أمـات بـدعـة وأعــا

د سنّـــــة فعــــلا ذرى ذوى الحكم

وكان والـــدنـــا من قبـل معتقـــدا

فيـــه اعتقـــادا جميـلا غير منحسم

الحنبلي اعتقـــادا في رســـائلـــه

في الملـــك إن لم يـزنـــه ذاك لم يصم

وكّنـــا مـــا لنـــا الا اتبـــاعـــه في

نهـج قــويم يقــودنـــــا إلى نعم

وغــايــة الأمر ابقــاء الصّفــات على

ظــواهر بعـــد تنزيـــه من الــوصم

هــذا اعتقــاده وهــو عقـد ســالفنــا

وســـالف منكم كانــوا على قـــدم

حتّى أتى خلف لم يــدر قـــال بمـــا
تنزّه الرّبّ عنـــــه جـــلّ ذو الكرم

مـــا كان أحمـــد لا واللــــه معتقـــدا
جسما، تعـــالى الاه العرش ذو العظم

ذاك اعتقــــاد اليهـود فيــــه هم حمر
بل هم لعمرك في كلّ الأمـور حمي (32)

الكلّ أكفر من حمــــار ابلـــــد من
ثـــور وشرّ الــــدّوابّ الصّمّ والبكم

«ليس كمثلــه شيء» ســالب شبهـــا
و«هـــو السّميــع البصير» مثبت السّيم

فـلا تشبّــــه لمـــا أهـــدت بمفتتـح
ولا تعطّـــل لمـــا أســـدت بمختتم

هــذا وفي «طبقـــات التـــاج» واقعـــة
كانت مـع «العــزّ» وهي عنـك لم تغم

وكان فيهـــا ظهـور «العــزّ منجليـــا
ظهـــور نــــار القرى ليـــلا على علم

هــذا وشــاعت أمـور لست أذكرهـــا
اليــــك الاّ بـــوجــــه غير محتشم

منهــــا دعـــــاؤكم من دان دينكم
لسّب والـــــده والقطـــــع للرّحم

---

32) يريد حمير، وفيه اكتفاء بديعي.

بـــــــــأن يقرّ عليهم بشرك أتى الـــ

ــــــــــوادى فطمّ على القرىّ لم يشم

هــل كان ذلــك سنّــة الرّســول وقــد

دعـــــا ذوى الكفر والعبّـــاد للصّنم

أو سنّـــة الخلفـــاء الرّاشـــدين فيـــا

للـــه ممـــا يريـــه الـــدّهر من قصم

يـــا أيهـــا النّـــاس لا تغلـــوا بـــدينكم

ولا تقـــولـــوا بقـــول غير منبرم

منهـــا وان قـــالـه قـــال فـــانّ عليـــ

ـــه لعنـــة اللـــه من قرن إلى قـــدم

وكلّ مستمــــع لـــــه لينشـــــدكم

كم ذا تمـــوّه بـــــالشّعبين والعلم

أراك تســـأل عن نجـــد وأنت بهـــا

وعن تهـــامـــة هـــذا فعـل متّهم

دعـــاؤكم أمّهـــات المـــؤمنين لـــوا

لــــــداتكم لا وحـــــقّ كلّ محترم

مـــا قـــالـه غير قـــال في جنـــابكم

ومـــا يضرّ الهـلال حنـــدس الرّكم

إذ مثلكم ليس ملمـــــــوزا بمجترم

كمثـــل ذلـــك ان لم يصمـــه يصم

وان يكن فكـــــــلام من أكارعكم

أذنـــابكم مـــا درت مغبّـــة الكلم

«سعـود» لا ملـــك الآ، وكان لـــه

بطـانتـــان، حبيت الصّـون بـــالعصم

«سعـــــود» لا قمر الآ وكان لـــــه

من خــارج هـــالـــة دارت من الغسم

وكان أيضـــا لــــه من داخــل كلف

يريـــــــه ذا سحم سلمت من سحم

ومـــا سراج بنـــاج من سنـــاج ارى

الاّ السّراج المنير صــــــــاحب العلم

عليـــه أذكى صـلاة اللـــه دائمـــة

مـــا دام نـــور لـــه يهـــدى من الظّلم

«سعـود» هــذا الــذى سمعت قلت بــه

وفقـــا لمـــا نقلـــوا عن ســـاكن الحرم

فـــان يكن ذاك كاذبـــا وذلـــك مـــا

نظنّ فـــاسمـح لمـــا طغى بـــه قلمي

وانّما هــزّ أقــلامي لنصحـــك مـــا

بلّغتـــه عنـــك من أحـــاسن السّيم

وأنّـــك الرّجـل المحمـــود سيرتـــه

في القــول والفعـل والمحســـود في الشّيم

بــل لم أزل ســـائـلا للـواردين على

مغنـــاك حتّى استبـــان كلّ منكتم

من أنّــك الـزّاهر الـزّاهي بـزهـده في

دنيـا ومـا هــذه الـدّنيـا سـوى حلم

وأنّــــك البـــاهر البـــاهي بعفّتــــه

مقفّيـــا مـــــا أتى في النّـــون والقلم

وان بــدت منــك شــدّة بــأوّل مـــا

بـــدوت هـــا أنت بـــاد وافي الرّحم

فكنت كالفلــق البــادي بــأول مـــا

بـــدا بــه خيـــط اســود مرى طسم

الحمــــد للــــه ربّ العــــالمين على

مـا عمّ من ضـوئـك الهـادى لكلّ عمي

وإذ تبيّن عنــدى الحــقّ دامــغ مـــا

قــد كان من بــاطـل والحــقّ غير كمي

بعثت حجّــاج بيت اللــه قــائـدهـــا

شــوق يقــود بــلا ســوق ولا خطم

وفيهم فلـــــذة غرّاء من كبـــــدى

أقمتـــــه خلفـــــا في نيـــل مغتنم

في نيــل رؤيــة ذات الخــال حــاسرة

ولثم أسعــــــدهـــــــا وضمّ ملتزم

مستكثرا من ســؤال رحمـــــة وسعت

وأن يصلّي بـــالمقـــام ذى القـــدم

والشّرب من زمــزم عــذبــا لشــاربــه

معـــط لــه كلّ مـــا قــد أمّ من أمم

وســــاعيــــا بصفـــــا ومروة عظما

قــــــدرا فطـــوبى لمن سعى ولم يسم

وممسيـــــا بمنى منى لـــواصلهـــــا
مصبّحـــا عرفـــات مشهـــد الرّحم
وواقفـــا بمـــواقف الرّســـول بهـــا
يفيض خير عليـــه غير منجــــذم
يفيض عنهـــا لمشعر يبيت بـــــه
وفي الـــوقـــوف صبـــاحـــا منيـــة الحرم
بـــــه يكمّـــل تكفير الــــذّنـــوب كما
رواه عن أحمـــــد عبّـــــاس السّلمى
وعـــــائـــــدا لمنى لرمي جمرتهـــــا
صبـــاح عيـــد مقرّبـــا بهـــا لـــدم
وحــــالقـــا رأســـه المشير أنّـــه من
أسر الـــذّنـــوب عتيـــق اللـــه لم يضم
وزائر البيت عــــاد للطّــواف بـــــه
معظّما حرمـــــات اللـــــه في الحرم
وعـــائـــدا لمنى لـــذكر بـــارئـــه
لا سيما عنـــــد رميـــــه لكلّ رمي
وطـــــائفـــا لـــوداع البيت منشمرا
لـــزورة المصطفى المخصـــوص بـــالعظم
ورؤيـــة الرّوضـــة التي بهـــا شرفت
ومن يحـــلّ بهـــا في جنّـــة النّعم
وغير ذلـــــك من آثـــــاره ولكم
«سعـــود» سعـــد بهـــا في المجـــد لم يرم

عليـــك أن تشكر الـــذى أحلّكهـــا
بمقعـد الصّـدق عنـد الأبطحي الحرم
وأن ترى مستجـــار من يجـــاوره
تعمّ بـــالعفـو والاغضـــاء عن جرم
لا سيا من أتـــاكم منضيـــا بـــدنـــا
لمطلـــع الشّمس وهـــو مطلـــع الكرم
وهــــاكهــــا بردة منّــــا مطرّزة
بمــا تــزيـــد بـــه في العـزّ والشّمم
لا زلت منتصرا بـــاللــــه محي مـــا
أميت من سنّـــــــة في عرب او عجم
ودمت طــالـع سعــد في الرّعيّـــة ذا
بشر ونشر بمبتـــــــــــدا ومختتم»

فاس **أحمد العراقي**

مصادرالبحث ومراجعه

- القرآن الكريم.
- أثر الدعوة الوهابية في الاصلاح الديني والعمراني في جزيرة العرب وغيرها، محمد حامد الفقى.
مصر، مطبعة النهضة، 1354 هـ.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصرى.
الدار البيضاء، دار الكتاب، 54 ـ 1956 م.
- الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، أبو القاسم الزياني.
تحقيق : عبد الكريم الفلالي.
المحمدية، نشر وزارة الأنباء، 1967 م.
- الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، محمد أكنسوس.
ط. حجرية، فاس 1336 هـ.
- حول الرسالة المنسوبة للشيخ محمد بن عبد الوهاب، د. عبد الله الصالح العثيمين.
مقال بمجلة «الدارة» (السعودية) ع 1، س 9، 1983/1403، (221 ـ 227).
- رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى كافة أهل المغرب.
نشرها : أبو تراب.
مجلة «الدارة» (السعودية) ع 1، س 7، 1981/1401، (6 ـ 16).
- كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، اسماعيل العجلوني.
ط 3، بيروت، دار احياء التراث العربي، 1351 هـ.
- ما أبرزته الأقدار في نصرة أهل الله ذوى المناقب والأسرار، علي بن طاهر الوترى الحسني. مخط. الخزانة العامة بالرباط رقم 1115 د.
- النوافح الغالية في الأمداح السليمانية، حمدون ابن الحاج السلمي.
دراسة وتحقيق : أحمد العراقي.
رسالة دبلوم الدراسات العليا قدمت لكلية الآداب بفاس سنة 1982.
(مضروب على الآلة الكاتبة).

ع.أ

ابن عُصفورٍ الإشبيلي
وكتابه (ضرائر الشعر)

علي لغزيوي

لم يكتب لابن عصفور الإشبيلي ومؤلفاته الهامة الظهور والانتشار إلا في وقت متأخر، يعود إلى بداية السبعينيات، ذلك بأن ما سلم من آثاره من الضياع ظل مخطوطا في الخزانات المختلفة زمنا طويلا، بالرغم من أهمية تلك الآثار التي جعلت بعضها من أهم المصادر التي اعتمد عليها كبار العلماء بعد ابن عصفور، ويكفي أن يكون كتابه (ضرائر الشعر) - موضوع هذا العرض - مصدرا أساسيا من مصادر العلامة عبد القادر البغدادي في كتابه القيم (خزانة الأدب)، كما أن كتبه النحوية والصرفية تعتبر ذات قيمة كبرى في بابها، ولا سيما أنها تمثل الدراسات التي غلبت على الرجل حسب إشارات مصادر ترجمته، إذ كان حامل لواء العربية في زمانه بالأندلس، وكان النحو بضاعته الوحيدة كما يقول بعض مترجميه، وبذلك حقق ما نصطلح عليه اليوم (التخصص العلمي)، وغدا حجة فيه، وذلك لا يتنافى مع ما تذكره له المصادر من مؤلفات أخرى وشروح مثل شرح ديوان المتنبي، وشرح الأشعار

الستة، وشرح ديوان الحماسة، وسرقات الشعراء، وتعتبر جميعها اليوم في حكم الضائعة.

وإذا كان ابن عصفور الإشبيلي الذي عاش في القرن السابع الهجري قد حقق نوعا من التخصص من خلال كتبه العديدة وشروحه المتنوعة في النحو والصرف، فإنه بمؤلفاته وشروحه الأدبية الأخرى، وبكتابه (ضرائر الشعر)، مع علاقته الوطيدة باللغة والنحو، قد أطل على عالم أرحب وميدان أوسع، هو مجال الشعر ـ فن العرب الأول ـ وما يتصل به من مباحث علمية وجمالية، فضلا عن أنه والقرآن الكريم يعتبران المصدر الأساسي للشاهد اللغوي والنحوي لدى العرب.

ـ حركة التأليف في الضرائر الشعرية :

والحقيقة أن ابن عصفور لم يكن أول من ألف في الضرائر الشعرية، وإن كان نموذجا متفردا لجهود الأندلسيين في هذا المجال، ذلك أن حركة التأليف في موضوع الضرائر تعود إلى زمن أبعد، ويمكن أن نميز نوعين من الدراسات التي انصبت على هذا الموضوع قديما :

أولها : تلك الاشارات العامة التي تخللت مؤلفات أخرى، ولا سيما المؤلفات اللغوية والنحوية، ككتاب سيبويه الذي ضم إشارات عديدة للضرورة الشعرية، وإن لم يستعمل هذا المصطلح، وذلك في باب من كتابه سماه : (باب ما يحتمل الشعر). وكذلك ما نجده في بعض المصنفات النقدية مثل : كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، والمثل السائر لابن الأثير،

ومنهاج البلغاء لحازم القرطاجني، وعروس الأفراح لبهاء الدين السبكي وغيرها.

وفي هذه المصنفات نجد استعمالا مكتفا لمصطلح الضرورة الشعرية، أو الرخصة في الشعر، وهو مصطلح ثان مرادف للأول، استمده اللغويون والنحاة من علم أصول الفقه، كما استعمل بعضهم مصطلح (الإساغة)، ونجده عند حازم القرطاجني إلى جانب مصطلح الضرورة، ومصطلح الإساغة يعكس موقف حازم من الضرورة، لأن ما يلجأ إليه الشاعر لا تستوحش منه النفس كله، بل يستسيغ منه الذوق ما تقبله الأسماع والعرف والبناء الشعري.

وثانيها : تلك المؤلفات المختصة التي أفردها أصحابها لموضوع الضرائر، وفي مقدمتها كتاب : ضرائر الشعر، أو ما يجوز للشاعر في الضرورة لأبي عبد الله محمد بن جعفر التيمي المشهور بالقزاز القيرواني المتوفى سنة : 412 هـ. وهو من أساتذة ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة.

ولكن القزاز القيرواني قد سبق بدوره إلى التأليف في الضرائر الشعرية، ولعل أول من تناول هذا الموضوع في بحث مستقل هو المبرد المتوفي سنة : 286 هـ، إذ يذكر له ابن النديم كتابا سماه (ضرورة الشعر)، كما تتبع أبو سعيد السيرافي المتوفى سنة : 386 هـ ضرورات الشعر في شرح كتاب سيبويه، وينسب لابن جني المتوفى سنة : 392 هـ مجموع صغير بعنوان (ضرورة الشاعر). ولابن فارس اللغوي النحوي المتوفى سنة :395 هـ

رسالة بعنوان : (ذم الخطإ في الشعر) (1)، وهي مطبوعة مع رسالة الكشف عن مساوىء شعر المتنبي للوزير الصاحب بن عباد، وطبعت مستقلة بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب سنة 1980 بمصر.

أما الذين ألفوا في الموضوع بعد القزاز القيرواني فأبرزهم صاحبنا ابن عصفور الإشبيلي في كتابه ضرائر الشعر.

ويضاف إلى جهود القدماء الذين استقصوا وقننوا الضرائر الشعرية فغدت مصنفاتهم مصادر أساسية في موضوعها، جهود الدارسين المحدثين، ونذكر من تلك الجهود بصفة خاصة : كتاب ضرائر الشعر للألوسي، وهو مطبوع، وكتاب موارد البصائر لفرائد الضرائر للشيخ محمد سليم بن حسين المتوفى سنة 1138 هـ. ولأحمد تيمور مشاركة في الموضوع بكتابه (أوهام شعراء العرب في المعاني) (2).

أما المعاصرون فنذكر على سبيل المثال ما خصوا به الموضوع من دراسات، ومنها :

- نظرية الضرورة الشعرية للدكتور وهبه الزحيلي / دمشق : 1969.
- الضرورة الشعرية : دراسة أسلوبية للسيد ابراهيم محمد.
دار الأندلس - بيروت. الطبعة الأولى 1979.

---

1) أنظر (ضرائر الشعر) للقزاز القيرواني ص : 8 تحقيق د. محمد زغلول سلام ود. محمد مصطفى هدارة.

2) المصدر السابق ص : 8 - 9.

ـ في الضرورات الشعرية للدكتور خليل بنيان الحسون.
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت.
الطبعة الأولى 1403 هـ/1983 م.

ومن خلال استعراض هذه الجهود، يمكن القول إن ابن عصفور يمثل حلقة وسطى بين القدماء والمحدثين، فقد استوعب واستقصى ما جاء عند سابقيه، وغدا مصدرا للاحقين، وإن كان كتابه لم يظهر مطبوعا إلا أخيرا، بعد أن كان إلى وقت قريب يعتبر في حكم المفقود.

ـ من هو ابن عصفور ؟

تتفق مصادر ترجمته (3) على أنه أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد ابن علي الحضرمي الإشبيلي، عاش في القرن السابع الهجري وان اختلف في سنة ولادته ما بين سنة : 577 هـ. وسنة : 597 هـ. أما وفاته فكانت على الأرجح سنة 669 هـ (4). تتلمذ على علماء عصره في علم العربية، وفي مقدمتهم أبو الحسن الدّبّاج، وأبو علي الشلوبين، ولازم الأخير عشر سنين إلى أن ختم عليه كتاب سيبويه، ووصف ابن عصفور بأنه كان من أكثر الناس صبرا على المطالعة، جال في الأندلس وتصدر للتدريس في كل من إشبيلية، وشريش، ومالقة، ولورقة، ومرسية. أما مادة التدريس فكانت النحو في الغالب.

3) أهم مصادر ترجمته : بغية الوعاة للسيوطي ـ شذرات الذهب للعماد الحنبلي ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ـ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان. الاعلام لخير الدين الزركلي... وانظر مقدمة كتاب المقرب لابن عصفور، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري ـ بغداد : 1971.

4) انظر مقدمة تحقيق كتاب المقرب، ومقدمة كتاب ضرائر الشعر لابن عصفور.

ـ مصنفاته :

تذكر له مصادر ترجمته عددا من المصنفات في اللغة والنحو، بالاضافة إلى بعض الشروح والمؤلفات الأدبية، ولكن بعض تلك المصادر يصر على أنه لم يكن عنده مايؤخذ عنه غير النحو، ولا تأهل لغير ذلك، ولعل هذا الإصرار ينطلق من مادة التدريس التي اقتصر عليها ابن عصفور، وهي علم النحو. ولابأس من عرض أسماء مؤلفاته لأخذ صورة عن ثقافة الرجل واهتمامه ونشاطه في التأليف، مع الإشارة إلى المطبوع منها : (5).

ـ المقرب (في النحو)، حققه أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري في جزأين، وطبع بمطبعة العاني ببغداد، ظهر الجزء الأولى سنة 1391 هـ / 1971 م. والجزء الثاني سنة 1392 هـ / 1972 م.

ـ الممتع في التصريف حققه الدكتور فخر الدين قباوة (من سوريا) في جزءين ونشر في حلب سنة 1390 هـ / 1970 م.

وللدكتور فخر الدين قباوة دراسة عنه بعنوان : (ابن عصفور والتصريف)، ظهرت طبعته الأولى سنة 1391 هـ / 1971 م، ثم أعيد طبعه بدار الآفاق الجديدة، ببيروت سنة 1401 هـ / 1981 م.

ـ شرح الجمل للزجاجي.

---

5) انظر مقدمة كتاب المغرب ص : 11 ـ 15.

- المفتاح.
- الهلال.
- الأزهار.
- إنارة الدياجي.
- مختصر الغرة.
- مختصر المحتسب، شرحه ثم اختصره، والمحتسب كتاب في النحو ألفه ابن بابشاذ طاهر بن أحمد النحوي المتوفي سنة 469 هـ.
- السالف والعذار.
- البديع في شرح المقدمة الجزولية، قيل إنه لم يتمه، فأتمه تلميذه الشلوبين الصغير محمد بن علي الانصاري المالقي المتوفى حوالي سنة 670 هـ.
- شرح ديوان المتنبي.
- شرح الأشعار الستة.
- سرقات الشعراء.
- شرح ديوان الحماسة.
- شرح المقرب.
- ضرائر الشعر وهو موضوع هذا العرض.

تلك هي أهم المؤلفات التي أحصاها مترجموه ودارسوه، يضاف إليها ما ذكره بروكلمان، وبعضه لا يزال مخطوطا في بعض الخزانات العامة كخزانة القرويين (6).

---

6) انظر مقدمة تحقيق ضرائر الشعر، و(ابن عصفور والتصريف) للدكتور فخر الدين قباوة ص : 64 ـ 71.

ـ كتاب : ضرائر الشعر :

سبقت الإشارة إلى أن ابن عصفور يمثل حلقة وسطى من بين الـذين ألفوا في الضرائر الشعريـة. وقـد طبع كتـابـه (ضرائر الشعر) ـ وهو آخر مـا ظهر من مـؤلفـاتـه ـ بتحقيـق السيـد ابراهيم محمد تحقيقـا علميـا جيـدا في 367 ص من الحجم الكبير، مـع الفهـارس العلميـة الضروريـة، اعتمادا على نسخة فريدة في المكتبة الحميدية باستنبول، كتبت بخط العلامة عبـد القـادر البغدادي.

ـ دواعي تأليف الكتاب وخطته وموضوعه :

يستهل ابن عصفور كتابه بمقدمـة يشير فيهـا إلى دواعي تـأليف هـذا الكتاب وموضوعه، فقد «أشـار من الإصـابـة تقـدم لفظتـه، والمهـابـة تخدم لحظتـه، معلي منـار العلوم، ورافع أربـابهـا من التخوم إلى النجـوم، سيـدنـا ومولانا الخليفة الإمام المستنصر بـالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين، أبو عبـد الله ابن الراشـدين الهـادين المهتـدين، إلى وضـع تـأليف مشتمـل على أصنـاف الضرائر، محتو على مـا يحسن للنـاظم دون النـاثر، فوضـع العبـد في ذلك كتابا صغير الحجم، حاصرا لضروب الأحكام المختصة بالنظم» (7).

وبعد الخطبة مهد لكتابه بمدخل أوجز فيه مشروعية التأليف في هـذا الموضوع الذي يختص بالشعر وبالكلام المسجوع الذي يلحق بالنظم في هـذا المجال، لكونه يجري مجراه، ويستهل هذا التمهيد الموجز بقوله :

---

7) ضرائر الشعر لابن عصفور ص : 11.

«اعلم أن الشعر لما كان كلاما موزونا يخرجه الزيادة فيه والنقص منه عن صحة الوزن، ويحيله عن طريق الشعر، أجازت العرب فيه مالا يجوز في الكلام، اضطروا إلى ذلك أو لم يضطروا، لأنه موضع ألفت فيه الضرائر» (8).

أما مباحث الكتاب فهي أنواع الضرائر التي يحددها المؤلف في البداية في أربعة فصول هي : **الزيادة - النقص - التأخير - البدل**، وكل نوع من هذه الأنواع يمثل فصلا من فصول الكتاب.

وبالاضافة إلى هذا الكتاب، فقد خصص ابن عصفور الباب الأخير من كتابه (المقرب) للضرائر، لخص فيه في بضع صفحات ما فصله في كتابه الضرائر.

وقد تميز هذا الكتاب بالاستقصاء والشمول، وتتخلل أمثلته تعليقات ومناقشات نحوية ولغوية مفيدة جدا، وهذا ما يجعلنا في حاجة إلى الحديث عن منهجه وخطته، ومن خلال ذلك كله نقف على موقف ابن عصفور من الضرورة الشعرية، فهو لا يعتبرها خطأ مذموما، بل يراها رخصة أجازتها العرب في الشعر وما يلحق به من الكلام المسجوع، ولكن في إطار محدود، اضطر الشعراء إلى ذلك أم لم يضطروا، مادام الأمر لا يخرج عن المواضع التي ألفت فيها الضرائر، وهو ما سعى إلى إحصائه وتحديده.

---

8) نفسه ص :13.

منهجه :

يسير المؤلف في كتاب (الضرائر) وفق منهج دقيق في ترتيب موضوعات كتابه، وفي تحديدها، وفي تناولها، فهو يحدد في كل فصل مباحثه أولا، ثم ينتقل إلى التفصيل؛ فالفصل الأول المتعلق بالزيادة يضم أربعة مباحث هي :

زيادة حركة ـ زيادة حرف ـ زيادة كلمة ـ زيادة جملة.

والفصل الثاني المتعلق بالنقص ينحصر في : نقص حركة ـ نقص حرف ـ نقص كلمة.

والفصل الثالث وموضوعه : التقديم والتأخير يضم المباحث الآتية : تقديم حركة، تقديم حرف، تقديم بعض الكلام على بعض.

والفصل الرابع المتعلق بالبدل يضم : إبدال حركة من حركة ـ وإبدال حرف من حرف ـ وإبدال كلمة من كلمة ـ وإبدال حكم من حكم.

وقد استقصى ابن عصفور عددا من الشواهد الشعرية، بالاضافة إلى الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والحكم والأمثال الجارية، وقد أشار إلى هذا المنحى في الاستقصاء في آخر كتابه، داعيا إلى قياس ما أغفل منها على ما أثبته عند الحاجة وكثرة الاستعمال فقال :

«هذه جملة الضرائر قد استوعبتها مجملة ومفصلة، فلم يشذ منها إلا ما لا بال له إن كان شذ، ويجوز القياس على ما كثر استعماله منها، وما لم يكثر استعماله فلا سبيل إلى القياس عليه» (9).

---

9) نفسه ص :311.

وقـد صرح المؤلف في غـالب الأحيـان بمصـادره، وهـو يجمع بين المتقـدمين والمتـأخرين من العلمـاء، إذ ذكر الاصمعي (ت 216 هـ) وابن الاعرابي (ت 231 هـ) وسيبويـه (ت 180 هـ) والكسـائي (ت 189هـ) وأبـا عبيـدة (ت 209 هـ) والفراء (ت 207 هـ) والمبرد (ت 286 هـ) وابن السراج (ت 316 هـ) والـزجـاجي (ت 337 هـ) وأبـا الحسن الأخفش (ت 211 هـ) وابن ولاد (ت 332 هـ) وابن جني (ت 392 هـ) وأبا علي الفـارسي (ت 377 هـ) وأبـا العـلاء المعري (363 هـ ـ 449 هـ) وابن خروف (ت 609 هـ) وغيرهم، وهو يـأخـذ عن علماء البصرة والكـوفـة على السواء بالاضافة إلى المدرسة البغدادية. ولكن دون أن تختفي شخصيتـه، وفي ذلك تأكيد لبروز شخصية المدرسة الأندلسية واستقلالها (10).

وابن عصفور حين يشير إلى ظاهرة الاستقصاء في كتـابـه، يعكس في حديثه ثقته بنفسه، وسعة اطلاعه، ومن أمثلة ذلك ما جاء في حـديثـه عن الضرورة بـالـزيـادة، فحين تحـدث عن زيـادة «بـل» للضرورة كما في قـول العجاج :

بل ما هاج أحزانا وشجوا قد شجا

قال : «ولا يحفظ زيادة «بل» إلا في هذا البيت» (11).

وقد تجاوزت شواهده الشعرية ـ وحدها ـ في الضرائر تسعمائة شـاهـد، بالاضافة إلى شواهده من الآيات القرآنيـة، والاحـاديث النبويـة، والأمثـال الجارية.

---

10) انظر على سبيل المثال : المدارس النحويـة للدكتور شوقي ضيف ص : 288 ومـا بعـدهـا، وص : 292 الطبعة الثانية 1972 ـ دار المعارف بمصر.

11) ضرائر الشعر ص : 73.

وبالرغم من كثرة مصادره وتنوعها، مما قد يوحي بأنه مجرد حاطب يجمع من هنا وهناك كل ما يصادفه مما يناسب موضوعه، فإن شخصيته تبقى واضحة جدا، سواء في تقسيمه الكتاب إلى فصول بحسب أنواع الضرائر، أم في الاجراءات التنظيمية التي اتبعها في ترتيب مواده وشواهده، وفضلا عن ذلك، فإن الناظر في كتابه يلاحظ بوضوح أن طريقة ابن عصفور في التعامل مع مصادره متميزة، ويمكن إجمال سمات منهجه في التعامل مع مصادره، وفي البحث والجدل والمناقشة والتعليق فيما يلي :

1 ـ يتعرض للخلاف بين الكوفيين والبصريين بنوع من الدقة والشمول والإيجاز في غير إطناب، وغالبا ما يدلي برأيه معقبا على هذا المذهب أو ذاك، بنوع من الجرأة والصراحة، موضحا وجهة نظره بالشرح والتبسيط، فهو على سبيل المثال حين يتحدث عن صرف مالا ينصرف في الشعر، وبعد أن يسوق جملة من الشواهد يقول :

«وصرف ما لا ينصرف في الشعر أكثر من أن يحصى، وزعم الكسائي والفراء أنه جائز في كل ما لا ينصرف إلا «أفعل من» (12)، نحو أفضل من زيد، وزعما أن «مِن» هي التي منعته من الصرف. وذلك باطل، بدليل أنهم صرفوا : خيرا من عمرو، وشرا من بكر، مع وجود «مِن» فيهما. فثبت بذلك أن المانع لصرفه كونه صفة على وزن «أفعل» بمنزلة «أحمر»، فكما أن «أحمر» يجوز صرفه في الضرورة فكذلك «أفعل مِن»» (13).

---

12) وردت في كتاب ضرائر الشعر : أفعل منك، ولعله وهم، والصواب على الأرجح ما أثبتناه.

13) ضرائر الشعر ص : 24.

ويـــذكر مـــا أجـــازه البصريـــون من صرف كل مـــا لا ينصرف في الضرورة، إلا أن يكون آخره ألفا، ثم يعقب على ذلك بقوله :

«وذهب بعض البصريين إلى أن كل ما لا ينصرف يجوز صرفه، إلا أن يكون آخره ألفا، فإن ذلك لا يجوز فيه، لأن صرفه لا يقام به قـافيـة، ولا يصحح به وزن، والصحيح أن صرفه جائز لما بيناه، قبل، من أن الشعر قـد يسوغ فيـه مـالا يسوغ في الكـلام،وإن لم يضطر إلى ذلـك الشـاعر،وأيضـا، فإن السماع قد ورد بصرف ما في آخره ألف، قال المثلم بن رياح المري :

إني مقسم مـــــا ملكت فجــــــاعـــل

أجرا لآخرة ودنيـــــــــا تنفـــــــع

رواه ابن الاعرابي بصرف «دنيا»» (14).

ثم يتوسع في هذا المذهب، فيقول بطريقة تقوم على الجدل :

«فـإن قلت : كيف جعلت صرف مـــالا ينصرف من قبيـل الضرائر، وقد زعم أبو الحسن الأخفش في الكبير له أنـه سمع من العرب من يصرف في الكلام جميع مـالا ينصرف ؟ وحكى الزجـاجي أيضـا في نوادره مثل ذلـك. فالجواب أن صرف مالا ينصرف في الكلام إنما هو لغـة لبعض العرب، قـال أبـو الحسن : فكان ذلـك لغـة الشعراء، لأنهم قـد اضطروا إليـه في الشعر فصرفـوه، فجرت ألسنتهم على ذلـك. وأمـا سـائر العرب فـلا يجيزون صرف شيء منه في الكلام، فلذلك جعل من قبيل ما يختص به الشعر» (15).

---

14) نفسه ص : 24 ـ 25.

15) نفسه ص : 25.

2 ـ يقف عند بعض الآراء مناقشا ومصححا، وكثيرا ما يعلن رأيه الذي يخالف به بعض العلماء، فهو في مجال الضرورة بالزيادة يأتي ببعض الشواهد على ذلك، ومن جملتها قول حسان بن ثابت الانصاري :

على ما قام يشتمني لئيم
كخنزير تمرغ في رماد

وقول بعض بني نبهان :

فإن كنت سيدنا سدتنا
وإن كنت للخال فاذهب فخلْ

ويعقب عليهما بقوله : «زعم أبو الفتح (ابن جني) أن «قام» في البيت الأول، و«فاذهب» في البيت الثاني زائدتان، لأن المعنى : وإن كنت للخال فخل، وعلام يشتمني، وانها زيدتا توكيدا للكلام وتمكينا له.

والصحيح أنها غير زائدتين، لأنه لا موجب لزيادتها، بل «قام» في بيت حسان ليست ضد : قعد، بل في معنى «ثبت» من قوله تعالى : ﴿**إلا ما دمت عليه قائما**﴾ (16)، وكأنه قال : ما ثبت يشتمني لئيم، وكذلك «اذهب» في البيت الثاني، له معنى لا يفهم إلا منه، ألا ترى أن المعنى : إن سِرْتَ فِينَا سَيْرَ السادة المرضية سدتنا، وإن كنت تبغي الخال فاذهب فاطلب لذلك قابلا وبه راضيا، فإننا لا نقبل ذلك ولا نرضاه، ولو جعلت زائدة لا معنى لها، لكان الكلام يعطي ظاهره الرضى بالخال والقرار على الادلال، وهو خلاف مراد الشاعر (17).

---

16) سورة آل عمران/ 75.

17) ضرائر الشعر ص : 80.

والأمثلة التي يخالف فيها كبار العلماء عديدة في الكتاب.

3 ـ من خلال المثال السابق، وأمثلة عديدة مماثلة، تظهر قدرة ابن عصفور على النفاذ إلى بعض معاني الشعر الدقيقة، إذ هو لا يهتم بالشاهد فحسب، بل يسعى عند الضرورة إلى الشرح، وكثيرا ما يغني الموضوع بتلك الطريقة، ويضفي عليه رونقا يبعده عن القواعد المجردة وطابعها الجاف، ولا غرو في ذلك، فقد كان ابن عصفور شارحا لكثير من المصنفات النحوية والدواوين الشعرية، ومن جملتها : شرح ديوان المتنبي، وحماسة أبي تمام، والأشعار الستة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وعسى الأيام أن تظهر بعض ذلك، حتى نكتشف منهجه وقدرته في مجال الشرح، كما عرفنا منهجه في النحو والصرف والضرائر الشعرية من خلال ما بين أيدينا من مؤلفاته.

4 ـ مع أن النزعة الموضوعية غالبة على آراء ابن عصفور بحكم طبيعة الموضوع، فإنه يحتكم أحيانا إلى ذوقه المتمرس بالنصوص الشعرية في ترجيح بعض الضرائر.

ـ مميزات الكتاب وأهميته :

يكاد كتاب (ضرائر الشعر) لابن عصفور يتميز عن سابقيه ولا حقيه من مؤلفات القدماء بصفة خاصة في هذا الموضوع بكبر حجمه وسعة مضمونه، ودقة وإحكام منهجه، وكثرة فوائده، ولكنه يكاد يتفق مع معظمها في كونه يمثل وجهة نظر علماء العربية والنحاة في الضرائر، لا وجهة نظر علماء البيان والعروضيين. ولعل ذلك يعود ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ لكون ابن عصفور أحد شيوخ اللغة والنحو في عصره، ألف فيه

الكتب الجيدة، وأخذ عنه تلامذة نبهاء يكفي أن نذكر منهم عـالم الأنـدلس أبا حيان، والشلوبين الصغير وغيرهما. وقد أدرك معاصروه مكانته ـ برغم مـا كان له من حساد ومنافسين ـ وحين توفي رثاه أحدهم بقوله :

أسنـــــد النحـــو إلينــــا الــــدؤلي
عن أمير المـــــؤمنين البطـــــــل
بـــــــدأ النحـــــو علي وكـــــــذا
قـــــل بحـــــق ختم النحــــــو علي

وقد عبر الدارسون عن أهمية كتاب ضرائر الشعر وميزاته، فقال محققـه السيد ابراهيم محمـد : «يعتبر هـذا الكتـاب من أهم مـا ألف في هـذا الموضوع لاحتوائه على كثير من الضرورات الشعرية، واستقصاء مؤلفه لعدد كبير من المصادر في الحصول على مادة الكتاب، ولغزارة الشواهد النحويـة التي يحتوي عليها، ولبنائه على خطة محكمة في التصنيف وترتيب الموضوعات» (18).

ويكفي دليلا على أهمية هذا الكتاب أنه كان مصـدرا من أهم مصـادر العلامة عبد القادر البغدادي، أشـار إليـه ونقل عنـه في مواضع متعـددة، كما اعتمد عليـه أيضـا في شرحـه شواهـد شرح الشـافيـة للامـام الرضي، وكتبت النسخة الوحيدة التي اعتمد عليها محقق الكتاب في إخراجه بقلم العـالم الثقـة البغـدادي نفسـه. كما اعتمـد عليــه العيني في شرح شـواهــد شروح الألفيــة، المعروف بشرح الشواهد الكبرى، وقد أشار محقق كتـاب الضرائر إلى مواطن ذلك بتفصيل (19).

---

18) نفسه ص : 7 من مقدمة التحقيق.

19) انظر إشارات المحقق لكتاب ضرائر الشعر ص : 7 ـ 8.

ولكن ما فائدة دراسة ضرائر الشعر وما قيمتها اليوم ؟ وبأي منهج يجب أن ندرسها حتى نستفيد من هذا التراث الذي تركه القدماء ؟

إن دراسة الضرائر بالغة الأهمية في فهم الشعر القديم، وطريقة تعامل الشاعر مع اللغة، ولكن الحاجة ماسة إلى إعادة النظر في منهجية دراسة موضوع الضرائر الشعرية، وتجديد النظرة إليها، انطلاقا مما فتحته الدراسات الأسلوبية من آفاق رحبة، وتعتبر كتب الضرائر القديمة مجالا صالحا للتطبيق في هذا الموضوع الذي ينطلق أصلا من صلب اللغة ونحوها، ليرتبط بعلم العروض، وفن البلاغة وما يرتبط بها من الدراسات الجمالية والأسلوبية، كما يرتبط بالنقد الأدبي، لأن «أئمة النحويين كانوا يستدلون على ما يجوز في الكلام، بما يوجد في النظام، والاستدلال بذلك لا يصح إلا بعد معرفة الأحكام التي يختص بها الشعر، وتمييزها عن الأحكام التي يشركها فيها النثر» (20). وبذلك يمكن إعادة بناء نظرية متكاملة للضرورة الشعرية تفيد الدارسين والباحثين في الشعر العربي، كما تفيد غيرهم من المهتمين بالدراسات اللغوية والنحوية والجمالية والنقدية، وتحول دون اعتبار هذا الموضوع مجرد قواعد جافة مملة وشواهد ثابتة، بل إن ذلك سيضفي عليه ألوانا من الذوق الحي دون إخلال بسلامة القواعد إلا في إطار ما يجوز في لغة الشعر المحكومة بالايقاع الموسيقي الخاص بها، ولعل دراسة الضرائر الشعرية دراسة أسلوبية - على سبيل المثال - أن تتيح اكتشاف طريقة وقدرة الشاعر في صناعته، ومدى براعته في تطويع اللغة، باعتبارها أداة فنية، حين لا تسعفه ألفاظها المألوفة لأداء معانيه وما يجيش به خاطره من

---

20) ضرائر الشعر ص : 11 من مقدمة المؤلف.

انفعالات ومشاعر غير مألوفة، وهو مجال تتوقف عليه عظمة الشاعر بدون شك. ولعل الدراسة التي كتبها محقق كتاب (ضرائر الشعر) السيد ابراهيم محمد بعنوان (الضرورة الشعرية : دراسة أسلوبية) (21) من شأنها أن تكون بداية طيبة لهذا المنحى الذي يختلف، على سبيل المثال، عن «النظرة البلاغية القديمة، لأن النظرة البلاغية ترى أن الضرورة من الأشياء التي ينبغي تجنبها لأنها قبيحة تشين الكلام وتذهب بمائه، والنظرة الأسلوبية لا ترى مبررا لهذا الرأي قبل الوقوف على العمل الأدبي وغرض صاحبه منه واستيعابه من جميع الوجوه» (22)، بالاضافة إلى الخلاف بين عدد من اللغويين والنحويين حول اعتبار الضرورة رخصة أو خطأ.

وللقضية، بناء على ذلك، وجهان : «أحدهما يتمثل في الظاهرة اللغوية باعتبارها نشاطا إبداعيا، والآخر يتعلق بموقف البحث النحوي منها باعتباره موقفا نقديا تحليليا» (23). ومن شأن ذلك أن يدفعنا إلى إعادة النظر إلى العلاقة الحية بين الأديب والتراث، انطلاقا من رؤية جديدة تتميز بالشمول والأصالة، ومن هنا تكون الاضافة إلى التراث ويكون إغناؤه، من خلال توظيفه توظيفا إيجابيا بدل الاقتصار على تكراره واجتراره.

وجدة **علي لغزيوي**

21) انظر بصفة خاصة الفصلين الرابع والخامس من الكتاب المذكور.

22) الضرورة الشعرية : دراسة أسلوبية ص : 127/ الطبعة الأولى 1979. دار الأندلس ـ لبنان.

23) نفسه ص : 7.

الطَّيرُ والحَيوانُ
في الشعر العربي

محمد خير شيخ موسى

في ديوان الشعر العربي صفحات طويلة لم تقرأ بعد، ولم تجد لها في كتب الدارسين وأبحاثهم مجالاً ومتسعاً، مع ما لها من أهمية في الكشف عن بعض الجوانب الإنسانية الخفية في هذا الشعر، بعد أن طغت عليه الصبغة الرسمية، وما يتصل بها من مذاهب وأغراض في نظر كثير من الباحثين، فبدا الشاعر معها ظلا لغيره، وصار صوته صدى للأصوات الآخرين، وأصبح الشعر سلعة نافقة في أسواق الممدوحين، وكان لارتباط دراسته بالتاريخ أثر كبير في ذلك.

ومن هذه الصفحات المشرقة في الشعر العربي ما قالته الشعراء في الطير والحيوان من قصائد وأشعار كثيرة، ذات صبغة إنسانية نادرة قلما نجد لها نظيراً في أشعار الشعراء، لما اتسمت به من صدق في الشعور، ورقة في العواطف، وبراعة في التعبير، وطرافة في الموضوع.

وقد كان للطير والحيوان نصيب وافر جدا من أشعار الشعراء العرب منذ أقدم العصور، فكان وصف الرحلة والراحلة، ونعت الفرس والحصان، وذكر الظبي والظليم والنعامة وغيرها من أبرز معالم القصيدة الجاهلية والإسلامية، وغرضا أساسيا من جملة أغراضها، قبل أن يستقل هذا الغرض بنفسه، ويعود إلى ما كان عليه حاله، ويصبح فناً شعرياً قائماً بذاته، وتتنوع مذاهبه وأساليبه، وتتعدد أغراضه لتشمل الوصف والمديح والهجاء والرثاء وغيرها من أغراض الشعر المعروفة.

الطير والحيوان في الشعر الجاهلي والإسلامي:

ومن المعروف أن الشاعر الجاهلي والإسلامي القديم كان يصدر في شعر عن بيئته فيصف ما فيها من مظاهر وظواهر، وصفاً حسياً دقيقاً ومباشراً، لا يخلو من ارتباط بعواطفه ومشاعره الذاتية، ولا يتعدى حدود البيئة البدوية، وما فيها من بيد ومهامه وقفار، أو دمن ومنازل وآثار، أو طير وحيوان أو غير ذلك من مدركات هذه البيئة البسيطة، فنقل إلينا صورها في شعره، وعبر عن أثرها في نفسه، وتنبه على ذلك بعض النقاد القدماء، فقال ابن طباطبا العلوي (ـ 322 هـ) : «واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها، وأدركته عيانها، ومرّت به تجاربها، وهم أهل وبر، صحونهم البوادي، وسقوفهم السماء، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه فيها» (1)، فعلل بذلك حسّية الوصف والخيال لدى

---

1) عيار الشعر : ص 10.

الشاعر البدوي، وربط هذه الظاهرة بأسبابها البيئية، ونبّه على سبب اتجاهه إلى هذه الأغراض في شعره.

وكان وصف الطير والحيوان من أهم هـذه الأغراض، إذ لا نكاد نجـد شاعراً من الشعراء الجـاهليين أو الإسلاميين يتجـاوزه أو يعـدل عنـه، إن لم يجعله وكده وغايته، فيختص به، ويبدع فيه، كما هو الشأن لدى عـدد كبير منهم.

وممن برع في هذا الفن من الشعراء ـ وإن لم يختص به ـ امرؤ القيس، فأجاد وصف الفرس وصفـاً حيـاً ومعبراً، لفت إليـه أنظـار النقـاد، فـأبـدوا إعجابهم الشديد به، ومن ذلك قوله المعروف في معلقته : (2).

وقـــــد اغتـــــدي والطير في وكانتهـــــا
بمنجرد قيـــــــد الأوابـــــــد هيكلِ (3)
مكرٍّ مفرٍّ مقبـــــل مـــــدبر معـــــاً
كجلمـود صخر حطّـه السيـل من عـلِ (4)
مسـحٌ إذا مـــا الســـابحـــات على الـونى
أثرن غبـــاراً بـــالكـــديـــد المركّـلِ (5)

2) مختار الشعر الجاهلي : 30/1 ـ 31.
3) الوكنات : ج وكنـة مـأوى الطير، المنجرد : الفرس القصير الشعر، الأوابـد : ج آبـد الوحش النافر، الهيكل : العظيم الخلقة.
4) مكرّ مفر : يحسن الكر والفر، الجلمود : الحجر الصلب.
5) المسح : السريع، السـابحـات : الخيل تبسـط يـديهـا عنـد الجري، الونى : الفتور، الكـديـد : الأرض الصلبة، المركل : الذي أثرت فيه الحوافر وأثارت غباره.

لـــه أيطـلا ظبي وســاقـــا نعـــامـــة
وإرخـــــاء سرحـــــان وتقريب تتفـــلِ (6)

وخص الفرس والبقر والثور وغيرها بقصيدة لها قصـة مشهورة، يقول في مطلعها :

خليليّ مرّا بي على أم جنـــــــــــــدب
نقضٍّ لبـــانـــــات الفـــؤاد المعـــذبِ (7)

ثم انتقل من النسيب إلى وصف الغرس وغيره فقال :

وإنـــك لم تقطـع لبـــانـــة عـــاشـق
بمثـــل غــــدو أو رواح مـــؤوبِ (8)
بـــأدمـــاء حرجـوج كأنّ قتـــودهــــا
على أبلــــــقِ الكشحين ليس بمغربِ (9)
يغرِّد بـــالأسحـــــار في كل سُـــدفـــة
تغرّد ميّـــــاحِ النـــــدامى المطرّب (10)

ومـما يروى من خبر هـذه القصيـدة أن امرأ القيس وعلقمـة الفحـل احتكما إلى أم جندب في شعرهما، فقال الأول هذه القصيدة، وعارضه الثـاني

---

6) أيطلا : خاصرتا، إرخاء سرحان : جري الذئب، تقريب تتفل : جري ولد الثعلب.
7) اللبانات : ج لبانة، الحاجة.
8) مؤوب : من التأويب وهو السير إلى الليل.
9) الأدماء : الناقة، الحرجوج : الطويلة، القتود : خشب الرحل، الكشح : الخاصرة، مغرب : حمار الوحش.
10) السدفة : طائفة من الليل، المياح : النشوان.

بأخرى مثلها، فحكمت له وفضلت شعره على شعر زوجها بإجادته صفة الفرس في قوله :

فـــأدركهنّ ثـــانيـــاً من عنـــانــــه
يمرّ كمرّ الرائــــــــــــــــح المتحلّب (11)

وقيل إنه طلقها لذلك، فخلف عليها علقمة (12).

وكان علقمة مشهورا بوصف النعامة فقالوا : «لم يصف أحد الخيل إلا احتاج إلى أبي دؤاد ولا وصف أحد النعامة إلا احتاج إلى علقمة بن عبدة» (13).

وأبو دؤاد الإيادي «شاعر قديم من شعراء الجاهلية، كان وصافاً للخيل، وأكثر أشعاره في وصفها» (14) وقد وصلت إلينا قطع متفرقة من شعره، معظمها في وصف الفرس، وكان هذا الشاعر على خيل المنذر بن ماء السماء في الحيرة، «فكان يقال : إن طفيلاً الغنوي ركب الخيل ووليها لأهله، وإن أبا دؤاد ملكها لنفسه ووليها لغيره، كان يليها للملوك، وإن النابغة الجعدي... سمع ما قالوه في صفة الخيل، وكان هؤلاء نعات الخيل» (15). ويبدو أن طفيلاً أطولهم باعاً في ذلك، فلقب بطفيل الخيل والمحبّر «لحسن وصفه الخيل» (16).

---

11) الرائح : السحاب، المتحلب : المتتابع.
12) مختار الشعر الجاهلي : 415/1.
13) الأغاني : 375/16.
14) ن.م : 373/16، وجمع شعره غرنباوم وألحقه بكتابه : دراسات في الأدب العربي ص 255 - 353.
15) ن.م : 349/15.
16) ن.م : 350/15.

وإذا ما تجاوزنا صفة الخيل ومديحها، فإنا نجد أن عنترة قد استبطن دخيلتها في وصفه المشهور لحصانه الأدهم في المعركة، إذ سبر أغواره، وكاد أن ينطقه فيجأر بالشكوى من هول ما أصابه، فعبر عن ذلك ربه وفارسه فقال : (17)

لاعـــون عنتر والرمـــــاح كأنهـــــا
أشطـــــان بئر في لبـــــان الأدهم (18)

فـــازور من وقـع القنـــا بلبـــانـــه
وشكـــا إليَّ بعبـرة وتحمحـم(19)

لـو كان يـدري مـا المحـــاورة اشتكى
ولكان لـــو علم الكـــلام مكلمي

وحظيت الناقة بنصيب وافر من أشعارهم، «لأنها مراكيهم» (20) على حد تعبير ابن رشيق وتعليله، فقلما خلت قصيدة لهم من وصفها ومدحها، وبرع في ذلــك منهم طرفـة وأوس بن حجر وكعب بن زهير والشماخ بن ضرار، وعرفوا بنعات الإبل، وقد صاغ طرفة لناقته تمثالا حيا وخالدا في معلقته، ألم فيه بجميع أطرافها وتفاصيلها.

ولم تكن صلة الشاعر البدوي بناقته مقصورة على نعتها فحسب، إذ ارتبط معها بعلاقة وجدانية وعاطفية قوية، وكان الحنين سبيله إلى توثيق هذه العلاقة، فأشركها معه فيه، وخاطبها من خلاله، فقال عبيد بن

---

17) مختار الشعر الجاهلي : 379/1.
18) الأشطان : ج شطن وهو حبل البئر. اللبان : الصدر. الأدهم : الفرس الأسود.
19) ازور : حال. القنا : الرماح. التحمحم : الصهيل المكتوم.
20) العمدة : 227/2.

الأبرص يبثها ما في نفسه، بعد أن أفصحت له ـ وهي العجماء ـ عما يجول بداخلها من لواعج الشوق والحنين (21) :

وحنّت قلوصي بعد وهنٍ فهاجها
مع الشوق يوماً بالحجاز وميض (22)

فقلت لها لا تضجري إن منزلاً
تأتني به هند إلى بفيضُ (23)

بينما لامها المتلمس على ما هاج من شوقها وحنينها إلى العراق، وقد نفته عنه المكاره فقال (24) :

حنّت قلوصي بها والليل مطرق
بعد الهدوّ وشاقتها النواقيسُ

حنت إلى نخلة القصوى فقلت لها
بل عليك ألا تلك الدهاريسُ

واختص بعض الشعراء الإسلاميين بوصف الإبل، فكان عتيبة بن مرداس المعروف بابن فوة «أوصف الناس لها، وأغراهم بوصفها، ليس له كبير شعر إلا وهو مضمن وصفها» (25) فقال فيه بعض الشعراء :

أودى ابن فوة إلا نعته الإبلا.

---

(21) مختار الشعر الجاهلي : 52/2 وديوانه ص 31.
(22) القلوص : الناقة الشابة. الوهن : الوقت بعد منتصف الليل. الوميض : البرق.
(23) نأتني : بعدت عني.
(24) ديوانه : ص 4.
(25) الأغاني : 227/22.

ولم يكن الراعي النميري وصافاً لها، وإنما «لقب بذلك لكثرة وصفه الإبل، وجودة نعته إياها» (26) ولهؤلاء الشعراء جميعا ولغيرهم أشعار كثيرة في ذلك.

ولعل أروع صورة من صور الحيوان في الصحراء لدى الشاعر العربي هي صورة الذئب، وقد خلف لنا الشعراء فيها لوحات فنية نادرة، نقرأ فيها دروس الفقر والتشرد والصعلكة، ونسمع من خلالها أنين الجوع ولوعة الحرمان.

وكان الشعراء الصعاليك أولى الناس بهذا الحيوان، لما بينه وبينهم من صلات وعلائق، فرأوا فيه مرآة لهم في جوعهم وتشردهم وفقرهم ووحدتهم، وقد عبر الشنفرى عن ذلك بقوله في «لامية العرب» : (27).

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا

أزلّ تهاداه التنائف أطحلُ (28)

غدا طاوياً يعارض الريح هافياً

يخوت بأذناب الشعاب ويعسلُ (29)

فلما لواه القوت من حيث أمّه

دعا، فأجابته نظائر نُحّلُ (30)

---

26) ن.م : 206/24.

27) مختار الشعر الجاهلي : 601/2 ـ 602.

28) أزل : الذئب الخفيف. التنائف : ج تنوفة وهي الصحراء. الأطحل : غير صاف ما بين الأغبر والأبيض.

29) الطاوي : الجائع. الهافي : المسرع. يخوت : ينقض ويخطف. يعسل : يمشي في استقامة.

30) لواه : صرعه. أمّه : قصده. النظائر : الأشباه. النحّل : المهازيل.

مهلهلـــــةٌ، شيبُ الـــوجـــوه كأنهـــــا
قــــداح بكفي يـــــاسرٍ تتقلقـــلُ (31)

مهرّتـــــةٌ، فـــوهٌ، كأن شـــــدوقهـــــا
شقـــوق العصي كالحـــــات وبُسَّـــلُ (32)

فضـــجَّ وضجّت بـــــالبراح كأنهـــــا
وإيـــــاه نَـــوح فـــوق عليـــــاء ثكلُ (33)

وأغضى وأغضت واتسى واتست بـــــــــه
مراميـــل عـــزّاهـــا وعـــزّتـــه مُرمـــلُ (34)

شكا وشكت، ثم ارعـــوى بعـــــدُ وارعـــوت
وللصبرُ إن لم ينفـــع الشكـــو أجمـــلُ (35)

وفـــــاءَ وفـــــاءَتْ بـــــادرات وكلهـــــا
على نكـــــظٍ ممـــــا يُكاتم مُجمـــلُ (36)

إنها صورة الشنفرى وأصحابه من الصعاليك وذؤبان العرب، وقد عضّهم الجوع، وضجت الصحراء بأنينهم، فتجمعوا حوله يتشاكون، وتأسوا به، وتجملوا بالصبر، وكتموا غيظا عميقا في النفوس قبل أن يتفرقوا.

---

31) مهلهلة : ضعيفة هزيلة. قداح : ج قدح وهو سهم القمار. ياسر : مقامر. تتقلقل : تضطرب.

32) مهرتة : واسعة الأشداق. فوّه : مفتوحة الفم. كلوح : عابسة. بل : كريهة الوجوه.

33) ضج : صاح. البراح : الأرض الواسعة القفر. النوح : النساء. الثكل : اللاتي فقدن أولادهن.

34) أغضى جفنه : أدناه وأسبله. اتسى : اقتدى. المرحل : الذي نفذ زاده.

35) ارعوى : كف.

36) فاء : رجع. بادرات : مسرعات. نكظ : جوع أو عجلة.

والذئب في القصيدة العربية جائع متشرد على الدوام، إلا أنه حذر متيقظ لاينام، تجمعه وأصحابه صرخة الجوع، فلا يجوع وحده، ولا يأكل وحده، ولأمر ما وجد ابن الصحراء تعاطفاً معه في نفسه، وحزّ فيها أن يبخل عليه أحد بزاده، صنيع صاحبة حميد بن ثور معه، فقال يصف الذئب ويلومها على بخلها في إطعامه (37) :

رأتـه فشكّت وهو أطحل مائل
إلى الأرض مثنّي إليه الأكارعُ (38)
طويّ البطن إلا من قصير يبلّه
دمُ الجوفِ أو سؤر من الأرض ناقعُ (39)
إذا نال من بَهم البخيلةِ غرّة
على غفلة مما يرى وهو طالعُ (40)
تلوم ولو كان ابنها فرحتْ به
إذا هبّ أرواح الشتاء الزعازعُ (41)
ونمت كنوم الفهد عن ذي حفيظة
أكلت طعاماً دونه وهو جائعُ (42)

---

37) ديوانه : ص 103 ـ 106.

38) أطحل : أغبر.

39) طوي : ضامر. مصير : معي ويجمع على مصران ومصارين. سؤر : بقعة. ناقع : من نقع الماء العطش.

40) البهم : ج بهمة.

41) أي إنها قد تفرح إذا نال الذئب ابنها دون بهمها.

42) أي : نام نومة الفهد حذرا بعد أن يئس أمام حرص هذه المرأة البخيلة.

وقد تأسى كعب بن زهير إذ لم يجد لديه ما يطعم به ذئباً جائعاً لقيه في أرض جرداء قاحلة، فأنكر وجوده في ليلها البهيم وقال (43) :

قطعت يماشيني بها متضائلٌ
من الطلس أحياناً يخبّ ويعسلُ (44)
تعرّب حتى قلت لم يدن هكذا
من الإنس إلا جاهل أو مضللُ (45)
إذا ما عوى مستقبل الريح جاوبت
مسامعه فاه على الزاد معولُ (46)
إذا حضراني قلت لو تعلمانه
ألم تعلما أني من الزاد مرملُ (47)

على أن بعض الشعراء قد وجد في جوع الذئب مجالاً للتباهي بالكرم، فاستضافه الفرزدق في قصيدتين من شعره، وأشركه في زاده معه، فقال في أولاهما (48) :

وليلة بتنا بالغريين ضافنا
على الزاد ممشوق الذراعين أطلسُ (49)

---

43) ديوانه : ص 41 ـ 60.
44) متضائل : نحيف. أطلس : أغبر. الخبب والتعسيل : ضربان من السير.
45) تقرب : دنا.
46) معول : من العويل.
47) مرمل : من نفذ زاده.
48) ديوانه : 287/1.
49) أطلس : أغبر.

تلمسنـــــا حتى أتـــانــــا ولم يـــزل

لـــــدن فطمتــــــه أمـــــه يتلمسُ

ولـــو أنـــــه إذ جـــاء كان دانيــــاً

لألبستــــــه لـــــو أنــــــه كان يلبسُ

ولكن تنحى جنبــــة بعــــدمــــا دنـــا

فكان كقيــــد الرمــح بــــل هـــو أنفسُ

فقـــــاسمتـــــه نصفين بيني وبينـــــه

بقيـــــــــة زادي والركايب نُعَّسُ (50)

وكان ابن ليــــل إذ قرى الـــــذئب زاده

على طــــارق الظلمــــاء لا يتعبّسَ (51)

وبقر ما نكبر صنيع الفرزدق وكرمه، فإننا نعطف على هذا الذئب الجائع، وقد بدا ذليلا خانعا كا أراد له الفرزدق، فضحى بجرأته المعهودة وعزته، حتى ينال لقمته، غير أن هذه الصورة تتبدل قليلا في قصيدته الأخرى التي يقول فيها (52) :

وأطلسَ عســـال ومــا كان صـــاحبــاً

دعــوت بنــاري مــوهنــاً فــأتـــاني (53)

فلمـــا دنـــا قلت ادن دونـــك إنني

وإيــــــــــاك في زادي لمشتركان

---

50) الركايب : الإبل.

51) يتعبس : يتجهم ويعبس.

52) ديوانه : 329/2 ـ 332.

53) عسال : مضطرب في مشيته. موهنا : ليلاً.

فبتّ أســـوي الـــزاد بيني وبينـــه
على ضـــوء نـــار مرّة ودخـــانِ
فقلت لـــه لمـــا تكشر ضـــاحكاً
وقـــائم سيفي من يـــدي بمكانِ
تعشّ فـــإن واثقتني لا تخـــونني
تكن مثـــل من يـــاذئب يصطحبـــان
وأنت امرؤ يـــاذئب والغـــدر كنتمـــا
أخيين كانـــا أرضعـــا بلبـــان
ولـــو غيرنـــا نبهتَ تلتمسُ القرى
أتـــاك بسهم أو شبـــاة سنـــانِ (54)
وكل رفيقي كلّ رحـــل وإن همـــا
تعـــاطى القنـــا قـــومـــاهمـــا أخـــوانِ (55)

وقد ظلت هـذه الصور المختلفـة للخيل والإبل والـذئـاب وغيرهـا من حيـوانـات البـاديـة وطيـورهـا مثـالا يحتـذى في أشعـار المحـدثين في العصر العباسي، وعرف هذا الفن تطوراً واسعاً كبيراً واكَبَ تطور الحيـاة الفكريـة والاجتماعية في هـذا العصر، فتعـددت أغراضـه، وتنوعت أسـاليبـه، وتعمقت مضامينه، وصار من أبرز فنون الشعر لدى المحـدثين، واختص بـه عـدد وافر من شعرائهم اللامعين.

---

54) شباة سنان : رأس رمح.

55) القنا : الرماح.

الطير والحيوان في أشعار المحدثين :

ومع تطور حركة الشعر في العصر العباسي، وظهور طبقة الشعراء المحدثين، أخذ الاهتمام بهذا الغرض الشعري يتحول عن مجراه التقليدي، إذ ثار بعض الشعراء على تقاليد القصيدة الموروثة، ومنهج الأغراض فيها، وكان وصف الراحلة أو الفرس من أهم أجزاء هذا المنهج، فدعوا إلى التحرر من قيوده الشكلية، بعد أن فقدت مصداقيتها في الواقع البيئي المعيش في المدن والحواضر، ولم تعد لهذه المظاهر آثار فيها، فسخروا منها سخرية لاذعة، وكانت لهم طرائق مشهورة منها قول أبي نواس (56) :

إليك أبا العباس من بين من مشى
عليها امتطينا الحضرمي الملسنا
قلائص لم تعرف حنيناً على طلاً
ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهنا

«فذكر أن قلائصهم التي احتطوها إليه نعالهم، فأخرجه - كما ترى - مخرج اللّغز، واتبعه أبو الطيب فقال (57) :

لا ناقتي تحمل الرديف ولا
بالسوط يوم الرهان أجهدها
شراكها كورها، ومشعرها
زمامها، والشسوع مقودها».

---

56) العمدة : 228/1.

57) ن.م : 228/1.

وكان لهذا التحول صداه في الصراع النقدي ما بين أتباع التقليد وأنصار التجديد في حركة الشعر، فقال ابن قتيبة : «وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار... ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب... ليستدعي به إصفاء الأسماع إليه... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقّب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء... بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة» (58).

ومع ما في هذا القول من تعليل نفسي بارع ودقيق لمنهج الأغراض في القصيدة التقليدية، إلا أنه يظل محصورا في نطاق قصيدة المديح التي استوحى منها ابن قتيبة أركان هذا المنهج وعناصره، ومقصوراً على الممدوح وحده، إذ أغفل فيه عواطف الشاعر وأحاسيسها التي يجد لها متنفساً عميقاً في هذه الأغراض، فيعبر من خلالها عن حبه لمعشوقته، وتعلقه بدياره، ووصفه لآثارها، ونعته لحيواناتها التي ارتبطت حياته بها، وكادت أن تكون مقصورة عليها.

ومع ذلك فإن ابن قتيبة قد أكد ضرورة التزام الشاعر بهذه الأقسام الشكلية التي استنبطها من نماذج محددة وقليلة فقال : «وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذاهب المتقدمين في هذه الأقسام» (59)، وقد سوغ له ذلك إعجابه بالقديم، ومحاولته الدائبة وربط المحدثين بعجلته تقليداً واحتذاء واتباعاً في المنهج والأغراض والأساليب.

58) الشعر والشعراء : 20/1.

59) ن.م : 21/1.

ويبدو أن ابن رشيق القيرواني كان أوسع أفقا، إذ ربط ما بين التغيّر البيئي زمانا ومكانا، والتغير في حركة الشعر منهجا وأسلوباً فقال : «وكانت دوابهم الإبل لكثرتها، وعدم غيرها، فلهذا خصوها بالذكر دون غيرها، ولم يكن أحدهم يرضى بالكذب فيصف ما ليس عنده، كما يفعل المحدثون» (60). ودعا إلى ضروة التلاؤم ما بين البيئة والشعر، والاستغناء عن وصف الناقة أو الفرس بغيرها من المظاهر البيئية الأخرى، وجعلها صالحة للابتداء أو الخروج، وضرب لذلك مثلا من بعض شعره، ومن ذلك قوله في بعض الملوك (60) :

إليك يخاض البحر فعما كأنه
بأمواجه جيش إلى البرّ زاحفُ
يطير اللغام الجعد عنها كأنه
من القطن أو ثلج الشتاء ندائفُ

ومهما يكن من أمر هذا التحول الشكلي، فقد ظل وصف الحيوان أو الطير غرضا من أغراض الشعر، سواء أكان من جملة أغراض القصيدة التقليدية في حدود منهجها المألوف، أم باعتباره غرضا مستقلا من أغراض الشعر، وظل الشعراء مغرمين بوصفها ونعتها، وقد ذكر أبو الطيب الخيل في كثير من شعره، وكان يؤثرها على الإبل، لما يقوم في نفسه من التهيب بذكر الخيل، وتعاطي الشجاعة، فقال يذكر قدومه إلى مصر على خوف من سيف الدولة (61) :

---

60) العمدة : 226/1.

61) ن.م : 229/1.

ويـوم كليـل العـاشقين كمنتـه
أراقب فيـه الشمس أيـان تغـربُ
وعيني إلى أذني أغرّ كأنـه
من الليـل بـاقٍ بين عينيـه كـوكبُ
ومـا الخيـل إلا كالصـديـق قليلـة
وإن كثـرت فـي عيـن مـن لا يجـرّبُ

ومهما يكن من أمر هذا الصراع النقـدي، أو الاهتمام التقليـدي بـالطير والحيوان، فقد أخذ هـذا الغرض الشعري بـالاستقلال في أشعـار المحـدثين، إذ وجدوا فيه مجـالاً آخر للتعبير عن بيئتهم الحضـاريـة تعبيراً جمـاليـاً وواقعيـاً محدداً ومختلفاً عن سابقه، فكانت لهم في ذلك بدائع وطرائف.

وصف الطير والحيوان في أشعار المحدثين :

وإذا ما تجـاوزنـا شعر الطرد والصيـد ومـا يشتمل عليـه من أوصـاف دقيقة، وصور حية ومتحركة للطير والحيوان، وقـد برّز فيـه عـدد كبير من الشعراء القدماء والمحدثين من أمثال النابغـة والشمردل وأبي نخيلـة وأبي نواس وابن المعتز وغيرهم، فإننـا نقع في أشعـار المحـدثين على قصـائـد كثيرة تتضمن وصفا للطير أو الحيوان على طريقة أسلافهم من الشعراء، ومن ذلك قصيـدة البحتري التي وصف فيها الذئب ومنها قوله (62) :

وليـل كأن الصبـح في أخريـاتـه
حشـاشـة نصـل ضم إفردنـه غمـدُ (63)

(62) ديوانه : 742/2 ـ 744.

(63) حشاشة نصل : بقية سيف. إفرنده : جوهره.

تسربلتــــه والــــذئب وسنــــان هـــاجـع

بعين ابن ليــل مــالـه بـالكرى عهـدُ (64)

طــــــــواه الطـــــــوى حتى استمر مريره

فمـــا فيـــه إلا العظم والروح والجلـــدُ (65)

يقضقض عُصـــــــلاً في أسرتهـــــــا الردى

كقضقضــــــة المقرور أرعـــــــده البردُ (66)

سما لي وبي من شـــدة الجـوع مـــا بـــه

ببيـــداء لم تحسس بهـــا عيشــة رغـــدُ (67)

كـــلانـــــا بهـــا ذئب يحـــدث نفســـه

بصـــاحبـــه والجـــد يتبعـــه الجـــدُّ

عـــوى ثم أقعى فـــارتجـــزت فهجتـــه

فـأقبـــل مثـــل البرق يتبعـــه الرعـــدُ (68)

فـــأوجرتـــه خرقـــاء تحسب ريشهـــا

على كـــوكب ينقضّ والليـــل مســـودُّ (69)

فـــأتبعتهـــا أُخرى فـــأضللت نصلهـــا

بحيث يكـــون اللّب والرعب والحقـــــدُ

---

64) ابن ليل : لص.

65) الطوي : الجوع. استمر مريره : نحل وهزل.

66) يقضقض عصلاً : يصوت بأسنان صلبة.

67) سما لي : ظهر لي.

68) اقعى : جلس على مؤخره.

69) أوجرته خرقاء : طعنته بسهم كالريح.

فخرّ وقـــد أوردتـــه منهـــل الردى
على ظمأ لـــو أنـــه عـــذب الـــوردُ

وكـذلـك كان مصيره في قصيـدة الشريف الرضي، إذ طرقـه وصحبـه ذئب كالليـل صـاحبـه، وقـد خرج فيـه يتلمس طعـامـه، فصـار طعمـة لغيره : (70).

وغـــاري الشـــوى والمنكبين من الطـــوى
أتيـح لـه بـالليـل عـاري الأشـاجـع (71)
أغيبر مقطـــوع من الليـــل ثـــوبـــه
أنيس بـــأطراف البـــلاد البـــلاقـــع (72)
قليـــل انعـــاس العين إلا غيـــابـــة
تمرُّ بعيني جـــاثم القلب جـــائـــع
إذا فـــات شيء سمعـــه دلّ أنفـــه
وإن فـــات عينيـــه رأى بـــالمســـامـــع
لـــه الـــويـــلُ من مستطعمٍ عـــاد طعمـــة
لقـــوم عجـــال بـــالقسي النـــوازعِ (73)

ولم تكن صـورة الأسـد في قصيـدة المتنبي بعيـدة عن هـذه اللـوحـات الفنية البديعة، وفيها يقول مصوراً لقاءه مع بدر بن عمار، ومنـازلتـه إيـاه،

---

(70) ديوانه : ص 661 ـ 662.
(71) الشوى : جلد الرأس وغيره. الأشاجع : الأصابع كناية عن القوة.
(72) البلاقع : القفر.
(73) النوازع : من نزع القوس : سدده ورمى به.

تصويراً ناطقا بالحركـة والحيـاة، دون أن يخلو من عبرة أو حكمـة على سنـة المتنبي في شعره (74) :

أمحضر الليث الهــــزبر بســــوطـــــه
لمن ادخرت الصــــــارم المصقــــولا

وَرْدٌ إذا وَرَدَ البحيرة شـــــاربـــــاً
وَرَدَ الفرات زئيره والنيـــــــــــــلا

مـــا قـــوبلت عينـــاه إلا ظُنتـــا
تحت الــدجى نـــار الفريـــق حلــولا

في وحـــــدة الرهبــــان إلا أنـــــه
لا يعرف التحريم والتحليـــــــــــلا

يطـــــأ الثرى مترفقـــــاً من تيهــــه
فكأنـــــــه أسٍ يجسّ عليــــــــلا

مــــازال يجمـــع نفســــه في زوره
حتى حسبت العرض منـــــه الطـــولا

ويــــدقّ بـــالصــــدر الحجـــار كأنـــه
يبغي إلى مــــا في الحضيض سبيــــلا

وكأنــــه غرّتــــه عين فــــادّن
لايبصر الخطب الجليـــــل جليــــلا

أنفُ الكريم من الــــدنيئـــة تـــاركٌ
في عينـــه العــــدد الكثير قليــــلا

74) ديوانه 145 (دار صادر).

والعـــــارُ مضـــــاض وليس بخـــــائف
من حتفـــــه مَنْ خـــاف ممـــــا قيـــلا

ومن الملاحـظ أن هـذه الأشعـار التي تختص بـالطير والحيـوان ذات وحدة موضوعية وفنية متلاحمة، ربمـا يعود سببهـا إلى حـاجـة الشـاعر فيهـا للتعبير عن الموقف أو الصورة تعبيراً فنياً متكاملاً، يتتبع فيه كافة تفاصيلهـا وأبعادها، ويلملم أطرافها، فلا يتركها إلا وقد اكتملت بين يـديـه، فـإن عـاد إليها فإنما يعود إلى لوحه قد تمّ خلقها، ولا مجال فيها للزيـادة أو النقصـان، إن هي إلا ألوان قد يلونها بها، أو ظلال قد يضفيها على أطرافها.

ومن أبرز الشعراء الذين أبدعوا في وصف الطير والحيوان والهوام شعراً ونثراً ابن شهيد الأندلسي أبي عامر أحمد بن عبد الملك، (426 هـ) ومما يروى له في ذلك قوله في صفة النحلة (75) :

وطـــــائرة تهـــوي كأن جنـــــاحهـــــا
ضمير خفيّ لا يحـــــــــــــدده وهمُ
مـــــلازمـــــة للروض حتى كأنهـــــا
لهـــــا كل مـــــا تفتر عنـــــه الربى طعمُ
منـــــافرة لـــلأنس تـــــأنس بـــــالفـــلا
مفرّقـــــة للشهـــــد، من بعضهـــــا سمٌّ
تمـجّ بفيهـــــا الشهـــــد صرفـــــا ويختفي
لمشتـــــاره مـــــا بين أحشـــائهـــــا سهمُ

---

75) ديوانه : ص 150 والذخيرة : 219/1/1.

فـإدنـاؤهـا رُشـدٌ، وهتـك حجـابهـا
إذا احتجبت في غير أيـامهـا ظلم

وقال في صفة الذئب في التوابع والزوابع (76) :

إذا اجتـاز علـوي الريـاح بـأفقـه
أجـدّ لعرفـان الصبـا يتنفسُ
تـذكر روضـاً ذا شـويّ وبـاقر
تـولتـه أحراس من الـذعر تحرسُ
إذا انتـابهـا من أذؤب القفر طـارق
حثيث إذا مـا استشعر اللحـظ يهمسُ
أزلٌ كسـا جثمانـه متستراً
طيـالس سـوداً للـدجى وهـو أُطلسُ
فـدلّ عليـه لحـظ خِبِّ مخـادع
ترى نـاره من مـاء عينيـه تقبسُ

ويبدو أنه قد أولع بوصف الذئب، ووجد فيه مجالاً واسعاً للتجويد والإبداع قد يضيق عنهما ميدان الشعر فقال في وصفه نثراً وصفاً دقيقاً وعميق الدلالات :

«هو أدهى من عمرو، وأفتك من قاتل حذيفة بن بدر، كثير الوقائع في المسلمين، مُغرى بإراقة دماء المؤذنين، إذا رأى فرصة انتهزها، وإذا طلبته الكماة أعجزها، وهو مع ذلك بقراط في إدامه، وجالينوس في اعتدال طعامه، غذاؤه حمام أو دجاج، وعشاؤه تدرُج أو دُرّاج» (77).

(76) ن.م : ص 119. والذخيرة : 277/1/1 وانظر ديوانه : ص 135 يصف الفرس في بيتين.
(77) الذخيرة : 275/1/1.

وله في وصف البرغوث وهجائه أشعار أخرى، تدخل في باب هجاء الطير والحيوان والهوام والشكوى منها، وقد كانت لغيره قصائد طريفة في هذا الباب.

وقد عرف عن بعض المغاربة والأندلسيين من الشعراء عنايتهم الشديدة بوصف الأنواع الغريبة من الحيوان، ومن ذلك ما رواه صاحب العمدة من شعر أستاذه عبد الكريم النهشلي في وصف الفيل من قصيدة له (78) :

وأضخم هنـــديّ النجـــار تُعِـــدّه
ملـوك بني ســـاســـان إن رابهـــا أمرُ
يجيء كطـود جـــائـــل فـوق أربـــع
مُضبّـرة لمت كمـــــــا لمت الصخـرُ

ووصف ابن رشيق الزرافة التي أهديت إلى ملك المغرب من مصر فقال (79) :

وأتتـــك من كسْب الملـــوك زرافـــة
شتى الصفـــات لكـــونهـــا أثنـــاءُ
جمعت محـــاسن مـــا حكت فتنـــاسبت
في خلقهـــا وتنـــافت الأعضـــاءُ
تحتثهـــا بين الخـــوافـــق مشيـــة
بـــادٍ عليهـــا الكِبْر والخيـــلاءُ

78) العمدة : 297/2.

79) العمدة : 297/2 ـ 298.

وتمــــدّ جيــــداً في الهــواء يـــزينهــــا
فكأنــــــه تحت اللـــــواء لـــــواءُ
وتحيّرت دون المـــــــلابس حُلّــــــة
عيّت لصنعـــــة مثلهـــــا صنعـــــاءُ

ويبدو أن للزرافة حظ وافر لدى ملوك المغرب في تلك الأيام، فحملها رسول ملك السودان إلى سلطان بني مرين على أيام ابن خلدون (808 هـ)، فعرضها على الناس في جمع مشهود، وأطنب الشعراء في وصفها، وقال ابن خلدون في ذلك قصيدة طويلة ضمنها وصفها، ومنها قوله (80) :

ورقميّـــــة الأعطـــــاف حـــــاليـــــة
مـــوشيـــــة بـــوشـــــائـــج البردِ
وحشيـــــة الأنســـــاب مـــــا أنست
في مـــوحش البيـــــداء بـــــالقـــودِ
تسمـــو بجيـــــد بـــــالـــغ صعـــداً
شرفَ الصُّروح بغير مـــــا جهــــدِ
تخـــــذي على استصعـــــابهـــــا ذلـــلاً
وتبيت طـــــــوع القن والقــــــدِّ

على أن علاقة الشعراء بهذه المخلوقات لم تكن مقصورة على جانب الوصف أو المديح فحسب، وإنما تجاوزت ذلك إلى الهجاء والشكوى والرثاء، مما يبرز طبيعة هذه العلاقة الإنسانية بصورة أوضح وأعمق، وللشعراء في ذلك طرائف بديعة.

---

80) الإحاطة في أخبار غرناطة : 512/3 ونفح الطيب : 185/6 والاستقصا 35/4 وبينهما شيء من الاختلاف في الرواية، وهي قصيدة طويلة.

هجاء الطير والحيوان والهوام :

وكما مدح الشعراء هذه المخلوقات ونعتوها بنعوت بديعة، فقد اشتكوا من أذاها، وهجوها بقصائد وأشعار ذات نمط عزيب وفريد، ومن ذلك قصيدة الشاعر العباسي محمد بن يسير الرياشي في هجاء شاة ابن منيع، وكان ابن يسير «شاعراً ظريفا من شعراء المحدثين، متقلل لم يفارق البصرة، ولا وفد إلى خليفة ولا شريف منتجعاً، ولا تجاوز بلده، وصحبته طبقته، وكان ماجناً هجاء خبيثاً» (81) ولم يقتصر شعره في الهجاء على أقرانه من بني الإنسان فتعداه إلى الحيوان والطير.

ومما يروى من خبره مع شاة ابن منيع البقال جاره أنه «كان له في داره بستان... فأفلتت شاة لجار له يقال له ابن منيع، فأكلت البقل، ومضغت الخوص، ودخلت إلى بيته فلم تجد فيه إلا القراطيس، فيها شعره، وأشياء من سماعاته، فأكلتها وخرجت، فعدا إلى الجيران في المسجد يشكو ما جرى عليه، وعاد فزرع البستان، وقال يهجو شاة منيع (82) :

لي بستـــــــــــانٌ أنيــــــــــق زاهر
نــــــاضر الخضرة ريّـــــــان ترفْ (83)
مشرق الأنـــــوار ميّـــــــاد النـــــــدى
منثن في كل ريـــــــــــــح منعطفْ (84)

---

81) الأغاني : 17/14.
82) ن.م : 20/14 ـ 26.
83) ناضر : شديد الخضرة.
84) الأنوار : الزهر.

اعفـــــه يــــــارب من واحـــــدة
ثم لا أحفـــــل أنـــــواع التلفْ (85)
اكفــــه شــــاة منيــع وحــــدهـــا
يــــوم لا يصبــــح في البيت علَفْ
اكفــــه ذات سعـــــال شهلـــــة
متّعت في شرّ عيش بــــــــالخَرَفْ (86)
وكلــــــوح أبــــــــداً مفترّة
لـــــك عن هُتْمٍ كليــــلات رُجُفْ (87)
ونــــــؤسَ الأنف لا يرقـــــا ولا
أبـــــــــداً تبصره إلا يكفْ (88)
في يـــــديهــــا طرقٌ، مشيتُهــــا
حلقـــةُ القــوس، وفي الرجــل حنفْ (89)
فـــإذا مــــا سعلت واحــــدَوْدَبَتْ
جـــاوَبَ البعرُ عليهــــا فخَصفْ (90)
وإذا تـــــدنـــــو إلى مُستعسب
عـــافَهــا نتنـــاً إذا مـــا هُــوْ كرَفْ (91)

---

85) لا أحفل : لا أبالي.

86) الشهلة : العجوز. الخرف : التمر الرديء.

87) كلوح : كالحة نافرة الأسنان. هتم : اسنان مكسرة. رجف : مضطربة.

88) نئوس : من ناس أي سال. لا يرقا : لا يجف. يكف : يسيل.

89) طرق : ضعف واعوجاج. حلقة القوس : معوجة. حنف : اعوجاج.

90) خصف : لصق بجسمها.

91) مستعسب : هائج كرف : شم.

لاترى تيســـــاً عليهـــــا مُقـــــدمـــــاً
رُميت من كل تيس بـــــــــــالصلف (92)

شـــوهـــــة الخلقـــــة مـــــا أبصرهـــــا
من جميـــــع النـــــــاس إلا وحلفْ :

مـــــا رأى شـــــاة ولا يعلمهـــــا
خلقت خلقتهـــــــــــــــــا فيما سلفْ

عجبـــــاً منهـــــا ومن تـــــأليفهـــــا
عجبـــــاً من خلقهـــــا كيف ائتلفْ

لـــو ينـــــادون عليهـــــا عجبـــــاً
كسبـــوا منهـــــا فلـــوســـــاً ورغفْ

وبعد أن أتى على رميها بهذه النعوت المخزية والمخجلة، تمنى لو أنها قد وقعت بين يدي جماعة من القوم تلقى لديهم حتفها بشفرة حادة أو سكين.

ليتهـــــا قـــــد أفلتتْ في جفنـــــةٍ
من عجين ودقيـــــــــــقٍ مُجترف (93)

فتلقتْ شفرة من أهلـــــــــــــــه
قـــدر الأصبـــع شيئـــــاً أو أشف (94)

فإذا عدم مثل هذا المصير دعا عليها بالمرض والداء العيـاد، فلا يكون لها بعده شفاء :

---

92) صلف : كبر.

93) الجفنة : القصعة.

94) أشف : أدق.

أو رمتهـــــا قرحـــــة زادت لهـــــا
ذوبـــــانـــــا كلّ يـــــوم ونحفْ
كل يـــوم فيـــه يـــدنـــو يـــومهـــا
أو تُرى واردة حـــــوض الـــــدَّنفْ

وتأمل بعد ذلك مصيرها ومآلها، وقد لاقت عقابها على ما اقترفت من إثم :

وغـــــدا الصبيـــــةُ من جيرانهـــــا
ليجرّوهـــــا إلى مـــــأوى الجيفْ
فتراهـــــا بينهم مسحـــــوبـــــة
تجرف الترب بجنب منحرفْ
فـــإذا صـــاروا إلى المـــأوى بهـــا
أعملـــوا الآجر فيهـــا والخـــزفْ
ثم قـــالـــو : ذا جـــزاءٌ للتي
تـــأكلُ البستـــان منـــا والصحفْ
لاتلـــومـــوني فلـــو أبصرت ذا
كلـــه فيهـــا إذن لم أنتصفْ

وهي قصيدة طويلة، بلغت عدّة أبياتها واحداً وخمسين بيتاً من الشعر، أوردها صاحب الأغاني كاملة، فكانت أطول ما رواه من قصائد الشعراء في الأغاني كله.

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى يذكر فيها صنيع تلك الشاة اللعينة بكراريسه وأشعاره، ويعزّى الأدباء والشعراء بما قد يعوضهم عن سوء حالهم،

إذ وجد لكتبهم ودواوينهم سوقا تنفق فيها هي سوق البهائم فقال (95) :

قـــل لبنـــــاة الآداب مـــــا صنعت
منهـــا إليكم فـــلا تُضيعـــوهـــــا
وضمّنــوهـــا صحف الـــدفـــاتر بـــال
ـحبر وحسن الخطــوط أوْعُــوهـــا (96)
فـــــإن عجـــــزتم، ولم يكن علفٌ
تسيفـــه عنــــدكم، فبيعــوهـــا

وله في الدعاء على الحمام قصيدة طويلة أُخرى، روى لنا الأصبهاني فيها خمسة وثلاثين بيتا، وليست تقل طرافة عن سابقتها، ومن خبره فيها «أنه طلب من ابن أبي عمر والمديني فراخاً من الحمام الهُدّاء، فوعده أن يأخذها له من المثنى بن زهير، ثم نوّر عليه، وأعطاه فراخاً غير منسوبة، وأخذ المنسوبة لنفسه فقال : (97).

يـــــاربّ ربّ الرائحين عشيـــــة
بـــــالقـــــوم بين منى وبين شبير (98)
ابعث على طير المـــــديني الـــــذي
قـــال المُحـــال وجـــاءني بغرور (99)

---

95) الأغاني : 30/14.
96) أوعوها : من أوعى الشيء إذا جمعه في وعاء.
97) الأغاني : 34/14 ـ 39.
98) ثبير : جبل بمكة.
99) أي أبعث عليها ما يهلكها.

ابعث على عجـــل إليهـــــا بعـــــدمـــــا

يـــــأخـــــذن زينتهن في التحسير (100)

مـــع كل ريـــح تغتــــدي بهـــوبهــــا

في الجـــو بين شـــواهن وصقــــور (101)

يـــــأتي لهنّ ميــــامنـــــاً وميـــــاسراً

صكاً بكلّ مُـــــزلّـــــق ممكـــــورِ (102)

لم ينـــج منـــه شريـــدهن فـــإن نجـــا

شيء فصـــار بجـــانبـــات الـــدور (103)

حتى تراه مـــزمّـــلاً بـــــدمـــــائـــــه

فكأنــــــــه متضمّـــــــح بعبير (104)

فيظـــــل يـــــومُهم بعيش نـــــاصب

نَصَب المراجـــل مُعجلي التنـــوير (105)

ويثـــــوب نـــــــاجيهن بين مضرّج

بـــــدمٍ، ومخلـــوب، إلى منســـور (106)

عجّـــل عليـــه بمـــا دعـــوت لـــه بـــه

أره بـــــذاك عقـــوبـــــة التنـــوير

---

100) التحسير : سقوط ريش الطائر وخروجه من العتيق إلى الحديث.

101) الشاهين : من سباع الطير.

102) صكه : ضربه بقوة. مزلق : منقار أو مخلب حاد. ممكور : أحمر.

103) جانبات الدور : الدور الغريبة.

104) زمله : لفه.

105) يظل يومهم : أي يظلون في يومهم. ناصب : فيه كد وجهد. المراجل : القدور. التنوير : إيقاد النار لطبخها.

106) مضرج : ملطخ. مخلوب ومنسور : منتف ومقطع بالمنسر والمخلب.

حتى يقــول جميــعٌ من هــو شــــامتٌ :

هـــــذي إجـــابـــةُ دعــوةِ ابن يسير

ومما يلحق بهذا الباب أيضا ما قـالتـه الشعراء في شكوى الطير أو الحيوان أو الهوام، ولهم في ذلـك أشعـار كثيرة، لا تخلو من جـدة أو دقـة أو براعـة، ومنهـا قـول أبي محمـد القـاسم بن يـوسف الشـاعر العبـاسي في هجـاء البـق والبراغيث والبعوض (107) :

قــــــد منينـــــــا بهنـــــــات
هنَّ من شرِّ الهنـــــــــــــــــــــــاتِ

نــــــــــــــــافرات آمرات
قلقـــــــــــات مقلقـــــــــــــاتِ

ســـــــافكات لـــــــدمـــــــاء الـ
ـــنـــــاسِ منهـــــا شـــــارِبَــــاتِ

طعنهـــــــــــا أنفـــــــــــذ في الـ
ـــــــأبـــــــدان من طعن الكمـــــاةِ

كم لهـــــــــــــــــا في الجسم من
آثـــــار ســــوء فــــاحشـــــاتِ

وكلـــــــوم مـــــــؤلمـــــــات
ونـــــــدوب قرحـــــــــاتِ

وهي قصيدة طويلة، روى الصولي منها أربعة وعشرين بيتاً، كما روى له قصيدة أخرى في هجاء النمل والفأر وغيرها من الهوام والدواب والحشرات في أربعة وثلاثين بيتاً منها قوله (108) :

---

107) أخبار الشعراء المحدثين : ص 171 ـ 172.

108) ن.م : ص 175 ـ 176.

خراب الـــــدور عـــــامرهــــا

فـــواقهــــا وطــــائرهــــا

لنــــا جــــارات ســـوء مـــؤ

ذيـــاتٌ من يجــــاورهــــا

حــــــوارث غير زارعــــــة

إذا انتشرت عســــاكرهــــا

دقيقــــات قـــوائمهــــا

لطيفــــات خـــواصرهــــا

وجــــارات لنــــا أخر

عفــــايفهــــا عـــواهرُهـــا

فقيــــرات وقيــــرات

فـــلا ســـدّت مفـــاقرهــــا

فـــويسقـــة وســـارقـــة

ونـــاقبـــة تـــوازرهــــا

وفي الجــــارات حيـــات

تســـاور من يســـاورهــــا

كبســـط الحبـــل بسطتهـــا

ودور الترس دائرهـــــــــــا

وفيهـــا من خشــــاش الأر

ض مـــؤذيهـــا وضــــائرهـــا

فـــأمـــا الطير إن وصفت

فـــأخبثهـــا عصـــافرهـــا

كأن معـــاول الحـــدّ
ادِ تـــوعيهـــا منـــاقرُهـــا
إذا قرعت بـــه سقفـــاً
تبـــوأ فيـــه واكرهـــا
فقـــد خربت عـــوامرهـــا
وقـــد فتحت منـــاظرهـــا

وممن اشتهر بـالطير والحيـوان من شعراء العصر العبـاسي أبـو الفرج الأصبهـاني، صـاحب الأغـاني «وكان شـاعراً محسنـاً» (109) ولـه شعر يجمـع إتقـان العلمـاء وإحسـان ظرفـاء الشعراء» (110)، «وشعره كثير ومحـاسنـه شهيرة» (111) وقد وصلت إلينا قطع متفرقـة من شعره، لعل أهمهـا أشعـاره في الطير والحيوان إذ أبدع في وصفهـا وتصويرهـا، وأجـاد في رثـائهـا، وممـا قاله في شكوى الفأر ووصف الفأر، وكتب به إلى الوزير المهلبي (112) :

يـــا لحـــدب الظهـــور قمص الرقـــاب
لـــدقـــاق الأنيـــاب والأذنـــاب
خلقت للفســـاد مـــنذ خلـــق الخـ
ـلـــق، وللعيث والأذى والخراب
نـــاقبـــات في الأرض والسقف والحيـ
ـطـــان نقبـــاً أعيـــا على النقـــاب

---

109) تاريخ بغداد : 398/11.

110) يتيمة الدهر : 96/3.

111) وفيات الأعيان : 309/3.

112) معجم الأدباء : 105/13 والسبالان : الشاربان. قرطوه وشنفوه : ألبسوه الأقراط.

آكـــــلات كل المـــــــآكل لا تـــــــأ
منَّهـــــا، شــــاربــــات كل الشراب
آلفـــــات قرض الثيـــــاب وقـــــد يعـ
ـــــــدل قرض القلـــوب قرض الثيــــاب

وانتقل من ذلك إلى مدح الهر ـ عدو الفأر اللدود ـ وقد خلصه منها فقال :

زال همي منهن أزرق تركيـ
ـيُّ السَّبـــــــــالين أنمر الجلبــــــــاب
ليث غـــاب خلقـــاً وخلقـــاً فمن لا
حَ لعينيـــــه خــــالـــــه ليث غــــاب
نــــاصب طرفـــــه إزاء الـــزوايـــــا
وإزاء السقـــــــوف والأبـــــــــواب
ينتضي الظفر حين يطفر للصيـــ
ـــــــــــــــــد وإلا فظفره في قراب
قرّطـــــــوه وشنفـــــــوه وحلّـــــــو
ه أخيراً وأولاً بـــــــــالخضــــــــاب
فهــــــو طـــــــوراً يمشي بحلي عروس
وهــــو طـــوراً يخطـــو على عنــــاب

ولأبي الفرج قصيدة طويلة رائعة في رثـاء ديـك سنـأتي على ذكرهـا بعد قليل، أثناء حديثنا عن مراثي الطير والحيوان في الشعر العربي.

مراثي الطير والحيوان :

وقد عبر الشعراء من خلال هذه المراثي عن مشاعرهم الصافية تجاه هذه المخلوقات الوديعة بعد موتها، وما يخلفه فقدها من حزن عميق، وأسى بالغ في نفس الشاعر، ولدى أهل بيته وجيرانه، وكانت قصائدهم في ذلك ذات سمات خاصة، قد تتفوق فيها على مراثي بني الإنسان.

ومن أوائل الأشعار التي تصادفنا في هذا الباب أرجوزه لأبي نواس في رثاء كلبه خلاب، بعد أن مات بلسعة حيّة فقال في رثائه (113) :

يـــا بــؤس كلبي سيّـــد الكــلاب
قـــد كان أغنـــاني عن العُقـــاب
يـــا عين جـــودي لي على خـــلاّب
من للظبـــاء العفر والـــذئـــاب
خرجت والـــدنيـــا إلى تبـــاب
بـــه وكان عـــدتي ونـــابي
فبينمـــا نحن بـــه في الغـــاب
إذ برزت كالحـــة الأنيـــاب
رقشـــاء جرداء من الثيـــاب
لم ترع لي حقـــاً ولم تحـــابي
فخرّ وانصـــاعت بـــلا ارتيـــاب
كأنمـــا تنفـــخ من جراب
لا أُبتَ إن أبت بـــلا عقـــاب
حتى تـــذوقي أوجـــع العـــذاب

---

113) ديوانه : ص 620.

وهي إحدى طردياته الكثيرة، ولم تبلغ ما بلغته مراثي بعض معاصريه ممن برع في هذا الفن، وكانت له بدائع كثيرة فيه، تدل أبياتها على صدق وأسى عميق، وقدرة فنية فائقة، كما هو الشأن في مراثي القاسم بن يوسف «وكان قد جعل وكده في مدح البهائم ومراثيها، فاستغرق أكثر شعره في ذلك» (114) وقد روى له الصولي عدة قصائد طويلة في رثائها وقال : «وهو أشعر في فنه الذي أعجبه من مراثي البهائم من جميع المحدثين، حتى إنه لرأس فيه، متقدّم جميع من نحاه، وما ينبغي أن يسقط شيء من شعره، لأنه كله مختار، وللناس فيه فائدة، ولا يوجد مجموعاً، وأنا أذكره على القوافي» (115). وبدأ هذه المراثي بقصيدته التي يرثي فيها عنزا سوداء، ومنها قوله (116) :

يا عين بكّي لعنزنا السوداء
كالعروس الأدماء يوم الجلاءِ

ذات لون كالعنبر الورد قد عـ
ـلّ بما فاق لون الطلاءِ

أذن سبطة وخد أسيل
وابتسام عن واضحات نقاءِ

أين لا أين مثلها مصطفاة
من صفايا الملوك والوزراءِ

أصبحت في الثرى رهينة رمسٍ
وثناها حي لدى الأحياءِ

(114) الأغاني 118/23.

(115) أخبار الشعراء المحدثين : ص 164 ـ وانظر الأغاني 118/23.

(116) ن.م : ص 164 ـ 166. وفي الأغاني 118/23 البيت الأول منها.

كيف لي بـــــالعـــزاء لا كيف عنهـــــا

سلبتني الســـــوداء حسن العـــــزاءِ

كيف يرجـــــو البقـــــاء سكان دار

خلـــق اللـــــه أهلهـــــا للفنـــــاءِ

وهي قصيدة طويلة، بلغت عدة أبيـاتها سبعـة وأربعين بيتـاً، فكانت بذلك أطول من قصيدتـه في رثـاء العمري، إذ بلغت أبيـاتها تسعـة وثلاثين بيتـاً، وإن كانت هـذه القصيـدة تفوقها في حرارة العـاطفـة، وقوة التـأثير، ومنها قوله (117) :

هـــــــل لا مريء من أمـــــــانِ

من ريب هـــــذا الـــزمـــــانِ

أم هـــــل ترى نـــــاجيـــــاً

من طـــــارق الحـــــدثـــــانِ

مـــــا اثنـــــان يجتمعـــــانِ

إلا سيفترقـــــــــــــــان

كان المطـــــوَّقُ خِـــــدنـــــاً

من أكرم الأخـــــــــــدانِ

وصـــــاحبـــــاً وخليـــــلاً

من خـــــالص الخـــــلانِ

وكان طلقـــــاً ضحـــــوكاً

يجيـــــبُ كـــــل أوان

(117) ن.م : ص 193 ـ 195. وفي الأغاني 119/23 البيت الأول منها.

فغـــــالــــــه حـــــادث من

حـــــوادث الأزمـــــــــانِ

فـــــالقلب فيـــــه كلـــوم

من لاعــــــج الأحـــــــزانِ

وفي الحشـــــا لاذعـــــات

كمشعـــــــــــــل النيران

والمقلتـــــــان سجـــــــوم

دمعـــــاهمـــــا تكفـــــان

وذي سفـــــــاه لحـــــــاني

لم يعنـــــه مـــــا عنـــــاني

يلـــــومني وهـــــو خلـــــوٌ

لم يشجـــــه مـــــا شجـــــاني

رددْتُـــــــــة بصغـــــــار

وذلـــــــــة وهـــــــوان

هيهـــــات مـــــالـــــك ثـــــان

مقـــــارب أو مـــــــــداني

فـــــاذهب حميـــــداً فقيـــــداً

فمـــــا خـــــلا اللـــــه فـــــاني

وقد كان هذا الشاعر مرزءاً حقاً، إذ غاله الدهر بأحب الخلائق إليـه، فقصني أخوه الوزير أحمد بن يوسف وزير المأمون، ومات عدد من أبنـائـه، ولم يُبق له على ما كان يؤنس وحدته من الطير والحيوان، حتى فرخ دجـاج

صغير لم يكد يشب عن الطوق، فأرداه الردى صريعا قبل أن يبيض، فرثاه رثاء مؤثراً وحكيماً بقصيدة طويلة يقول فيها (118) :

أوحشت منـــــــك أبـــــا
سعـــــــد عراصٌ وديـــــــارُ

فجعتنـــــا بـــــك أقـ
ـــــدار لهـــا فينـــا الخيـــارُ

عثر الـــــــدهر بنـــــا
فيــــك وللــــدهر عثـــارُ

وتـــولت بـــــك أيـــا
م من العيش قصـــــــــارُ

وبكى يـــــومـــــك أهـ
ـــلـــون وجـــارات وجـــارُ

يـــا أبـــا سعـــد فـــلا
تبعـــد وإن شـــطّ المـــزارُ

وسقت حفرتـــــــــك الـ
ـغيث وجـــادتهـــا القطـــارُ

إنمـــا الـــدنيـــا متـــاع
وإلى اللــــه المجــــــارُ

كم رأينـــــــــا عبراً
فيهـــا لـــذي اللب اعتبـــارُ

118) ن.م : ص 176 ـ 178. وفي الأغاني 118/23 البيت الأول منها.

وله في رثاء هرة قصيدة طريفة يقول فيها (119) :

ألا قـــل لمخـــة أومـــارده
تعـــزوا عن الهرة الصـــائـــدهْ
وإن رحلت عنكم نعمـــة
ففي غـــدكم نعمـــة وافـــدهْ
يقـــولـــون كانت لنـــا هرّة
مربيـــة عنـــدنـــا تـــالـــدهْ
وكنـــا بصحبتهـــا حـــامـــدِيـ
ـــن وكانت بصحبتنـــا تـــالـــدهْ
فعن لهـــا عـــارض للردى
فـــأحست بتربتهـــا هـــامـــدهْ
وأصبحت الفـــأر في دورنـــا
أوامن صـــادرة واردهْ

ولعل مما لا يخفى ما في هـذه المراثي من كنـايـة أو تعريض، وحكمـة وعبرة، وقد استغنى هذا الشاعر بمدح هذه المخلوقات ورثائهـا عن غيرهـا من السادة من بني الإنسان، ولعلـه وجـد فيهـا مـالم يجـد فيهم من رقـة وطيب معشر ووفاء، وإن كانت له قصائد رائقة في الزهد والرثاء أيضاً (120).

ومما قيل في رثـاء الحيوان قصيـدة لأبي الحسن علي بن محمـد التهـامي (ـ 416 هـ) يرثي فيها قطأ له، سقط في بئر فمات فقال في رثائه (121) :

---

119) ن.م : ص 172 ـ 173. وفي الأغاني 118/23 البيت الأول منها، مع اختلاف في روايته.

120) ن.م : ص 201 وما بعدها.

121) رحلات حمد الجاسر.: ص 235 ـ 236. عن نسخة ديوانه الخطية.

ولمــا طـواك البين واجتــاحــك الردى
بكينـاك مـا لم نبـك يـومـاً على قـطِ
ولـــو كنت أدري أن بئراً تفــولني
بثـواك فيهـا لاحتبستـك بـالربـطِ
ولكن أيـدي الحـادثـات بمرصـد
إذا أرسلت سهم المنيــة لم تخـطِ
فهـل نـافعي أني رثيتـك بعـدمـا
رأيتـك تـوفي لي وتحكم بـالقسـطِ
فمـا أنت إلا مثـل حظي الـذي نـأى
وتصحيفـه بـاق يصـوّر في الخـطّ

على أن أجود ما قيل في رثاء الطير والحيوان من أشعـار، قصيـدة أبي الفرج الأصبهاني التي رثى فيها ديكاً له يدعوه أبا النذير وهي «من جيد مـا قيل في مراثي الحيوان، ومن مختار الشعر.. عـذبـة الألفـاظ بـديعـة المعـاني، مطردة الأجزاء، منسقة القوافي» (122) كما قال ابن شاكر الكتبي في تصـديره لها، وقد نقلها إلينا كاملة على طولها، ومنها قوله (123) :

خطب طرقت بـــه أمرّ طروق
فـظّ الحلـول عليّ غير شفيـقِ
فكأنمـا نـوب الـزمـان محيطـة
بي راصـدات لي بكل طريـق

122) أبو الفرج الأصبهاني للأصمعي : ص 149. عن عيون التواريخ نسخة خطية.
123) ن.م : ص 149 ـ 152. وانظر مقدمة الأغاني (ط دار الكتب) 26/1 ـ 28.

ذهبت بكل مصـــــاحب ومنـــــاسب

ومـــوافـــق ومرافـــق وصـــــديـــق

حتى بـــــديـــــك كنت آلف قربـــه

حسنٍ إليّ من الـــــديـــوك رشيـــقِ

لهفي عليـــك أبـــا النـــذير لـو أنـــه

دَفَـعَ المنـــايـــا عنـــك لهف شفيـــقِ

أبكي إذا أبصرت ربعـــك مـــوحشـــاً

بتحنن وتـــــأسف وشهيـــــقِ

ويـــزيـــدني جـــزعـــاً لفقـــدك صـــادح

في منزل دان إليّ لصيـــــــــــقِ

صبراً لفقـــــدك لا قلى لـــــك بـــل كما

صبرَ الأسيرُ لشـــــــدّة ومضيـــــقِ

لا تبعـــــدنَ وإن نـــأت بـــك نيّـــة

في منزلٍ نـــــائي المحـــل سحيـــق

وهي طويلة ومؤثرة، وفيها أوصاف بديعة، ومعـان لطيفـة، ومشـاعر رقيقة، وألوان زاهيـة، وحكم بليغـة قلما نجـد لهـا نظيرا في غيرهـا من مراثي الإنسان أو الحيوان.

وإذا ما طوينا هذه الصفحـة المشرقـة من ديوان العرب، ولم نـأت إلا على بعض سطورها، وحاولنا البحث عن الدوافع الكامنة وراء هـذا الاتجـاه الفنى الفريد في عالم الشعر، وسبب اختصـاص بعض الشعراء بـه، وإجـادتهم القول فيه دون غيره من أغراض الشعر المعروفة الأخرى، فـإن بـإمكاننـا أن

نعزو ذلك إلى جملة من الأسباب والدوافع، يرتبط أولها بما فطر الله الإنسان عليه من عواطف ومشاعر غير مقصورة على بني جنسه، وإنما تتعداهم إلى غيرهم من المخلوقات فتقوم بينه وبينها علائق المحبة والألفة، وتوثقها طبائع هذه المخلوقات وما جبلها الله عليه من الأنس ببني الإنسان، وخدمته وتأمين عدد من المنافع له، وكثيرا ما تتحول هذه العلاقة إلى صداقة ومحبة وتواصل روحي.

والسبب الثاني متصل بالبيئة كما ذكرنا من قبل، فقد كانت البيئة البدوية مصدراً أساسياً من مصادر الشعر لدى أهل هذه البيئة من الشعراء، ثم كانت البيئة الحضرية بعد ذلك مصدراً جديداً لهم، وربما كان لهذه البيئة أثر أقوى لما تفرضه طبيعة العمران من تحضر واستقرار، وتدجين لبعض الطيور والحيوانات، وما يتبع ذلك من منافع ومضار وألفة وروابط، وفي ذلك كله ما يدعو إلى وجود علاقة سلبية حيناً، وإيجابية في كثير من الأحيان ما بين هذه المخلوقات وبني الإنسان، وفي ذلك أيضا ما يفسر سبب تطور هذا الفن وتنوع أغراضه في العصر العباسي بخاصة.

وقد عرف هذا العصر تناقضات شتى، كان لها أثرها العميق في تطور حركة الشعر، إذ انعكست فيه صورة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أحاطت بالشعراء، ولم يتمكن عدد كبير منهم من مواكبتها أو التلاؤم معها، فانكفؤوا على أنفسهم، أو ثاروا على مجتمعهم، وكانوا فلاسفة أو زهاداً أو هجائين أو متشردين ساخطين، وقد لاحظنا أن معظم الشعراء الذين تفردوا بالطير والحيوان، وأجادوا القول فيه من هذا النمط من الناس، وفي ذلك مجال واسع للتعليل والدراسة والتحليل.

ومهما يكن من أمر هذه الأسباب وغيرها، فإن هذا الفن الشعري الفريد يعد بحق من أروع فنون الشعر العربي على اختلاف أغراضه ومذاهبه وأساليبه، لما فيه من روح إنسانية، وحرارة عاطفية، وصدق في الشعور، وبراعة في التعبير، وقدرة فنية فائقة، تجعله جديراً بالدراسة والتقدير بعد أن طغت على هذا الشعر بعض الصفات التي قد لا تمثله أصدق تمثيل، أو تعبر عنه خير تعبير.

الدار البيضاء　　　　　　　　**محمد خير شيخ موسى**

المصادر والمراجع

1) أبو الفرج الأصبهاني ناقدا : محمد خير شيخ موسى ـ رسالة د. السلك الثالث، جامعة محمد الخامس ـ الرباط 1981 (رونيو).

2) الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب (ـ 776 هـ) ـ تحقيق محمد عبد الله عنان ـ ط، القاهرة 1973.

3) أخبار الشعراء المحدثين : للصولي محمد بن يحي (ـ 335 هـ) ـ تحقيق ج هيورث دن ـ ط 2 دار المسيرة ـ بيروت 1979.

4) الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى : للناصري أحمد بن خالد ـ تحقيق جعفر ومحمد الناصري ـ ط 1، الدار البيضاء 1955.

5) الأغاني : لأبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين (ـ بعد 362 هـ) ـ ط دار الكتب المصرية ـ القاهرة 1927 ـ 1974. (جماعة من المحققين).

6) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي أحمد بن علي (ـ 463 هـ) ط 1 القاهرة 1931 ـ مكتبة الخانجي.

7) دراسات في الأدب العربي : غوستاف غربناوم ـ ترجمة احسان عباس ورفاقه ـ بيروت ـ 1959.

8) ديوان البحتري : تحقيق الصيرفي ـ دار المعارف بمصر 1963.

9) ديوان حميد بن ثور : صنعة عبد العزيز الميمني الراجكوتي ـ دار الكتب ـ القاهرة 1951.

10) ديوان الشريف الرضي : دار صادر ـ بيروت ـ 1961.

11) ديوان ابن الشهيد : جمع يعقوب زكي ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة، بلا.

12) ديوان الفرزدق : دار صادر ـ بيروت ـ 1960.

13) ديوان كعب بن زهير : صنعة السكري ـ مصورة عن ط دار الكتب ـ الدار القومية ـ القاهرة 1965.

14) ديوان المتلمس : تحقيق الصيرفي ـ مجلة معهد المخطوطات ـ مج 14 ـ القاهرة 1968.

15) ديوان المتنبي : دار صادر ـ ودار بيروت ـ بيروت 1958.

16) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : لابن بسام الشنتريني (ـ 542 هـ) ـ تحقيق إحسان عباس ـ بيروت 1979.

17) رحلات حمد الجاسر : دار اليمامة ـ السعودية ـ ط 1 ـ 1980.

18) الشعر والشعراء : لابن قتيبة الدينوري (276 هـ) ـ مصورة ـ بيروت.

19) العمدة في صناعة الشعر ونقده : لابن رشيق القيرواني (ـ 456 هـ) تحقيق محي الدين ـ مصر 1963.

20) عيار الشعر : لابن طباطبا العلوي (ـ 322 هـ) ـ تحقيق الحاجري وسلام ـ ط 1 القاهرة 1956.

21) فصول في النقد العربي وقضاياه : محمد خير شيخ موسى ـ ط 1 دار الثقافة ـ الدار البيضاء 1983.

22) مختار الشعر الجاهلي : للأعلم الشنتمري (ـ 476 هـ) تحقيق مصطفى السقا ـ مصر 1948.

23) معجم الأدباء : ياقوت الحموي (ـ 626 هـ) ـ تحقيق الرفاعي ـ مصر 1936 ـ 1938.

24) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب : للمقري أحمد بن محمد (ـ 1041 هـ) ـ تحقيق إحسان عباس دار صادر ـ بيروت 1968.

25) وفيات الأعيان : لابن خلكان أحمد بن محمد (ـ 681 هـ) تحقيق عباس ـ بيروت 1971.

26) يتيمة الدهر : للثعالبي أبي منصور (ـ 429 هـ) تحقيق محي الدين ـ ط 2 بيروت 1973.

م.خ.ش.م.

مَـا العَـقْل ؟
أو
كيف يَعْـمَل المُـخ ...

أحمد عبد السلام البقالي

كان المخ دائما مصدر حيرة للعقل (1). فهذه الكرة التي تزن أقل من كيلو غرام ونصف من المادة لا يبدو عليها بالمرة أنها قادرة على كتابة «الفردوس المفقود» (2) أو إبداع السيمفونية «البطولية» (3) أو اكتشاف «نظرية النسبية» (4) ومع ذلك، فمنذ 2400 سنة، أي منذ عثور الفيلسوف الإغريقي (هيبوقراط) على مكان العقل داخل الجمجمة، ظل الإنسان مرغما على القبول بأن أعظم منجزاته، وأسمى أفكاره، وأعمق مشاعره تصدر كلها عن شيء في متانة وتماسك (البيصارة) ـ الجيلو ـ الخاثرة، وصفرة الشحم الحائل.

1) عن تقرير صدر بالعدد (6) من مجلة (نيوزويك) الأمريكية في 7 ـ 2 ـ 1983.
2) للشاعر الإنجليزي (ميلتون).
3) للموسيقي الألماني (واغنر).
4) لأينشتاين.

وقد بدأ اليوم بعض علماء الجهاز العصبي يعتقدون أن كل ما يجعل الإنسان إنسانا لا يعدو أن يكون تفاعلا للمواد الكيماوية مع الكهرباء داخل طيات الدماغ المعقدة. وباكتشاف هذه العمليات العادية، يأمل العلماء أن يشرحوا خصائص العقل المدهشة. وتتطلب هذه المهمة جهودا شاقة، لأن علماء الأعصاب عليهم أن يستعملوا نفس الجهاز ونفس الخلايا التي يرغبون في فهمها لفهمها. وهي مهمة من أشق المهات التي قام بها الدماغ.

وكما قال مشرح الأعصاب الإسباني العظيم، (سانتياغو - رامون - دي كالخال) في أوائل هذا القرن : «ما دام الدماغ سرا غامضا، فسيظل العالم، الذي هو انعكاس لمبنى الدماغ، سرا غامضا كذلك». فرغم ما يظهر من أن الإنسان كشف سر المجرات الفلكية، ودوران الذرة، فهو، في الواقع، لن يعرفها بالمرة إلا إذا فهم كيف يفهمها.

وقد سمى (شيكسبير) المخ بـ «مسكن الروح الهش) وعلى العلماء أن يستكشفوا المنزل دون أن يزعجوا ساكنه. ولتحقيق ذلك، فهم يتجولون خلال أدمغة الحيوانات بمسابر كهربائية مجهرية، ويفحصونها خلية خلية ليكتشفوا أين تذهب نظرة الحيوان بعد أن تسجل على العين، وهم يخزون رخويات البحر ليروا كيف تصبح ذكرى اللمسة منقوشة على دماغها البدائي. وهم يحقنون آدميين بكيماويات مشعة ليروا خلايا الدماغ التي تنبه بقيته، وهدفهم هو رسم خريطة للدماغ لمعرفة الطية التي تتصل بالسمع مثلا، أو الطية التي لها علاقة بمهارة في تعلم اللغات.

وهدف ثـان للعلمـاء، هو حل الشفرة العصبيـة، أي اللغـة التي تترجم مدركات العـالم الخـارجي إلى صور رادارية كهربـائيـة، وقطرات كيائيـة.. يخزنها الدماغ للعثور عليها حين يحتـاجهـا. وسيشرح حل الشفرة العصبيـة كيف تحمل إشـارات كهربـائيـة الغضب، أو أي شعور آخر، وكيف تحتـوي الرسائل الكيماوية على ذكرى حدث قديم.

ولا تزال الشفرة مستعصيـة على الحل، إلا أن خطـوط الاتصـال، على الأقـل، أمكن التعرف عليهـا. وهي العصبـات أو الخـلايـا العصبيـة، وهي خلايا ذات لب مركزي تتدلى منهـا ديول وخصلات متشعبـة. ويحتوي المخ ما بين عشرة ملايير ومائة مليار من هذه العصبات.

وتكون كل واحـدة منهـا جسـورا مـع أخريـات كثيرات لـدرجـة أن الدماغ يصنع بحوالي «كوادريليون» (أي ألف مليار) رابطة والعصبة العادية، كما يقـول (ويليـام شـومـاكر) (5) Wiliam Shoemaker «معقـدة تعقيـد كومبيوتر صغير. والعصبات مبرمجة بلغة الكيمياء والكهرباء معا. فحين يصل منبه إلى نهاية ذيل عصبية، أو محور عصبي Axon ترسل هذه مـادة كيماويـة تدعى بالموصل العصبي Neurotransmitter.

وتنتشر هـذه الرسـالـة الكيمـاويـة عبر فجـوة تسمى نقطـة الاشتبـاك العصبي Synapse إلى نقط استقبال بالخلية التالية، مطلقـة منبهـا كهربـائيـا آخر يسري إلى ذيل عصبة ثانية إلى أن يصل إلى ملايين العصبات.

---

5) من معهد صولك (بلاخويا) بكاليفورنيا.

ومنذ 1975 اكتشف العلماء أكثر من 50 موصلا عصبيا، أي موادا تحمل الرسائل عبر الذهن ـ مثل الإحساس بالألم أو الحزن التذكر.

والعصبات (Neurons)، ومساعداتها الموصلات العصبية ضرورية لإعطاء شرح كامل لطريقة عمل الدماغ. ولكنها غير كافية، وكما يقول الدكتور (فريدريك غودوين) من (المعهد الوطني للصحة العقلية) : «محاولة تعريف الدماغ عن طريق عصباته، مثل محاولة وصف كنيسة (نوتردام) عن طريق وصف أحجارها».

ونتج عن الأسلوب الاختصارى فكرة مخ فسيفسائي تحتوي فيه كل زليجة عصبية دقيقة على ذكرى أو عدد من أنظمة التفكير، فأحيانا يظهر أن خرائط المخ فعلا محددة، مثل ما حدث حين نبه جراح أعصاب مناطق في مخ مفتوح لمريض، وآثار مجرى هذه الذكريات : «سمعت أما تنادي طفلها في مكان ما... سمعت أصواتا على ضفة النهر... ذكرى صغيرة، مشهد من مسرحية، كانوا يتكلمون وأنا أراها.. كنت أراها، كنت أراها في ذاكرتي..».

وتختص مناطق مختلفة في الدماغ في نشاطات مختلفة، بدون شك، فالكلام، والقدرة المكانية يأتيان من لحاء Cortex المخ، أي قشرته الخارجية، وتأتي المشاعر من الجهاز العضوي (Limbic System). وقد بدأ العلماء يدركون تدريجيا أن النشاطات التي يمكن حصرها في مكان من المخ ترتبط بمناطق أخرى كذلك. فيظهر أن الذكريات مثلا تستقر، في نهاية المطاف، باللحاء الدماغي، ولكن بعد أن تمر عبر محطات بعيدة كثيرة في طريقها. فالدماغ، إذن ليس مجموعة من صغار العازفين المعزولين كل واحد منهم

مسؤول عن لحن مختلف في السيمفونية العقلية، وإنما هو جوق موحد من عدد قليل من العصبات يقود مجموعة من الملايين.

ويبدو أن أحد قادة الدماغ هو النواة القاعدية Nucleus Basalis وهو عبارة عن عنقود صغير من العصبات مستقر تحت الغدد القاعدية Basal Ganglia وقد وجد الباحثون (بجامعة جونز هويكنز) عند تتبعهم للمحاور العصبية (Axons) عبر اللحاء العصبي إلى جذورها أن كثيرا منها تنشأ في هذا الحيز الضيق، وتصل العصبات من النواة القاعدية إلى مناطق تتحكم في الحركة، والحواس، وتحليل المعلومات وتصدر عنها موصلات عصبية تتعلق بالعواطف، والاهتياج، والاعتداء، والتفكير. فالمنطقة، إذن، تعمل كقائد جوق ماهر لدرجة أنه يشير من جهة إلى عازف البيانو ليبدأ، ومن جهة أخرى إلى عازف الكمان لينغم اللحن، ومن جهة كذلك إلى عازف البوق الفرنسي يرسل ألحانا حزينة.

وتعرفت دراسات أخرى على قيادات عصبية مشابهة، يقول عنها الدكتور (روبيرت روبنسون) : «إنها تشير إلى نوع جديد من التنظيم في الدماغ. فلم نعد مقيدين بنظرية الفسيفساء ـ أي أن كل وظيف له مكان معين من المخ ـ وبدلا من ذلك فإن بعض أنواع السلوك تبدو مقسمة على الدماغ كله». وهذا ما حدا بالأستاذ (ما يكل فيلبس) من جامعة (كاليفورنيا) إلى القول : «إن ذلك يجعل الدماغ مركبا شديد التعقيد». وهو في الواقع، من التعقيد لدرجة أن العلماء يعدون أنفسهم من المحظوظين لو استطاعوا أن يعرفوا شكل الدماغ. ففي القرن الثامن عشر قارنوه بتروس الساعة وعجلاتها، وبعد ذلك شبهوه بالأسلاك الكهربائية. واليوم يشبهونه بالتكنولوجية السائدة مع فارق ـ فيسمونه بالكومبيوتر الكيماوي.

فدوائره تتحرك بـالكهربـاء والكيمـاويـات معـا. ولكن الـدمـاغ كان وسيظل دائما أشد تعقيدا من أحدث مخترعات الإنسـان، ولا شيء من أجهزة التقنيين يمكن أن يماثل الدماغ حتى على وجه المجاز والاستعارة. فهو يرسل علماء الأعصاب إلى حيث لم يصل باحث من قبل. يقول الـدكتور (مـايكل براونستين) من (المعهـد الـوطني للصحـة العقليـة Minh) : «هــذا زمن ممتع للعمـل في حقـل علم الأعصـاب، كثير من النــاس يرون أنــه آخر التخـوم المجهولة».

وقـد تركـز البحث قـديمـا حـول كيف يسيطر الـدمـاغ على الجسـد، والمنـاطـق المسـؤولـة عن الأيض Metabolism (عمليـة بنـاء البروتـوبـلازمـا وموتهـا، والتغيرات الكيمـاويـة في الخلايـا الحيـة)، والحركـة والاستجـابـات، ولكن استكشاف الباحثين اليوم بدأ يأخذهم إلى جوانب المخ التي يولد فيهـا العقل، وإلى المناطق التي تصنع الذكريات والعواطف، والأفكار.

الذاكرة :

في سنة 1953 أجرى جراحو الأعصاب عملية تاريخية على شاب نسميه (هـ.م) مصاب بـالصرع، فـاستـأصلوا من دمـاغـه «قرين آمون»، وهو قطعـة صغيرة في وسط الدماغ اعتقدوا أنها التي تسبب نوبـات الصرع. وفعلا شفي من الصرع. إلا أنـه خرج من العمليـة بمضـاعفـة دائمـة، فرغم أنــه استطــاع الاحتفاظ بذكرياته السابقة للعملية، وأصبح بإمكانه تذكر بعض الطلبات، كأن يقفـل البـاب عنـد خروجـه، فـإنـه لم يعـد قـادرا على تكـوين ذكرى جديدة دائمة. يقول (هـ.م) : «كل يوم في حياتي هو يوم فريد في حد ذاته، بكل ما فيه من مسرة أو شقاء».

والذاكرة هي الأساس الأعلى في وظائف الدماغ ابتداء من ضرب رقمين، إلى تكوين الإنسان من وحدة أبدية من اللحظات المنفصلة لتكون له إحساسا بالاستمرار والوحدة والاتصال بالماضي. وقد شبهها (فرويد) بلوح الطفل السحري، فالصفحة الشفافة التي فوقه تتلقى رسم الذكريات القصيرة المدى، والتي تمحى في الحال، بينما يبقى انطباع الرسم محفورا على اللوح الشمعي تحتها. ويؤكد البحث في مناطق الذاكرة المجهولة التصور القائل بأن الذكريات تترك تغييرات مادية دائمة على الدماغ. يقول الدكتور (روبيرت ديزيمون) من (المعهد الوطني للصحة العقلية) :

«حين نرى شيئا يتغير الدماغ بصفة دائمة على ما يبدو، فإذا استطاع أحد معرفة الطريقة أي حل اللغز الذي يحدث التغير، فسيكون ذلك من أعظم الاكتشافات الحديثة في علم الأعصاب».

وكل الذكريات تأتي من العالم الخارجي للدماغ، فالصور البصرية تترك ظلالا على شبكية العين لمدة أقل من الثانية، والأصوات تتحول إلى أصداء تخفت رويدا رويدا ولا تدوم أكثر من أربع ثوان، وعند ذلك تنغرز تلك الأحاسيس في الدماغ كرشاش كهربائي إذ ينشط تهييج عصبة حركة جاراتها. وأي واحد ساقه سوء حظه إلى تلقي صدمة كهربائية على رأسه، يعرف أن الذكريات تبدأ ككهرباء، فالعلاج بالصدمات الكهربائية يمحو ذكريات الأحداث التي سبقت الصدمة، ولكن يترك الذكريات القديمة على حالها، مخزونة في أمان حيث لا تستطيع الكهرباء محوها، والذكريات التي ما تزال في شكل كهربائي تكون عادة ذات مدى قصير، وتدوم أقل من دقيقة، وأغلب الناس لا يستطيعون الاحتفاظ بأكثر من سبعة مواضيع أو أرقام، أي ما يعادل رقم تلفون، من الذكريات القصيرة المدى.

وبما أن الذكريات تبدأ بالكهرباء فقد ركز (فرانسيس كريك Francis Crick) الذي تعاون مع (جيمس واطسون) في اكتشاف اللولب المزدوج ـ دراسته على هذه الانطباعات السريعة الزوال على أطراف العصبات التي تتلقى الدفعات الكهربائية وهي : تفرعات الخلية العصبية : Dendrites هذه الخصلات الصغيرة المتفرعة عن ذيل العصبة تبرز منها أشواك تتصل بالعصبة التالية في الدائرة. ويخمن (كريك) أن تلك الأشواك هي العمود الفقري للذاكرة وتتغير أحجامها من أزرار قصيرة سمينة إلى سنابل طويلة ورشيقة. فحينما تصل شحنة كهربائية إلى العصبة، تحمل مثلا، منظر الأرقام السبعة التي هي رقم تلفون محل حلوى، فإنها تضغط على الأشواك والأشواك القصيرة توصل الكهرباء أحسن من الطويلة، فلذلك تبقى دوائر العصبة تئز بعض الوقت. وحين تعود الأشواك إلى حجمها الطويل الرشيق تختفي ذكرى رقم تلفون محل الحلوى، وتبقى بعض هذه الأحاسيس السريعة الزوال طرفا دائما من مخزونات الدماغ وهذه هي الذكريات البعيدة المدى، وكل واحد جرب قوة ذكريات مثقلة بالعواطف القوية مثل أغنية، عند أول لقاء بشخص عزيز، أو المكان الذي كان فيه حين وصله خبر وفاة شخص عظيم ـ لذلك فإنه من المنطق الغريزي أن محطات طريق الذكريات، بين التجربة والتخزين الدائم، تكمن في الجهاز العضوي الذي يهيج طرف منه العواطف. وإحدى محطات الطريق هذه عبارة عن كرة بصلية الشكل تسمى اللوزة : Amygdala ويبدو أنها تحلل المشاعر الملفوفة داخل هالة من السعادة أو الحزن، وربما تفهرس الذكرى تحت عناوين مثل «سرور» أو «أسى» ويشرح ذلك بتذكر الناس حادثا بوضوح أكثر حينما يشعرون بنفس العاطفة التي أحسوا بها أثناء التجربة الأصلية.

ويوجد قرن آمون، كذلك، داخل الجهاز العضوي كما يبدو من مأساة المريض (هـ.م)، فهي جوهرية لتكوين ذكريات جديدة باقية، ولأن (هـ.م) احتفظ بذكريات حياته قبل العملية، فقد أدرك العلماء أن قرن آمون (Hipo Campus) لا يمكن أن يكون مخزن الذاكرة الحقيقي، وبدلا من ذلك، كما يخمن (مورتيمر ميشكين) من (المعهد الوطني للصحة)، فإن قرن آمون واللوزة تحلل الأحداث المرشحة لتكون ذكريات وتفوت المهم فيها إلى لحاء الدماغ ويغلق اللحاء الدماغ من الخارج، ويبدو كجوزة مشققة، وهو مركز المراقبة الرئيسي للفكر الرفيع والتخطيط، وصنع القرار وهو المكان الذي تترك انطباعات الأحاسيس آثارا لا تمحى على العصبات فيه، حسب تخمين (ميشكين).

وحتى لا يكتظ الدماغ بالمناظر العفوية، والأحاديث العادية، والتجارب غير الهامة، فإن حارس باب الذاكرة لا يسمح إلا ببعض الانطباعات لدخول اللحاء الدماغي. وقد يكون حارس هذه البوابة، هو النواة القاعدية التي تغير نموذج استجاباتها حين تبصر العين الطعام أو غيره مما يسر، أو ترى أفعى أو غيرها مما يضر، ويقول الدكتور (ماهلون دي لونغ) من جامعة (جونز هوبكنز) «العصبات مفتحة على الأحداث التي تقع في محيطها. فقد تنبه أو تهيء اللحاء لاستقبال ذكريات جديدة». فعندما تحس العصبات بشيء يستحق التذكر أو الإستجابة مثل أن حيوانا زاحفا قد تكون لذغته موجعة، فإنها ترسل رسائل كياوية إلى تخوم وزوايا مظلمة باللحاء. وأحد هذه الرسل الكيماوية هو (الاسيتيلكولاين Acetylcholine) فقد اكتشف علماء الأعصاب دوره في مد عمر الذكريات عند فحص مصابين بمرض (الزهايمر) ـ أي خبل الشيخوخة. فأغلب ضحاياه ينسون

ذكرياتهم الحديثة بمجرد حدوثها ينسون لضعف مستوى «الاسيتيلكولاين» فهذه المادّة الكيماوية تعمل كطلاء الأظافر إذا انتشر على صفحة ورقة، إذ يساعد العصبات باللحاء الدماغي على الاحتفاظ بانطباعات المعلومات التي تصل إليه.

وقد جمع علماء الأعصاب أدلة على تغير العصبات عند استجابتها للذكريات وأجمل الأمثلة هو ما اكتشف حديثا في رخويات البحر البشعة، فرخويات البحر عادة لا تفعل شيئا بسرعة، ولكن إذا أصابتها صدمة كهربائية في ذيلها، فإنها تسرع بسحب خرطومها الذي هو طرف من جهاز تغذيتها. وتسحب الخرطوم أسرع فأسرع إذا كانت قد تعرضت للصدمة من قبل : أي أن البزّاقة البحرية «تتذكر» بطريقة بدائية، الصدمات السابقة، ويقول الدكتور (إيريل كندال) من (جامعة كولومبيا) : «إن الذكرى تكتب بالكيماويات، فقد وجد أن صدم ذيل البزاقة البحرية يطلق الموصل العصبي الكيماوي المسمى : (سيروتونين). وهذه المادة تطلق العنان لسلسلة ردود أفعال تغير مسام العصبة التي أحست بالصدمة، ويصبح التعديل الذي وقع لهذه المسام مذكرا مجهريا بأن الذيل أصيب بصدمة. وهذه «الذكرى» تأمر العصبة بإرسال أوامر كياوية بسرعة لسحب الخرطوم في حالة لمس الذيل مرة أخرى ومن الصعب تصور كيف يأتي التفكير العميق، والإبداع الملهم، من شيء أولي مثل عصبة معدلة بشكل دائم.

يقول كيندال : «إذا كانت الطبيعة، كالكاتب، تبني المعقّد من البسيط، فإن نفس العملية التي تستعمل بزّاقة البحر تحدث في المخ البشري كذلك» فقد تأتي الإشارة التي يتلقاها دماغ الإنسان من مشهد منزله، أو

وجه زوجته، أو سماع اسمه. فَثَمَّةَ ملايين العصبات، كل واحدة منها تحتفظ بذكراها لتكون الذكرى البعيدة المدى للدماغ. والعصبات المعدلة تكون شبكة من الذكريات في حساسية بيت العنكبوت : فلمس خيط من خيوطها، أو تنشيط عصبة أو اثنتين من الشبكة يحرك المجموعة. وذلك ما يحدث حينما نسمع نغمة واحدة من عمل موسيقي كبير، فهي تذكرنا بالعمل بأكمله، وبالأمسية التي حدث فيها ذلك.

وبما أن الكيماويات هي الحبر الذي تكتب به الذكريات، فإن إضافة قدر ملائم منها يقوي حاسة التذكر. فحين يتناول الفرد مادة (فاسوفريسين Vassopressin وهو هرمون يعمل كمادة (الأنتي ديوريتيك Antiduritic بالجسد، فإنه يستطيع أن يتذكر لائحة أطول من الأشياء، ويقول (هيربيرت واينبرغر) من (المعهد الوطني للصحة العقلية) «يبدو أن تلك الكيماويات تقطع وترتب أو (تشفّر) الأشياء أحسن» وتصنيف الذكريات، أو جمع المتشابه منها في مكان ما، هي بالضبط الحيلة التي ينصح بها خبراء الذاكرة لتحسين التذكر وهناك مادة أخرى هي نوربينفرين Norepinephrine والمعروفة كذلك باسم نورأدرينالين Noradrinaline يبدو أنها تعمل كأمر بالطبع أي أنها تكتب الذكريات بمداد لا يمحى، فالناس تتذكر أحسن حين يملأ أجسادهم الأدرينالين، وذلك هو السبب في صعوبة نسيان لون قميص المعتدي مثلا ومن جهة أخرى، بعض الذكريات غير السارة لا يمكن تذكرها رغم أنها «مطبوعة» وربما كان أحد الأسباب هو أن تذكرها تصاحبه مشاعر مؤلمة لدرجة أن المخ يعترض على تذكرها.

العواطف :

حين يلتقي العاشقون، وتدق قلوبهم، نقول عادة : «إنها الكيمياء» ربما كانت هذه القولة صادقة. ذلك أن علماء الأعصاب، وهم يخطون بحذر نحو منابع الشعور، فهم يجدون الطريق مرشوشا بالعصبات الموصلة، أي كيماويات المخ. ويبدو أن هذه المواد مرتبطة جدا بالمشاعر لدرجة تغرينا بالقول بأن الأحاسيس تأتي ملفوفة في طرود الموليكيولات (الجزيئات).

وتطلق الأحداث العامرة بالعواطف نشاط العصبات الموصلة. إلا أن جراحي الأعصاب اكتشفوا أن التهيج الصناعي بالشحنات الكهربائية يمكن أن ينشطها كذلك. فحينما يفتح الدماغ للجراحة، يعطي الأطباء ـ بإذن المريض طبعا ـ بعض الوخزات الكهربائية التجريبية للمخ. بعض هذه المنبهات تهيج الجهاز العضوي بقعر المخ، فتثير عواطف من داخل التلافيف العصبية، وتجعل المريض يشعر بالقلق أو الغضب، أو المرح أو الأسى. ويقول الدكتور (پول ماكلين) من (المعهد الوطني للصحة العقلية) : «يبدو أن المادة الخام للعاطفة تشكل جزءا لا يتجزأ من الدوائر الكهربائية للدماغ.

ومعرفة الكيمياء الإنسانية لا تزال في طفولتها. وقد تعرف الباحثون على بعض ما يعتقد أنه ذرات المزاج، واستطاعوا تحديد أماكن في الدماغ تعج بالنشاط حين يشعر الشخص بالقلق أو الحزن، وما يزالون بعيدين عن فهم طريقة عمل ذرة المزاج Mood Molecule ولكن ذلك قد لا يكون ضروريا لتحقيق هدف هام : وهو تطوير عقار من صنع الإنسان يحرك العصبات الموصلة الطبيعية لعلاج الأمراض العاطفية.

ورغم أنه لا توجد نظريات واضحة ومنطقية عن أمزجة الذهن، فإن هناك حقائق ذات دلالة، فباستعمال المسبر PET مختصر (Positron Emission Tomography) أي الرسم الطبقي بالأشعة للجسيمات الموجبة أثناء انطلاقها استطاع العلماء أن يأخذوا صورا للدماغ وهو يعمل، فاستطاعوا أن يروا أي جانب من الجوقة العصبية يلعب حين يحس الفرد بالألم، أو السرور، أو أية عاطفة أخرى. ولأخذ صورة بمسبر يحقن الأطباء المريض بمادة شبيهة بالسكر مخلوط بنظير مشع. فهو يذهب إلى المناطق ذات الايض Metabolism العالي، حيث يتركز نشاط الدماغ، ويطلق الإشعاع فحين سبر : (مارتن ريفيتش) من (جامعة بانسيلفانيا) أدمغة أفراد قلقين جدا رأى المنطقة الأمامية من جانب الدماغ الأيمن تضيء، وحين صور (مايكل فيليبس) من (جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلس) أدمغة مرضى مغمومين لاحظ أن مناطق الجانب الأيسر كانت نائمة تماما، وحين عاد المرح إلى المرضى عادت تلك المناطق إلى نشاطها العادي تقريبا. يقول (فيليبس) : «لأول مرة نرى الأساس البيوكيميائي للطريقة التي يتم بها الشعور».

ومعرفة من أين تأتي العواطف أبعد ما تكون عن معرفة كيف تحدث وخاصة وأن الموصلات العصبية للمشاعر تحمل في نفس الوقت رسائل مختلفة أخرى حسب وجهاتها. فكما يحدث قولك : «حضرت الحلوى» استجابات مختلفة من طفل جائع إلى صائم قوي العزيمة، كذلك الرسالة التي يحملها الموصل العصبي، لها أثر على الجهاز العضوي، وآخر على اللحاء الدماغي. فمادة (نوريبنفرين) تعمل كأمر «بالطبع» للذكريات باللحاء الدماغي، ولكنها في بعض تركيبات الجهاز العضوي يبدو أنها تدخل في الإحساس بالغم. وقد وجد (روبنسون) من (جامعة جونز هوينكز) أنه

حين يعطب بعض المناطق الصغيرة جدا في أدمغة الفيران فإنها تصاب بالأسى، وتتجمع مع بعضها في ركن، ولا تبدي أي اهتمام بالطعام. ولم يكن غمها نتيجة ألم، فأدمغة الحيوان، مثل دماغ الإنسان، ليست لها أهداب عصبية تحس بالألم. (والصداع لا يأتي من الدماغ، ولكن من احتقان خلايا الدم في جلد الجمجمة) ويعتقد (روبنسون) بدلا من ذلك، أن العطب سد الممرات التي يجري فيها موصلان عصبيان هما : السيروتونين Serotonin والنوريبنفرين Norepinephrine وقلة هذه الموصلات العصبية تسبب الغم للإنسان : وفي الواقع، العقاقير التي تذهب الغم تعمل عن طريق رفع مستوى هذين الموصلين، وفي حالات الانتحار المتطرفة وجد الباحثون السويديون أن المغمومين الذين ينخفض عندهم مستوى (السيروتونين) بشكل غير عادي، يتضاعف احتمال انتحارهم عشر مرات عن الذين يرتفع عندهم السيروتونين.

وقد تعرف العلماء على بعض الكيماويات التي تثير العواطف بشكل مباشر. فلكي يبحثوا عن الخوف، أو القلق مثلا، لا يحتاجون إلى استعمال وسائل التخويف، ولكنهم بدل ذلك، يحقنون هذه العواطف مباشرة في شكل موليكيولات.

فعندما حقن الدكتور (ستيفن پول) من (المعهد الوطني للصحة العقلية) مجموعة من القردة بمادة معينة اقشعرت أبدانها من الخوف، وانتقشت فرواتها، وصعد مستوى الأدرينالين 15 درجة في نفس عدد الدقائق.

وبرسم خريطة للمحطات التي استقبلت تلك المادة الكيماوية، قال

(پول) : «نعتقد أننا نرى أين يتكون الخوف والقلق» وأحد الأماكن هو اللوزة (Amygdala).

وقد اكتشف (پول) غموضا غريبا في أجهزة الاستقبال هذه؛ فهي لا تقبل فقط المادة التي تثير القلق، بل كذلك العقار الذي يهدئه. وتدل السهولة التي يتسلل بها (الليبريوم) و(الڤاليوم) (6) إلى أماكن داخل الدماغ على أن الإنسان مزود بقدر طبيعي من المادة المضادة للقلق، رغم أنه لم يتم بعد اكتشاف هذه المادة الناعمة، ويعتمد نوع المولیكيول الذي يمتصه جهاز الاستقبال على أيها يصل أولا. والسائد هو أن موليكيول القلق يقفل الطريق على العقار المهدئ، والعكس بالعكس. والشخص الكثير القلق قد يكون مرتفع مادة القلق، أو منخفض مادة التهدئة، وفي كلا الحالتين تناول (الڤاليوم) أو (الليبريوم) يعطي المقويات المطلوبة.

وقد صنع الدماغ بعض العقاقير التي تشيع الإحساس بالهناء قبل أطباء (هوليود) وفي سنة 1975 تم اكتشاف مجموعة من هذه المواد التي ترفع المعنويات مركزة في الجهاز العضوي المشحون بالعواطف. وتدعى هذه المواد (الانكيفالينات) وتشبه العقاقير المخدرة مثل المورفين. ولكن كيف تأثر على أمزجة الدماغ ؟ ذلك سر يحتفظ به المخ. ومع ذلك فهي تذكر في كل محاولة لشرح جميع أنواع الإحساسات الطبية. ويروج (جاغرز) النظرية القائلة بأن الإرهاق البدني يساعد على إنتاج (الانكيفالين) الذي يشيع إحساس ما يدعى بـ (نشوة العدائين» والمعالجون بالإبر يقولون إن إبرهم تنشط (الانكيفالين) الذي يعمل كبنج طبيعي.

---

6) مادتان مهدئتان.

التفكير :

العلماء الذين يبحثون داخل المخ عن الذكريات والعواطف يعدون من المحظوظين لأنهم يعرفون عماذا يبحثون. أما الذين يستكشفون المخ، تلك المادة الرمادية، بحثا عن وظائف معرفية مثل التفكير، والتخيل، والتخطيط للمستقبل، فهم يواجهون عراقل قاهرة لعدم معرفتهم شكل ما يبحثون عنه، فالمخيلة أصعب للتعريف من القلق. ومع ذلك، فالباحثون متأكدون من أنهم سيرون دوائر الفكر الكهربية بنفس الوضوح الذي رأوا به دوائر المشاعر. تقول (پاتريشيا غولدمان ـ راكيك) من جامعة (ييل) : «إننا نفهم كيف يعمل جهاز الإبصار العصبي. ومبدئيا يمكننا أن ندرس جهاز الإدراك العصبي أو (بيولوجية) الإدراك».

والمنطقة المكلفة بهذه الوظائف العليا تقع داخل اللحاء الاقتراني (Association Cortex) الذي يحتوي على أغلب الفلقة الأمامية للدماغ، وجميع أطراف اللحاء التي لا تقوم بعملية الإحساس بالعالم الخارجي أو بتحريك الجسد. فالأشخاص الذين يعانون من عطب في الفلقات الأمامية للمخ يتمتعون بذاكرات جيدة، ولكن المستقبل لا يوجد بالنسبة إليهم، تقول (غولدمان ـ راكيك) «إنهم يخلطون الدقيق بالبيض لعجن كعكة، ولكنهم لا يستطيعون التخطيط مسبقا لإعداد كعكة لعيد ميلاد أحد في المستقبل». ويؤكد المسبر PET تكهنها بأن التخطيط يحدث في اللحاء الأمامي. وحينما أخذ (مونتي بوشبوم) من جامعة (كاليفورنيا) صورا بمسبر PET لأشخاص يستريحون بأعينهم مغمضة لاحظ بعض النشاط المعتدل في الفلقات الأمامية فربما كانوا يفكرون فيما سيفعلون بعد التجربة ولكن حينما عرضهم لوخزة

كهربائية خفيفة تزايد نشاط الفلقات الأمامية بشكل ملحوظ، ربما لأن العقل كان يخطط بسرعة كبيرة في وسيلة يتعامل بها مع الصدمة.

والخطط يجب تنفيذها ـ حسا ومعنى ـ وتقول (غولدمان ـ راكيك) إنه ليس من قبيل المصادفة أن أحد الطرق العصبية تخرج من الفلقات الأمامية للدماغ وتنتهي إلى اللحاء المحرك. وتتحكم هذه المنطقة في الحركة كما يوحى بذلك اسمها. تقول : «الأفكار تتكون داخل اللحاء الأمامي. ولا بد لها من الذهاب إلى مكان ما»، وتتصل الفلقات الأمامية للدماغ بفلقات الجزء الخلفي الأعلى للرأسظوتكشف صور PET عن نشاط في هذه المنطقة حين يركز الفرد انتباهه على المناظر والأصوات. ويعني ذلك أن هذا الجانب من الدماغ يراقب العالم ويأمر الفلقات الأمامية بالانتباه وهذه هي الخطوة الأساسية الأولى في التفكير وكيفية التعامل مع العالم. ويقول (بين ريڤيك) : «كانت هذه أول عملية إيضاح لنشاط الدماغ الإنساني أثناء الانتباه واليقظة».

وهناك حد للمدة التي يستطيع الفرد بقاءها متيقظا عقليا فالطلبة الذين يذاكرون ليلا، والجنود أثناء الدوريات وأصحاب البنوك الذين يهيئون لإبرام صفقات عبر المحيط، كلهم يرغمون أنفسهم على العمل والكد مدة أطول من المعتاد، وحين يزول الضغط ينهارون. ويصعب وصولهم إلى نفس المستويات العليا من النشاط العقلي، مرة أخرى، بعد أن يسترخوا لمدة قصيرة، وأحد الأسباب المحتملة هو أن الدماغ يتطلب مدة راحة قبل أن يستطيع العودة إلى إنتاج الموصلات العصبية المنشطة.

بعض الثنايا العصبية تهتم بمواضيع معينة مثل فهارس المجلدات وقد

طلب الدكتور (جورج اوهيان) من (جامعة واشنطن) من مرضاه أن يقرأوا جملا بسيطـة أثنـاء سبره أمـاكن بـأدمغتهم (المفتـوحـة) بـلاحب، أي (قطب كهربائي).

وحسب الأماكن التي كان يلمسها فإن المرضى كانوا يجدون أنفسهم غير قـادرين على قراءة الإسم أو الحرف أو جـانبـا آخر من الكـلام، وتـوحي التجربة بأن الدماغ يعرب الجمل بنفس السرعة التي تسجلها بها العين، وأن جوانب من الكلام تسرى في ممرات عصبية مختلفة عن بعضها البعض. وقد وجد (اوجيان) أن مزدوجي اللغـة عنـدهم ممرات مختصـة أكثر. فحين قـاطع أماكن معنة في أدمغتهم لم يستطيعوا تسميـة أشيـاء عرضهـا عليهم. ولكن في بعض الأحيان كانوا يعجزون عن النطق تماما في لغـة، وأحيـانـا في اللغتين. ويعني ذلك أن الدماغ يصنف (إبل) في مكان غير الذي يفهرس فيه (تفاحة). وأثناء ملء (توجيان) لخريطة اللغة، لاحـظ أن أمـاكن أكثر كانت مرتبطـة باللغة الثانية منها الأولى. ولا ينبغي أن يفـاجـأ بـذلـك (الاميريكي الـذي يجـاهـد لتعلم الفرنسيـة مثلا، فـالاميريكيون يحتـاجـون إلى مكان أوسع في الدماغ لتعلم لغة ثانية من الذي يتطلبه تعلمهم الإنجليزية).

ولا تجد الكلمات مكانا دائمـا لهـا في المخ إلا إذا حلت شفرتها من بين آلاف الأصوات التي يسمعهـا الواحـد كل يـوم وقـد عرف العلمـاء منـذ قرن مضي أن منطقة من الدماغ تدعى «منطقـة بروكا» تقع في موقع استراتيجي قرب الفلقة الصدغية التي يبدو أنها تختزن الذكريات، وإلى جانب المنـاطق التي تنسق أدوات النطق كالشفاه واللسان، والحبـال الصوتيـة، وسقف داخل الفم. ولذلك فهي تعمل كوسيـط يترجم الأفكار والـذكريـات إلى كلمـات. وقد اكتشف (أوجيان) أن نفس المنطقة التي توجه تكوين الكلمـات تتعرف

كذلك على الأصوات التي تتكون منها الكلمات. ويقول (أوجيان) : «ويعني ذلك أن حل ألغاز الكلام قد يكون له علاقة بالحركات التي نعمل، لنصنع أصوات الكلام».

فقبل أن يكون الكلام، كانت تعابير الوجه. فئات العضلات كلفت بتوصيل العواطف والمعلومات، وقراءة الوجه تساعد على الفهم ويحتفظ الدماغ بمراكز خاصة لتحليل تلك التعابير، فحين عرضت صور أفراد على وجوههم تعابير مختلفة على مرضى بحاجة إلى جراحة عصبية، وسئلوا أن يختاروا الكلمات التي تصف تلك التعابير، كالغضب والاشمئزاز.. الخ وصفوها بدقة. ولكن حين عطل الجراح أماكن معنة بالجانب الأيمن من أدمغتهم لم يستطيعوا التعرف عليها. ويعني هذا أن القدرة على كشف نوايا شخص مجهول من خلال تعابير وجهه فقط، كان ذا أهمية تطورية كافية لنشوء منطقة مسؤولة عنه في الدماغ.

ومن المغري أن نحاول استعمال الاكتشافات الجديدة بالدماغ لنرسم خريطة للعقل الإنساني. ولكن ذلك لن ينجح. فإذا لم يكن اختلاف الشخصيات وطرق التفكير أقنعت العلماء بأنه لا يوجد عقلان متشابهان، إذن فستقنعهم أدلة التجارب الجراحية فقد وجد (أوجيان) أن الأشخاص ذوي المستوى الذكائي المنخفض (IQ) تقع أماكن تسمية الأشياء عندهم في فلقاتهم الجدارية التي تتقبل عادة الإحساس باللمس والمعلومات عن المساحة. أما في الأشخاص ذوي الذكاء العالي فإن الأماكن الخاصة بالتسمية فهي أكثر عددا في الفلقات الصدغية داخل مناطق خاصة بالسمع والتذكر.

ومن السابق لأوانه أن نتساءل عما إذا كان اختلاف نظام الدماغ سببا

في انخفاض الذكاء، أو أنه نتيجة لعامل آخر. ومع ذلك يمكن استنتاج أن هناك طرقا عدة ينظم الدماغ بها اللغة، وأن بعضها أفضل من البعض الآخر.

ومع ذلك فالدماغ لا يبدو دائما مهيئا للتفكير المنطقي فقد اكتشف العلماء أنه يحتوي على أجهزة استقبال تشد إليها ما يدعى بغبار الملائكة، وهو مخدر هلسي قوي المفعول. فلماذا يحتوي الدماغ على أجهزة استقبال خاصة بمخدر يجعل الناس يتصرفون بجنون ؟ يقول (غودوين) من (المعهد الوطني للصحة العقلية) :

«قد يكون المخدر هناك للعمل على انهيار القنوات العادية للتفكير وليسمح بالشرود والأحلام والتخيل». فإذا كان هناك جهاز استقبال للمخدرات التي يصنعها الإنسان فذلك يعني وجود مخدر طبيعي بنفس الحجم والتأثير في مكان ما بالدماغ. فإذا استطاع علماء الأعصاب العثور عليه وتنشيطه فقد يعرفون ماذا يطلق عنان الخيال.

ربما كان علماء العصر الفيكتوري متأكدين من أن العقل عقل، والمادة مادة، ولا يمكن أن يلتقيا ولكن بما أن علماء الأعصاب اليوم، بدأوا يكتشفون سر الذاكرة، والعاطفة والتفكير عن طريق اقتفاء أثرها إلى أصلها الكهربائي الشبيه بما تحتويه رقائق السيلكون أو إلى كياويات عادية جدا كالبروتين الموجود بالكفتة، فإنه يصبح من الصعب مشاطرة الفيكتوريين ثقتهم؛ إذ يبدو، خلافا لما كانوا يعتقدون، أن الدماغ متجه نحو مصير وضيع فكما أن لمعان النجوم فسر بأنه مجرد انفجارات ذرية، والحياة نفسها بأنها

مجرد ردود فعل بيو - كيماوية، كذلك يمكن أن يفسر العقل يوما ما عن طريق نفس القوى التي تدير بقية العالم.

ورغم ذلك فالواحد يتوقف ليتساءل، «أهذا كل شيء عن العقل ؟!» قد يكون علماء الأعصاب أدخلوا الذاكرة والعاطفة تحت مظلتهم الحاصرة كما يجادل المتشككون، ولكن أكيدا استفلت منهم الإرادة والوعي. وفي الواقع سيؤجل تعقيد الدماغ نفسه اليوم الذي يفسر فيه بالقوى الطبيعية. ولكن ذلك اليوم آت. وحين يصل، سيكون العلماء حقا قرأوا العقل !

أحمد عبد السلام البقالي

إقبال

فيلسوف الذات وشاعر الأمل.

د. محسن عبد الحميد
كلية التربية / بغداد

حياته :

ينتمي إقبال إلى أسرة برهمية دخلت الإسلام قبل عدة قرون في عهد الدولة المغولية. وكان والداه صالحين، حرصا على تربيته تربية إسلامية عالية.

يكشف إقبال عن هذه الحقيقة فيقول :

«يرجع الفضل في كل ما أنشأته من شعر أو نثر إلى توجيهات أبي رحمه الله، فقد كنت تعودت أن اقرأ القرآن بعد صلاة الصبح وكان يراني والدي فيسألني ماذا أصنع ؟ فأجيبه بأني أقرأ القرآن، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله فأجيبه جوابي. وفي ذات صباح قلت له بعد إجابتي : ولكن لماذا تسألني عن شيء أنت بجوابه عليم فقال : إنما أردت أن أقول لك، اقرأ القرآن كأنه نزل عليك، ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه وكان من أنواره ما اقتبست، ومن بحره ما نظمت» (1).

1) فلسفة اقبال ـ ترجمة محمد حسن الاعظمي ص 14.

في هذه الأسرة الكريمة ولد محمد إقبال في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة 1289 هـ / 22 شباط سنة 1873 م.

بدأ محمد إقبال التعليم في طفولته على أبيه، ثم أدخل مكتبا ليتعلم القرآن الكريم، وحفظ منه الشيء الكثير. ثم أدخل إلى مدرسة البعثة الاسكوتية في سيالكوت وبقي فيها إلى أن اتم دراسته فيها. وكان الأستاذ العالم الجليل مير حسن، صديق والده، يشرف عليه ويوجهه ويعنى بتلقينه الدين واللغة العربية واللغة الفارسية.

بدأ إقبال بنظم الشعر في هذه المرحلة، وتخرج في الكلية الأسكوتية وعمره زهاء اثنين وعشرين عاما (1895 م) (2).

انتقل اقبال إلى مدينة لاهور، عاصمة ولاية البنجاب، ودخل كلية الحكومة، وكان موضع الإعجاب في ذكائه وعلمه وأدبه وشعره، وتخرج فيها عام 1897 م حيث نال شهادة البكالوريوس بامتياز، ثم تابع دراسته حتى نال الماجستير في الفلسفة، وكان أستاذه فيها المستشرق الإنجليزي المعروف توماس أرنولد الذي عرف إقبالا وقدر مواهبه، فقربه وحرضه على الاستزادة من العلم (3).

أمضى الشاعر حوالي عشر سنوات مدرسا للتاريخ والفلسفة في الكلية الشرقية في لاهور، ثم نصب لتدريس الفلسفة واللغة الانجليزية بكلية الحكومة التي تخرج فيها. وقد اشتهر في هذه المدة بغزارة علمه، ودماثة خلقه، وسداد رأيه ونال إعجاب الجميع.

---

2) محمد اقبال ـ د. عبد الوهاب عزام ص 17.

3) محمد اقبال ـ عزام ص 17 ـ 25. فلسفة اقبال 13.

دوى صوت إقبال في محافل الأدب ينشد قصائده، وكانت الصحف تتسابق إلى نشرها، وألف إقبال في هذه الفترة أول كتاب له بعنوان «الاقتصاد» باللغة الأردية.

ثم عزم على التوجه نحو أوربا عام 1905 م لتلقي العلم، تطبيقا لوصية أستاذه توماس أرنولد بهذا الشأن. وكان عمره يومئذ اثنتين وثلاثين سنة، فاستقر في جامعة كمبردج لدراسة الفلسفة، وعكف على المطالعة في مكتبة الجامعة، ثم نال منها درجة في فلسفة الأخلاق، ثم سافر إلى ألمانيا فتعلم الألمانية في وقت قصير، والتحق بجامعة ميونيخ، وقدم رسالة في الفلسفة إليها بعنوان «تطور ما وراء الطبيعة في فارس» « Development Of Metaphysic in Persia » وقد أثبت إقبال في هذا الكتاب قدرته الفائقة على البحث والنظر وغزارة اطلاعه على الفلسفة.

عاد محمد إقبال من ألمانيا إلى لندن فدرس القانون والتحق بعد ذلك بمدرسة العلوم السياسية. وكأن إقبال كان يريد أن يهضم الثقافة الأوربية الحديثة من مصادرها الأصيلة.

ولم يأل محمد إقبال وهو في أوربا جهدا في لقاء العلماء والتحدث إليهم، ومداولة الرأي معهم في قضايا العلم والفلسفة، وكان في هذه الفترة كثير التحدث عن الإسلام، حيث ألقى محاضرات كثيرة حوله، نشرتها صحف واسعة الانتشار (4).

بقي إقبال في أوربا ثلاث سنوات ثم رجع إلى وطنه عام 1908 م واستقبل من أصدقائه ومحبي شعره وفضله استقبالا مشهودا. ثم استقر في

4) محمد اقبال 27 ـ 31.

لاهور واشتغل بالمحاماة، ولم يكن يقبل قضية إلا إذا تأكد أن الحق مع موكله. ولم تشغله المحاماة عن شعره وفلسفته وتدريسه في الجامعة، وحضور لجان التعليم فيها. وقد لبث سنين عميدا لكلية الدراسات الشرقية ورئيسا لقسم الدراسات الفلسفية، وكان ذا صلة دائمة بالكلية الإسلامية في لاهور. وقد دعته حكومة الأفغان إلى كابول للنظر في التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة. وقد نفذت الحكومة أكثر ما أوصى به (5).

ولم يترك إقبال الحياة السياسية، بل دخل فيها بقوة، داعيا إلى مقاومة الاستعمار الانجليزي في الهند، نافثا في الناشئة روح الجهاد والنضال، وكان شعره وما يزال أناشيد مسلمي الهند المجاهدين.

شارك إقبال مشاركة عملية في رسم سياسة بلاده، بأقواله وأعماله، ورأس مجامع سياسية، وكان فيلسوف حزب الرابطة الإسلامية. قال فيه رئيسها محمد علي جناح : «كان لي صديقا وإماما وفيلسوفا، وكان في أحلك الساعات التي مرت بالرابطة الإسلامية راسخا كالصخرة لم يزلزل لحظة واحدة قط» (6).

وإقبال هو صاحب فكرة إنشاء دولة إسلامية خاصة بالمسلمين، لما رأى صعوبة استمرار الحياة بين المسلمين والهنادكة ولما رأى من التمييز العنصري والمجازر الوحشية المستمرة التي كانت تدبر ضد المسلمين من قبل السيك والهنادكة المتعصبين. وكتب إقبال في ذلك إلى رئيس الرابطة الإسلامية محمد علي جناح : «إن خير وسيلة إلى السلام في الهند في هذه الأحوال أن تقسم البلاد على قواعد جنسية ودينية ولغوية» (7).

5) محمد اقبال 32 ـ 33.

6) محمد اقبال 37.

7) المصدر السابق 38.

واشترك إقبال في مؤتمر الطاولة المستديرة سنة 1932/1931 في لندن. وكان المؤتمر ينظر في وضع دستور جديد للهند. وكان لأقواله وأعماله أثر بين في أعمال المؤتمر، وقد مر في سفره بروما وأقام بالقاهرة أياما، ألقى خلالها محاضرة عن تطور الفكر الإسلامي في دار جمعية الشبان المسلمين.

وفي طريق عودته مر باسبانيا (الأندلس) ورأى آثار المسلمين فأوحت إليه شعرا، منه قصيدته الخالدة في جامع قرطبة، وقد استأذن حكومة اسبانيا في أن يصلي بالجامع، ولعلها أول صلاة فيه منذ غابت شمس الإسلام عن قرطبة (8).

وفي نهاية المطاف، ابتلى الشاعر الفيلسوف بأمراض كثيرة منها ما أصاب القلب. ولكنه لم يتوقف عن التفكير وقول الشعر والمشاركة في الحياة العامة إلى اللحظة الأخيرة من حياته، حيث فاضت روحه الطاهرة في التاسع والعشرين من شهر نيسان 1938 م. ودفن في فناء المسجد الجامع في لاهور مشيعا من قبل عشرات الألوف من تلامذته ومحبي شعره وطالبي فلسفته رحمه الله رحمة واسعة.

وقد رثاه كبار رجالات الهند مسلمين وغير مسلمين، لما كان يتمتع به من مكانة فكرية وأدبية رفيعة.

قال محمد علي جناح مؤسس باكستان وأول رئيس لها :

«كان شاعرا منقطع النظير طبق صيته الآفاق. وستبقى كلماته حية أبدا، وأن مساعيه لأمته وبلده لتضعه في صف أكبر كبراء الهند، وأن وفاته اليوم لخسارة كبيرة للهند عامة، والمسلمين خاصة».

---

8) محمد اقبال 41.

وقال في خطاب ألقاه في الاحتفال بذكرى إقبال في جامعة البنجاب سنة 1940 م :

«إن حييت حتى رأيت للمسلمين دولة قائمة في الهند، فخيرت بين الرياسة العليا في هذه الدولة وبين كتب إقبال لم أتردد في اختيار الثانية».

وكتب إلى ابن إقبال بعد وفاته :

«كان لي صديقا ومرشدا وفيلسوفا. وكان في أحلك الساعات التي مرت بالرابطة الإسلامية راسخا كالصخرة، لم يزلزل لحظة واحدة قط» (9).

وقال شاعر الهند الكبير الفيلسوف طاغور :

«تركت وفاة إقبال في أدبنا خلاء يشبه جرحا مهلكا، ولن يملأ إلا بعد مدة مديدة. إن مكانة الهند في العالم ليست مكينة فموت شاعر عالمي كهذا مصيبة لا تحتملها البلاد».

ومما قاله طاغور كذلك :

«لا ريب عندي أن ما ناله شعر إقبال من قبول وصيت يرجع إلى ما فيه من نور الأدب الخالد وعظمته، ويؤسفني أن بعض النقاد وضع أدبي وأدب إقبال في ميزان المنافسة، وجهدوا أن يشيعوا أغلاطهم في هذا الشأن. وهذا عمل لا يليق بالأدب الفسيح الذي يخاطب النوع الإنساني كله. لأن في ساحة الأدب العالمي يقوم الشعراء وأولو الفن في صف واحد من الأخوة الإنسانية.

---

9) محمد اقبال 47.

ويقيني أني ومحمد اقبال عاملان للصدق والجمال في الأدب. ونحن نلتقي حيث يقدم القلب الإنساني والعقل إلى عالم الإنسانية أجمل هدايا وأروعها» (10).

أما نهرو فمن ما قال في رثائه :

«لقد دهتني وفاة إقبال بصدمة هائلة. شرفت بلقاء إقبال ومحادثته منذ قليل، وكان مستلقيا على فراش المرض، ولكن كان لفكره العالي ونزعته الحرة في قلبي أثر بليغ. لقد فقدت الهند بفقد إقبال كوكبا لألأ مضيئا، ولكن شعره سيخلد في قلوب الأجيال الآتية، وذكراه العظيمة لن تموت».

تراث إقبال :

كان إقبال شاعرا عظيما، وله دواوين عدة، أودع فيها تأملاته الكونية العميقة، وفلسفته عن الحياة والمجتمع والإنسان. وكان الشاعر ينظم باللغة الأردية والفارسية، وكان يتأسف دائما لأنه لم يكن يعرف اللغة العربية بالقدر الذي يمكنه من التعبير عن آرائه ومشاعره بها.

وهذه الدواوين هي :

1 ـ 2 أسرار خودى ورموز خودى :

أي «أسرار الذاتية ورموز نفي الذاتية» وهما باللغة الفارسية، منظومتان على القافية المزدوجة «المثنوى» وهما فلسفيتان في قالب شعري

10) فلسفة اقبال 26.

رائع، نشرت الأولى سنة 1915، والثانية بعد ثلاث سنوات، ترجمها الدكتور عبد الوهاب عزام إلى اللغة العربية شعرا.

3 ـ پيام مشرق : أي رسالة المشرق.

ظهر هذا الديوان أول مرة سنة 1923 باللغة الفارسية وهو عبارة عن عشرات القصائد والرباعيات والمقطعات في موضوعات فلسفية وصوفية رمزية ونقد مذاهب شعراء الافرنج. ترجم هذا الديوان إلى العربية الدكتور عبد الوهاب عزام ونشر في باكستان سنة 1370 هـ / 1951 م.

4 ـ بانك درا :

ومعناه صلصلة الجرس نشر أول مرة 1924 م وهو باللغة الأردية، ومعظم قصائده، نظمها قبل سنة 1908 م.

5 ـ زبور عجم :

وهو ديوان يحتوي على كثير من شعره الجيد، نشره سنة 1929 م باللغة الفارسية، وموضوعاته فلسفية وفكرية وصوفية وفنون جميلة على مذهبه المعروف.

6 ـ جاويد نامه :

ومعناه «الكتاب الخالد» نشره سنة 1932 م وهو من أعمق شعره، يحتاج قارؤه إلى معرفة تامة بمصطلحات الفلسفة والتصوف وحوادث التاريخ، والديوان كله منظوم في قالب قصة سفر في الأفلاك، قائده فيها، الشاعر الصوفي المشهور جلال الدين الرومي صاحب المثنوى، يلتقي فيها مع كثير من الفلاسفة والصوفية والشعراء والملوك والساسة القدماء والمحدثين.

وقد ترجمه إلى العربية شعرا وقدم له، الـدكتور حسين مجيب المصري بعنوان «في السماء» ونشر في القاهرة سنة 1973 م.

7 ـ **مسافر** : نظم هذا الديوان باللغة الفارسية، نشره عام 1934 م، وهو عبارة عن منظومة مزدوجة سجل فيها ما جال بفكره وجاش في قلبـه حينما سافر إلى أفغانستان بدعوة من ملكهـا نـادر شـاه. ويظهر فيهـا حب إقبال العظيم لشعب أفغانستان الشجاع المحب للحرية.

8 ـ **بال جبريل** : ومعناه «جناح جبريل» باللغة الأردية، نشره سنة 1935 م.

وفي هذا الديوان قصائد رائعة، منها دعـاء في مسجـد قرطبـة ووصف جميـل لـه، وقصيـدة عن المعتمـد بن عبـاد في سجنـه، وقصيـدة في أول نخلـة غرسها عبد الرحمن الداخل في الأندلس، ودعاء طارق في المعركـة، وقصـائـد عن فلسطين والمؤامرة العالمية لابتلاعها.

9 ـ **بس جه بايد كرد أي أقوام شرق** :

ومعنـاه : «ما ينبغي أن تعمل يا أمم الشرق»، نظمه باللغة الفـارسيـة ونشره عام 1936 م، ويحتوي هذا الديوان على قصائد بليغة جـدا، تعبر عن أحزانـه لأحوال المسلمين واستعمار بلادهم، وتخلفهم عن ركب الحيـاة، ويعري إقبال في قصائد منها الحضارة الغربية وضلالها وجور ساستها وقسوة قـادتها وعدوانهم على الأمم الضعيفة.

10 ـ **ضرب كليم** :

نظمه باللغة الأردية، نشره عام 1937 م، وهو آخر ديوان له، نشر في حياتـه، حمل نظراتـه في الإسلام والتربيـة والمرأة والفنون الجميلـة والسيـاسـة وغيرها.

وهو الديوان الثاني الذي ترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام إلى اللغة العربية شعرا.

11 ـ ارمغان حجاز :

ومعناه هدية الحجاز، وقد نشر هذا الديوان بعد وفاة الشاعر، وهو باللغة الأردية والفارسية. ومن قصائده : إلى الحق (الله تعالى)، إلى الرسول، إلى الأمة، إلى العالم الإنساني، إلى رفقاء الطريق. وفيها إحدى عشرة رباعية يخاطب فيها شعراء العرب. وفيها محاورة شعرية بليغة، بين إبليس ومثيريه، يشكون فيها إبليس من مذاهب وفلسفات كثيرة منها الديمقراطية الغربية والشيوعية، وجواب إبليس بأنه لا يخشى كل ما ذكروه من المذاهب، ولكنه يخشى من يقظة المسلمين ففيها لا في غيرها القضاء على سلطان إبليس» (11).

وأما كتبه المؤلفة فهي :

1 ـ **علم الاقتصاد :** باللغة الأردية نشر سنة 1901 م.

2 ـ **تطور ما بعد الطبيعة في بلاد فارس :** نشر 1908 م وهو موضوع أطروحته التي تقدم بها إلى جامعة ميونيخ في ألمانيا ونال بها مرتبة الدكتوراه.

3 ـ **تجديد التفكير الديني في الإسلام :** نشر الكتاب سنة 1934 م. يقول إقبال عن هذا الكتاب : «ولقد حاولت في هذه المحاضرات التي أعددتها بناء على طلب الجمعية الإسلامية بمدراس وألقيتها في مدراس

11) اقبال لعزام 133 ـ 142. ديوان پيام مشرق المقدمة لعزام ص 10. ومحمد اقبال فيلسوف الإسلام وشاعر الباكستان : سجاد حيدر 12 ـ 13.

وحيدر آباد وعليكرة بأن أحاول بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناء جديدا آخذا بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة» (12).

الأسس الفكرية لحركة إقبال

إعادة النظر لبناء المجتمع الإسلامي :

رأى إقبال بفكره الثاقب واطلاعه الواسع على أوضاع المسلمين في زمانه، بأن المجتمع الإسلامي قد سقط سقطة كبيرة واستسلم في ذلة ظاهرة إلى الجراثيم التي كانت تنخر في حياته في مظاهرها كلها. ورأى إقبال مجتمعا ساكنا ذليلا لا يشعر بوجوده واستلابه من قبل المستعمرين والحكام الطغاة يومئذ.

لقد عاد المجتمع الإسلامي إلى الشرك من جديد. لقد كانت الأصنام الأولى من حجر أو خشب أما الأصنام الجديدة فمن لحم ودم.

يقول إقبال : «إن الأصنام مازال المسلمون يعبدونها حتى اليوم وإن ادعوا الإيمان بالله. وإن لهذه الأصنام صورا جديدة وألوانا شتى، وياحبذا لو علم المسلم الذي ينشد الهداية أن سجوده في الصلاة لله وحده خير له وأجدى من هذا الشرك الحديث.

فما معنى هذا ؟

«لا معنى له إلا أن المسلمين قد شاب عقيدتهم كثير من الفساد، فشوهت عقيدة التوحيد، فكان أن اتخذوا من قصور أمرائهم وحكامهم

12) تجديد التفكير الديني في الإسلام ص 2.

ومستعمريهم معابد يطوفون حولها ويحثون بأبوابها ويمرغون شرفهم وكرامتهم ومجدهم في ترابها. كما أنهم قصدوا أضرحة الأولياء وأقبية الموتى وحثوا إليها المطايا وزفوا إليها الركبان ضارعين، مستغفرين لذنوبهم ولا ذنب إلا خمولهم راجين الشفاء، والعافية والأرزاق والشفاء أقرب إليهم من حبل الوريد» (13).

فمن أجل تحريك الإنسان المسلم ومعرفة نفسه دعا إقبال إلى إعادة النظر في الذات وتقويته، ومن أجل تغيير حاله وإنقاذه من عبادة الأنداد والأصنام الجدد، دعا إلى فهم التوحيد وتمثله من جديد.

إن التوحيد الحق هو الأكسير الذي يحيل التراب ذهبا، والسر الذي يتجلى منه الدين والشرع والحكمة والقوة والسلطان وهو الدواء الذي يميت الخوف والشك ويحي العمل والأمل ويقهر كل صعب ويذلل كل عقبة.

كلمة التوحيد هي الروح في أمتنا وهي اللحن في عودنا، إذ بها الحياة وبها القوة.

يقول اقبال مخاطبا الإنسان المسلم مذكرا إياه بحقيقة التوحيد وتأثيره في صياغته :

أعـــد من مشرق التـــوحيـــد نــــارا
يتم بــــه اتحـــــاد العـــــالمينـــــا.
وأنت العطر في روض المعــــــــالي
فكيف تعيش محتبــــا دفينــــــا

13) اقبال الشاعر الثائر - نجيب الكيلاني ص 38، 39.

وأنت نسيمه فاحمل شذاه
ولا تحمل غبار الخاملينا
وأرسل شعلة الإيمان شما
وصغ من ذرة جبلا حصينا
وكن في قمة الطوفان موجا
ومزنا يمطر الغيث المتونا(14).

وإذا كان لابد من قانون يضبط سلوك المجتمع ويدير شؤونه فإن القانون الإلهي الذي هو الشريعة الإسلامية التي تدعو المسلمين إلى القوة وإثبات الذات وتحقيق العدل والإخاء والمساواة كفيلة بقيادة المسلم وإعطائه سمة الخلود.

من نظام الصوت تبدو النغمة
وهو من دون نظام ضجة
إنما في الحلق موج من هواه
يعلق النظم به فهو غناء
صاح هل تعرف ما دستورنا
كيف في الدهر مضى تدبيرنا
الكتاب الحي والذكر الحكيم
حكمة في الدهر تبقى لا تريم (15)

وفي سبيل أن تأخذ الشريعة طريقها إلى حياتنا الجديدة يؤمن إقبال بضرورة «الاجتهاد».

14) فلسفة اقبال 103.

15) اقبال لعزام 99.

ينطلق إقبال في القول بضرورة الاجتهاد من مبدأ أن الإسلام بوصفه حركة ثقافية، يرفض ما اصطلح عليه القدماء من اعتبار الكون ثابتا، لأنه يقول بأنه متحرك متغير.

ومذهب الإسلام في التغير هذا لا يصطدم مع الأبدي الخالد في أسسه ومبادئه، لأنه يوفق في تناسق رائع بين مراتب الدوام والتغير.

إن المبادئ الخالدة هي المحور الضابط الذي يثبت أقدامنا في عالم التغير المستمر.

إن الاجتهاد المقرر في الإسلام هو الإيمان بتغيير الحياة، ولكن هذا الاجتهاد ليس مطلقا، بل يجرى داخل تلك الضوابط والأسس الخالدة المقررة في القرآن والسنة (16).

وتحرير الفكر الإسلامي الحديث هو الطريق الذي يؤمن الاجتهاد ومواجهة تغييرات هذه الدنيا، ولكن اقبال يقرر هنا مبدأ مهما جدا، وهو أن لحظة ظهور الأفكار الحرة في الإسلام هي أدق اللحظات في تاريخه. فحرية الفكر من شأنها أن تنزع إلى أن تكون من عوامل الانحلال ويتساءل اقبال، فيما إذا كانت شريعة الإسلام قابلة للتطور ؟ فيجيب بأن قابلية الشريعة للتطور يثبتها تاريخ الفقه الإسلامي (17).

ويعتقد اقبال بأن التعمق في دراسة كتب الفقه الإسلامي الهائلة العدد لابد من أن يجعل الناقد بمنجاة من الرأي السطحي الذي يقول بأن شريعة الإسلام شريعة جامدة غير قابلة للتطور (18).

---

16) تجديد التفكير الديني في الإسلام ص 168 ـ 170.

17) يجب أن نلاحظ أن اقبال يستعمل الشريعة هنا بمعنى الفقه الإسلامي.

18) تجديد التفكير الديني في الإسلام ص 189 ـ 190.

والسبب الذي يدفع اقبالا إلى القول بضرورة الاجتهاد في الدين كما اجتهد الأولون، أن العالم الإسلامي يتأثر اليوم بما يواجهه من قوى جديدة اطلقها من عقالها تطور الفكر الإنساني تطورا كبيرا في جميع مناحيه (19).

ودليله في ذلك أن حكم القرآن على الوجود بأنه خلق يزداد ويترقى بالتدريج يقتضي أن يكون لكل جيل الحق في أن يهتدي بما ورثه من آثار أسلافه من غير أن يعوقه ذلك التراث في تفكيره وحكمه وحل مشكلاته الخاصة (20).

واقبال كبير الثقة بالأصول التشريعية الإسلامية ومرونتها وسعتها بحيث يقول بأننا لو درسنا شريعتنا بالنسبة للانقلاب المنتظر في الحياة الاقتصادية الحديثة ـ على سبيل المثال ـ فإن من المرجح أن نكشف في أصول التشريع عن نواح جديدة لم تكشف لنا بعد، مما يمكننا أن نطبقه بإيمان متجدد بحكمة هذه المبادئ.

ويدعو اقبال المسلمين في هذا العصر للاستفادة من أصل الإجماع في الإسلام ويقول : «إن ضغط العوامل العالمية الجديدة وتجارب الشعوب الأوربية في السياسة قد جعلت تفكير المسلمين في العصر الحديث يتأثر بما لفكرة الإجماع من قيمة وما تنطوي غليه من امكانيات.

إن نمو الروح الجماعية في البلاد الإسلامية وقيام جمعيات تشريعية فيها بالتدريج خطوة عظيمة في سبيل التقدم. ولما كانت الفرق المتعارضة تكثر وتزداد مما جعل انتقال حق الاجتهاد من أفراد يمثلون المذاهب إلى

---

19) المصدر السابق 193.

20) المصدر السابق ص 193.

هيئة تشريعية إسلامية هو الشكل الوحيد الذي يمكن أن يتخذه الإجماع في الأزمنة الحديثة، فإن هذا الانتقال يكفل للمناقشات التشريعية الإفادة من آراء قوم من غير علماء الدين. ممن يكون لهم بصر نافذ في شؤون الحياة وبهذه الطريقة وحدها يتسنى لنا أن نبعث القوة والنشاط فيما خيم على نظمنا التشريعية من سبات، ونسير بها في طريق التطور (21).

وفي سبيل إعادة بناء النفس الإسلامية والمجتمع الإسلامي الحق، دعا اقبال إلى فلسفة الذات التي سنخصص لها بحثا مستقلا في صفحات تالية.

مقاومته الاستعمار الغربي :

نشأ اقبال في الهند، بلده الذي استعمره الانجليز وامتصوا دماء أبنائه وتمتعوا بخيراته وسخروا مظاهر الحياة فيه لمصلحتهم الخاصة.

فتح اقبال عينيه منذ صغره على الظلم والتسخير والطغيان والمأساة والجهل والجوع والمرض، وعندما كبر وفهم تلك الحياة على حقيقتها، حدد موقفه من الاستعمار تحديدا حادا، بلا هدنة ولا مساومة.

يقول اقبال مصورا حقيقة الاستعمار ومباده :

إن الاستعمار منـــــــــه كل نكس
يـــالـــه ليـلا يريـــد حجب شمس
وعلـــــوم الغرب نهب يـــــــذكر
وبـــــلا حيـــــــدر دير خيبر(22)

---

21) المصدر السابق ص 200.

22) في السماء 294.

ويقول :

بئس مـــا في الغرب حقـــا حكمهم
ويـزيـد الموت مـوتـا صـورهم

يسحرون خـــدع دهر خــدعهم
من شعـــوب الأرض كان نردهم

يسرقـــــون ذا ثري ذاك كادح
بـــالعـــداء بعضهم للبعض كاشـح

يكشف السر جليـــا قـــولنـــا
سلعـــة نحن وهم تجـــارنـــا

جفنهم في المـــال حبـا قـــد جمـــد
كل أم آدهـــا ثقـــل الـــولـــد

ويلهم ! خـــوفـــا على حلـــو الثمر
يخرجـون المـــاء من جـــذع الشجر

ولكيـــلا يبعث العـــود الرنينـــا
في البطـون قتلـوا حتى الجنينـا (23)

وكان يقول :

«إلى اليوم لا يـزال الشرق ضحيـة الاستعمار والاستغـلال وإنـه لبـلاء عظيم أن يبقى الإنسان فريسة للإنسان» (24).

---

23) في السماء 114.

24) اقبال هدو 107.

ويقول :

«الاستعمار أنى حط رحاله وحيثما ألقى بعصاه يأخذ أكثر مما يعطي ويهدم أكثر مما يبني، ويفسد أكثر مما يصلح لأنه يأبى إلا أن يظل محتفظا بصولجانه متمتعا بسلطانه حائزا على أسباب الثراء والنفوذ ؟».

لقد قاوم اقبال الاستعمار البريطاني للهند وكان شعره أناشيد مسلمي الهند المجاهدين ضد الانجليز.

يقول الدكتور عزام : «ولا ريب أن شعر اقبال اشعل في النفوس ثورة على سلطان الانجليز في الهند وأمد المجاهدين بالأمل والعزم والإقدام (25).

ولم تحد اقبال حدود الهند، بل نظر إلى خارجها مصورا مأساة المسلمين جميعا بيد المستعمرين، لا بل صور مأساة الإنسان في كل مكان.

أما بالنسبة إلى المسلمين، فعندما نشبت حرب طرابلس سنة 1910 أثرت على اقبال تأثيرا عظيما، فعبر عنها بقصائد بليغة صورت المأساة، وفضحت نوايا الاستعمار الإيطالي، وضربت المثل بجهاد فتاة عربية مسلمة اسمها «فاطمة بنت عبد الله» التي استشهدت في تلك المعارك.

وعندما أطلق بلفور وزير خارجية بريطانيا وعده المشؤوم بإنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين، هاجمه اقبال، وسخر منذ تلك اللحظة شعره وقلمه لنصرة قضية العرب في فلسطين.

---

25) محمد اقبال 37.

وكان يقول : «إذا كان لليهود الحق في فلسطين، فلماذا لا يكون للعرب الحق في اسبانيا» (26).

ودعا عبر عشرات السنين إلى إنقاذ فلسطين من براثن اليهود والاحتراس من الأحابيل التي ينصبها الاستعمار، وكان ذلك قبل النكبة الكبرى التي حلت بفلسطين عام 1948 (27).

وقد عادى اقبال الحركة الصهيونية واعتبرها حركة هدامة أكثر خطورة من النازية نفسها، لأن مبدأ العنصر الممتاز التي ترتكز عليه النازية يكتفي بالآرية ولا يتقيد بديانة أبناء هذا العنصر ولا بالأرض التي يستوطنونها، ولكن الصهيونية تشترط ديانة معينة وأرضا خاصة بالإضافة إلى العنصرية، وتسعى إلى تحقيقها، ويسخر فلسفته الذاتية في إيقاظ المسلمين وتعييرهم بأنهم استكانوا إلى الاستعمار البريطاني بعد أن كانوا أسودا. فتحولوا نتيجة لذلك إلى قطيع من الخراف، يصور كل ذلك بأسلوب رمزي جميل فيقول :

كانت الاسد جهادا ملت
وتمنت منه عيش الدعة
عن هوى أصغت إلى النصح المنيم
ودهاها الكبش بالسحر العظيم
جوهر الآساد أضحى خزفا
حين أضحى قوتهن العلفا

---

26) اقبال هدو 115.

27) اقبال الشاعر الثائر ص 35.

ذهب العشب بنـــــاب عسر

اطفـــــأ الأعين ذات الشرر

هجر الصـــدر فـــؤاد مقـــدم

فـــإذا المرآة فيـــه تظلم

وذوى في القلب شـــوق العمـــل

وجنـــون السعى مـــلء الأمـــل

ذهب الإقـــدام والعـــز الأمر

والسنـــا والعـــز والمجـــد الأعـــز

برثن الفـــولاذ فيهـــا قـــد وهن

واستكان القلب في قبر البـــدن

ونمـــا الخـــوف بنقص المنـــة

قطـــع الخـــوف جـــذور النخـــوة

كل داء في سقـــوط الهمـــة

انـــه العجـــز وضعف الفطرة

نـــامت الأســـد بسحر الغنم

سمت العجـــز ارتقـــاء الفهم (28)

ويدعو المسلمين إلى أن يهبوا من نومهم العميق أمام الخطر الاستعماري الداهم فيقول :

ويلنـا من مغريـات شـابها الافرنـج صـابـا

بعثت شيرين أو برويـــز أو جنكيز آبـــا

---

28) شخصيات وتيارات 152.

فغــدا بين يـــديهم عـــالم اليــوم خرابـــا
هب يامن شدت بيت الله أو شـدت القبـابـا
هب وانشيء عـالمـا فـذا ولا تخش العقـابـا
هب يـــــامن رحت في نـــوم عميـــق
هب يـــامن رحت في نـــوم عميـــق(29)

وأما بالنسبة إلى الإنسانية، فقد ظهرت نزعتـه واضحـة قو يـة عنـدمـا هـاجمت إيطـاليـا الحبشـة في الثلاثينـات، فمـا كان من اقبـال إلا أن يرتفع صوته باستنكار ذلك الهجوم الاستعماري الوحشي، ويرسل قصـائـده البليغـة الإنسانية المؤثرة، في التنديد بالاستعمار الإيطالي.

وظهرت تلك النزعة جريئة في محاربة النازية، حيث اعتبرها فلسفـة عنصرية تحمل في طياتهـا مظـاهر الهمجيـة وتؤدي إلى بـذر بـذور الشحنـاء والفرقـة بين الشعـوب وتنتهي إلى القضـاء على معـاني الأخـوة والإنسـانيـة والسلام والعدل والمحبة بين شعوب العالم.

فلسفة الذات عند اقبال :

لإقبال فلسفة واضحة متكاملة في مسألة الذات الإنسـانيـة، وهي تعني عنده الشعور بـالشخصيـة المستقلة وعـدم استلاب الطـاقـات التي زود بهـا الإنسـان، بحيث أن كل فرد يكون بوسعـه أن يتحرك من خـلال أقصى مـا يستطيع. فعلى ذلك فإن الذاتية عنده هي قرينة الحرية المنضبطة.

---

29) درر من شعر اقبال ـ اميرة نور الدين 52.

ويصوغ اقبال هذه المسألة صياغة شعرية رائعة، فيؤكد على أن حياة العالم من قوة الذات. فالحياة على قدر ما ؛يها من هذه القوة. فالقطرة حين تقوى ذاتها تصير درة، والجبل إذا غفل عن ذاته انقلب سهلا وطغى عليه البحر.

ومذهب اقبال في هذا المجال مذهب إنساني بحت لا يخص فردا أو جماعة أو أمة، ولكنه خص الأمة الإسلامية بالحديث عن الذات، لأنها هي التي يتمثل فيها الشعور بالذات في أجلى مظاهره (30).

إن دعوة اقبال إلى تقوية الذات الإنسانية ليست دعوة إلى الأثرة والعجب والانوية وما يتصل بها وإنما هي دعوة لإحياء حقيقة الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض لاحيائها واستعمارها وإنشاء الحياة والتقدم فوقها.

إن الحياة في نظر اقبال كلها فردية وليست للحياة الكلية وجود خارجي. حيثما تجلت الحياة في شخص أو فرد.

إن هدف الإنسان الديني والأخلاقي هو إثبات ذاته لا نفيها. ويستند إقبال في فلسفته هذه على قول للرسول الكريم ﷺ وهو «تخلقوا بأخلاق الله» فكلما شابه الإنسان هذه الذات الوحيدة، كان هو كذلك فردا بغير مثيل.

ويوضح اقبال نظرته هذه، فيتساءل : ما الحياة ؟ فيجيب بأن الحياة أمر فردي وأعلى أشكاله «انا» وبها يصير الفرد مركز حياة، مستقلا

---

30) اقبال لعزام ص 14، 15.

قائما بنفسه. فالإنسان من الجانبين الجثماني والروحاني مركز حياة قائم بنفسه، ولكنه لما يبلغ مرتبة الفرد الكامل وتنقص فرديته على قدر بعده من الخالق، والإنسان الكامل هو الأقرب إلى الله تعالى.

الحياة رقي مستمر، تسخر كل الصعاب التي تعترض طريقها. وحقيقتها أن تخلق دائما مطالب ومثلا جديدة. وقد خلقت من أجل اتساعها وترقيها آلات كالحواس الخمس والقوة المدركة لتقهر بها العقبات والمشقات (31).

وأشد العقبات في سبيل الحياة، المادة أو الطبيعة، ولكن المادة ليست شرا كما يقول حكماء الإشراق، بل هي تعين الذات على الرقي. فإن قوى الذات الخفية تتجلى في مصادمة هذه العقبات. وإذا قهرت الذات الصعاب كلها التي في طريقها بلغت منزلة الاختيار. الذات في نفسها في اختيار وجبر، ولكنها إذا قاربت الذات المطلقة نالت الحرية الكاملة. والحياة جهاد لتحصيل الاختيار ومقصد الذات أن تبلغ الاختيار بجهادها (32).

وإذا سألنا اقبالا كيف نقوي ذاتنا ؟ أجابنا : أن الذات تتقوى بما يلي :

الأول : تقوية الذات تكون بخلق المقاصد والغايات، لأن عدمها يميت الذات ويحيل الإنسان إلى ريشة في مهب الريح.

إن الذاتية على قدر عظم مقاصدها تعظم، وعلى قدر المشقة التي تحتملها تقوى.

---

31) محمد اقبال لعزام 55، 56.

32) المصدر السابق 57.

إن بلوغ المقاصد والغايات يتوقف على فضيلتين :

الأولى : هي الأمل، لأنه الحياة بعينها والثانية : هي الجهاد الدائب وهو حافظ تلك الحياة.

يقول اقبال :

إنما يبقى الحياة المقصد
جرس في ركبها ما تقصد
أصلها في أمل مستتر
سرها في السر منها يضمر
أحي في قلبك هذا الاملا
أو يحل طينك تربا مهملا
فحياة القلب من نار الرجاء
ما سوى الحق لدى القلب هباء (33)

الثاني : إن عشق الأمل وعشق المثل الأعلى يفتق عن الذاتية قواها الكامنة، وإذا استحكم العشق لم يحل بين الإنسان وأمله عقبة ولا مشقة ولم تأخذه فيه رغبة ولا رهبة وسخر الإنسان قوى العالم.

يقول اقبال :

زائد بالحب في الذات رواء
وحياة واشتعال وبقاء

---

(33) المصدر السابق 76.

مشعـل بـالحب منهـا الجـوهر
يتجلى من قـواهـا المضر
لا يهـاب العشـق في السيف المضـاء
ليس من مـاء وترب وهـواء
هـو في العـالم حرب وسـلام
وهـو مـاء لحيـاة وحسـام

والذات في نظر اقبال تضعف بالسؤال، لأن السؤال فيه المذلـة، بينما الثقة بـالنفس والاعتـداء بها والاعتماد عليها والاستغنـاء بها يقوي الـذات، والشك فيها والالتجاء بها إلى الناس وحملها عليهم يضعفها :

أيهـا الجـابى من الميت الخراج
صرت كالثعلب حيـا بـاحتيـاج
ذلـك الاعـواز أصـل العلـل
كل ادوائـك من ذا المعضـل
من كنـوز الـدهر اخرج مـا تريـد
وخـذ الصهبـاء من دن الـوجـود (34)

وأما تربية الذات فتكون بالطاعة وضبط النفس والنيابة الإلهية.

أما الطاعة، فهي للشريعة الإلهية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ومن خلفها.

---

34) المصدر السـابق 78.

وأما ضبط النفس، فينفي الخوف والشهوات. والضابط هو التوحيد الذي ينفي عن النفس الاستكانة للمخاوف والمطامع.

وأما النيابة الإلهية : فهي مرحلة يكون الإنسان فيها مسيطرا على العالم مسخرا قوى الكون نافخا الحياة في كل شيء مجددا شباب كل هرم، يهب الحياة باعجاز العمل ويجدد مقاييس الأعمال ويرد العالم إلى الإخاء والسلام (35).

إن السبب الأساس الذي دفع إقبالا للدعوة إلى تأكيد الذات أنه وجد المسلمين قد تخلفوا كثيرا عن ركب الحياة، لا سيما المشاركة الفعالة في تحقيق خلافة الله على الأرض بتسخير الطبيعة وقوانين الوجود.

لقد اهملوا تنظيم الحياة الاجتماعية وانصرفوا عن الاستفادة من قوانين المادة ظنا منهم أن الانصراف عن ذلك يقربهم من حقيقة الإسلام، على أساس أن الحياة المادية شر يجب تجنبها.

لقد أراد اقبال أن يدفع الإنسان المسلم إلى الحركة والعمل والبناء ووضوح الشخصية بإثبات الذات.

وأراد عن طريق فهم الإسلام نفسه أن يدفعه إلى فهم أن العالم الذي نعيش فيه ليس أمرا مغايرا تماما للإنسان ولا بعيدا عن روح الله ووجود ذاته المقدسة (36).

إذن فقد اراد اقبال بنظريته عن الذات أن يعالج أوضاع المسلمين المتخلفة التي كانت مظهرا من مظاهر إيمانهم بالتصوف العجمي ـ على حد

---

35) المصدر السابق 83، 84.

36) الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهى 379 ـ شخصيات وتيارات 147.

تعبيره ـ الذي كان قائما على أساس وحدة الوجود، الفلسفة التي سلبتهم العمل والحركة في الحياة (37).

ومن هنا فإنه سخر شعره لدعوة المسلمين إلى الشعور بالذات وتقويتها واليقظة التامة لإعادة دورهم الخير والحضارى في العالم.

كرهت سيادة الافرنج لكن
سجودك للقباب وللقبور
ألفت عبادة السادات حتى
لتنحت سادة لك من صخور
إلام تعيش في رث الاهاب
إلام تعيش تملأ في تراب
فطر كالصقر معتزما وحلق
إلام اسيرحب في اليباب (38)

ويقول مخاطبا الإنسان المسلم :

قم فسكن من ضجيج الأمم
واملأ الآذان حلو النغم
جددن في الناس قانون الإخاء
وأدرها كأس حب وصفاء
ارجعن في الناس أيام الوئام
ابلغ الناس رسالات السلام
لبنى الإنسان أنت الأمل
أنت من ركب الحياة المنزل

37) محمد اقبال 56. الفكر الإسلامي الحديث 433.

38) پيام مشرق ص 22.

أذبلت كف الخريف الشجرا
فـاغـد في الروض ربيعـا نضرا (39)

موقفه من التصوف :

نشأ اقبـال نشـأة صوفيـة، لأنـه ولـد وتربى في أسرة كان للتصوف أثر كبير في حياتها منذ دخولها في الإسلام على يد أحد المتصوفـة الصـالحين قبل بضع مئات من السنين كما مر بنا في حياته.

وقد زادته فلسفة أوربا نزوعا إلى الزهد والتصوف، لأن فلسفة أوربـا في جملتها تتوجه إلى وحدة الوجود كما يقول (40)، غير أن اقبال أعـاد النظر في جوانب من صوفيته، وتراجع عنها.

يقـول اقبـال «إنى بفطرتي وتربيتي انـزع إلى التصـوف. وقـد زادتنى فلسفة أوربا نزوعـا إليـه. فـإن فلسفـة أوربـا في جملتهـا تـدعو إلى وحـدة الوجود، ولكن تدبر القرآن المجيد ومطالعة تـاريخ الإسلام بـإمعـان أشعراني بغلطي. ومن أجـل القرآن عـدلت عن أفكاري وجـاهـدت ميلي الفطري، وحدت عن طريق آبائي».

إن الرهبانية ظهرت في كل أمـة وعملت لابطـال الشريعـة والقـانون. والإسلام في حقيقته هو دعوة إلى استنكار هذه الرهبـانيـة. والتصوف الـذي ظهر بين المسلمين ـ أعني التصـوف الإيراني ـ أخـذ من رهبـانيـة كل أمـة. وجهد أن يجذب إليه كل نحلة، حتى القرمطيـة التي قصـدت إلى التحلل من الأحكام الشرعية لم تعدم نصيرا من الصوفية.

---

(39) شخصيات وتيارات 159.

(40) محمد اقبال لعزام 63.

إن حالة السكر (في اصطلاح الصوفية) تنافر الإسلام وقوانين الحياة. وحالة الصحو وهي الإسلام، موافقة قوانين الحياة، وإنما قصد الرسول ﷺ إلى إنشاء أمة صَاحِيَةٍ، ولهذا تجد في صحابة رسول الله الصديق الأكبر والفاروق الأعظم ولا تجد حافظا الشيرازي (41).

إن فلسفة اقبال تصر على أن لذة الحياة مرتبطة باستقلال «أنا» وبإثباتها وإحكامها وتوسيعها وأن هذا الاستقلال لن يتم إلا بالعمل لأنه هو الذي يثبت «أنا» فمن هنا ينكر اقبال فلسفة وحدة الوجود الصوفية لأنها أدت إلى الغاء «أنا» وإنكار العمل وهي فلسفة مخالفة لمبادىء الإسلام التي دعت إلى تقوية «أنا» وقدست العمل الإنساني. ومن جهة أخرى فإن هذه الفلسفة مخالفة للقرآن لأنه وضع الفارق بين الخالق والمخلوق (42).

يقول اقبال «وأصل المسألة أن الصوفية أخطأوا خطأ كبيرا في فهم التوحيد ووحدة الوجود. ليس هذان الاصطلاحان مترادفين كما توهموا. فالأول مفهوم ديني والثاني فلسفي محض. ليس التوحيد ضد الكثرة، كما يظن بعض الصوفية بل هو ضد الشرك وأما وحدة الوجود فهي ضد الكثرة. وكانت نتيجة هذا الغلط أن عد من الموحدين طائفة ذهبوا إلى وحدة الوجود - أو التوحيد في اصطلاح فلسفة أوربا الحاضرة - على حين أن المسألة التي ذهبوا إليها لا تتعلق بالدين بل بحقيقة نظام العالم.

إن تعليم الإسلام واضح بين، هو أن ذاتا واحدة تستحق العبادة وأن كل الكثرة التي ترى في العالم مخلوقة.

---

41) المصدر السابق 63.

42) فلسفة اقبال 52 - 54. شخصيات 148 - 152.

ليست عقيدة وحدة الوجود من القرآن. فإن القرآن يبين المغايرة التامة بين الخالق والمخلوق (43).

وأما من الناحية العملية فقد نقد اقبال صوفية عصره نقدا لاذعا. وكان ينكر بدع الموالد والاتجار بالأضرحة ومقابر الأولياء.

يقول اقبال عن المشرفين على هذه الأضرحة :

«إنهم لو وجدوا حصير الزهراء ودلفه أويس القرني وكسرة أبي ذر الغفاري، لأكلوا السحت من أثمانها» (44).

وعلى الرغم من آرائه تلك، فإن اقبالا ظل في حياته وسلوكه، صوفيا صالحا صافيا متمسكا بأوامر الشريعة داعيا إلى العمل والحركة، عاشقا للروح يؤمن بالمعرفة الصوفية، وأسرارها الربانية طريقا من طرق المعرفة في الوجود.

يقول الأستاذ العقاد «إن اقبالا لم يتصوف ليرفض الحياة، بل تصوف ليقبل على الحياة ويأخذ منها خير ما تعطيه.

ولقد تعود الناس أن يكون التصوف مرادفا للزهد والاعراض عن الدنيا فمن تصوف لم يعمل ولم يكن له هم من هموم الحياة.

أما تصوف اقبال فهو غير هذا ونقيض هذا. وما من حافز إلى العمل للحياة أقوى من هذا الحافز في أعماق الضمير.

إن تصوف اقبال هو رفض الحياة الصغيرة في سبيل الحياة الكبيرة أو هو رفض المطامع والشهوات في سبيل المثل الأعلى والطموح الأرفع أو هو

43) محمد اقبال لعزام 64.

44) فلسفة اقبال 23.

رفض العرض الكاذب في سبيل الجوهر الصحيح، فليس التصوف هنا نبذا للحياة بل سموا بالحياة إلى أعلاها وأبقاها، وليس في هذا التصوف مسكنة ولا متربة وإنما هو العزة كل العزة والإباء كل الإباء (45).

موقفه من الحضارة الغربية :

اتصل اقبال بحضارة الغرب اتصالا وثيقا، فراقب عن كثب، تطورات الحياة الأوروبية، ولكنه لم يعجب بحضارتها، لا بل نقدها نقدا علميا واقعيا، وصور ثغراتها تصويرا شعريا بارعا. فما أنشده قبل عودته إلى الهند قوله :

«يا ساكني ديار الغرب ليست أرض الله حانوتا. إن الذي توهمتموه ذهبا خالصا سترونه زائفا وإن حضارتكم ستبخع نفسها بخنجرها. إن العش الذي يبنى على غصن دقيق لا يثبت كالفاكهة الناضجة، أوربا آيلة إلى السقوط، دعنا نر في أية مرحلة من السباق ستسقط (46).

ويفلسف اقبال نظرته الشعرية الجميلة هذه، فيقدم دليلا واقعيا على افلاس الفلسفات العقلية المادية التي تقود الحضارة الغربية معتقدا أن الدين هو أقدر في بناء الحياة من مجرد النظرات العقلية «إن الإنسانية تحتاج اليوم إلى ثلاثة أمور : تأويل الكون تأويلا روحيا وتحرير روح الفرد ووضع مبادىء أساسية ذات أهمية عالمية توجه تطور المجتمع الإنساني على أساس روحي. ولا شك في أن أوربا في العصر الحديث قد اقامت نظما مثالية على هذه الأسس، ولكن التجربة بينت أن الحقيقة التي يكشفها العقل المحض لا

---

45) اقبال الفيلسوف ـ إذاعة باكستان عدد 54 ص 8. راجع مقالته (فريضة اسلامية) من مجموعة (محمد اقبال) نشر سفارة الباكستان في القاهرة 1956 م.

46) Introduction to the thought of iqabl. لمؤلفه Luce Claude Maitre

قدرة لها على اشعال جذوة الإيمان القوي الصادق، تلك الجذوة التي يستطيع الدين وحده أن يشعلها.

وهـذا هو السبب في أن التفكير المجرد لم يـؤثر في النـاس إلا قليـلا في حين أن الدين استطاع دائمـا أن ينهض بـالأفراد ويبـدل الجمـاعـات بقضهـا وقضيضها وينقلهم من حال إلى حال.

إن مثالية أوربـا لم تكن أبـدا من العوامل الحيـة المؤثرة في وجودهـا، ولهذا أنتجت ذاتا ضالة أخذت تبحث عن نفسها بين ديمقراطيـات لا تعرف التسامح. وكل همها استغلال الفقير لصـالح الغني. وصـدقوني أن أوربـا اليوم هي أكبر عـائق في سبيل الرقي الأخلاقي للإنسـان. أمـا المسلم فـإن لـه هـذه الآراء النهائية القائمة على أسـاس من تنزيل يتحـدث إلى النـاس من أعمـاق الحياة والوجود. وما تعني به هذه الآراء من أمور خارجية في الظاهر يترك أثره في أعمـاق النـاس. والأسـاس الروحي للحيـاة عنـد المسلم هـو إيمـان يستطيـع أقلنـا استنـارة أن يسترخص الحيـاة في سبيلـه. وبمـا أن القـاعـدة الأساسية، في الإسلام تقول إن محمدا خاتم الأنبياء والمرسلين، فإنـه ينبغي أن نكـون من أكثر شعـوب الأرض في الحريـة الإنسـانيـة والرعيـل الأول من المسلمين الذين تخلصوا من الرق الروحي في آسيـا الجـاهليـة لم يكونوا بحيث يستطيعون إدراك المعنى الصحيح لهذه القاعـدة الأسـاسيـة. فعلى المسلم اليوم أن يقدر موقفه. وأن يعيد بناء حياته الاجتماعية في ضوء المبادىء النهائيـة. وأن يستنبط من أهداف الإسلام التي لم تتكشف بعد إلا تكشفا جزئيا تلك الديمقراطية الروحية التي هي منتهى غاية الإسلام ومقصده (47).

---

47) تجديد التفكير الديني في الإسلام 207، 208.

ويذهب اقبال إلى أن الإنسان الغربي بمذهبه المادي سخر الطبيعة وتفوق عليها ولكنه أدرك من الحقيقة نوعا منها فقط. وهي نوع الحقائق الجزئية. أما الحقيقة الكلية وهي حقيقة الذات المطلقة فلم يصل إليها، بل أنكرها وكان إنكاره اياها سبب شقوته وقلقه واضطرابه وأنكرها لأنه أراد أن يستخدم ذات الوسيلة التجريبية التي يستخدمها في كشف الحقائق الجزئية. وهي حقائق الواقع أو الطبيعة في كشف تلك الحقائق الكلية فأخفق ثم أنكر (48).

وبناء على ذلك فإن الفرد في ظل الحضارة الأوربية الحديثة قد طغت عليه نتائج نشاطه، فلم يعد يعيش بروحه ويكاد لا يحس حياة الباطن. فهو في مجال الفكر يعيش في صراع مع نفسه وفي مجال السياسة والاقتصاد يعيش في نزاع مع غيره. وهو يجد نفسه في أغلب الأحيان عاجزا عن ضبط أنانيته وشهواته وتكالبه على المادة تكالبا لا يعقبه غير الحسرة والشقاء (49).

ويصل اقبال إلى النقطة الجوهرية في الموضوع، فيؤكد على أن الدين والحضارة تصارعا في الغرب، فحتى يحتفظ الدين بذاته ابتعد عن الواقع، وانتهى إلى أن خلاص الإنسان يكمن في البحث عن مستقر للحياة الروحية قائم بنفسه في داخل النفس ذاتها. وهذا كان يعني الفصل التام بين القوى الروحية والقوى المادية. وفي رأي اقبال أن الإسلام يقر هذه النظرة تماما (أي نظرة البحث عن مستقر للحياة الروحية) ويكملها بنظرة أخرى هي

---

48) الفكر الإسلامي الحديث 389.

49) تجديد التفكير الديني 215.

أن النور الذي يضيء هذا العالم الجديد المتجلي على هـذا النحو ليس غريبـا عن عالم المادة بل هو متغلغل في أعماقه (50).

وبعد استعراضه الآيات التي تدعو إلى النظر والتـأمل في آيـات اللـه الكونية يقول : «ولا شك أن أول مـا يستهـدفـه القرآن من هـذه الملاحظـة التـأمليـة للطبيعـة هو أنهـا تبعث في نفس الإنسـان الشعور بمن تعـد هـذه الطبيعة آية عليه. ولكن ما ينبغي الالتفات إليه هو الاتجاه التجريبي العام للقرآن، ممـا كون في اتبـاعـه شعورا بتقـدير الواقـع وجعـل منهم آخر الأمر واضعي أساس العلم الحديث. وإنه لأمر عظيم حقـا. أن يوقـظ القرآن تلـك الروح التجريبية في عصر كان يرفض عالم المرئيـات بوصفـه قليل الغنـاء في بحث الإنسان وراء الخالق (51).

وقـد لاحـظ اقبـال أن المـدنيـة الحـاضرة تتنكر للمبـادىء الإنسـانيـة والأخلاقيـة والتشريعيـة التي أتى بهـا الإسـلام والـذي أراد بهـا إقـامـة صرح الاتحاد بين القلوب ومدّ ظلال الأمن بين الشعوب.

ويـذهب إلى أن الأفكار السيـاسيـة لأمم الغرب أحـدثت انقلابـا لم يقتصر شره وشروره على الهنـد وحـدهـا، بل انـدلـع لهيبـه وأحـاط بـالعـالم الإسلامي كله. ويود شباب المسلمين اليوم تطبيق هذه المبادىء وإقرارها في حيـاتهم العمليـة، وهم ينسـاقون إلى ذلـك مسرعين دون أن يتبينوا البواعث من العلل والأسباب التي حملت أمم الغرب على اعتناق تلك المبادىء (52).

---

50) فلسفة اقبال 28.

51) تجديد التفكير الديني 21.

52) فلسفة اقبال 28.

ويخشى اقبال كذلك أن يؤذي المظهر الخارجي البراق للثقافة الأوربية التي تتمثل في حصر سبيل المعرفة بالعلم التجريبي إلى شل تقدم المسلمين، فيعجزوا عن بلوغ كنهها والاستفادة من تسخيرها للقوى المادية.

إذن كيف يجب أن يكون موقف العالم الإسلامي من الحضارة الحديثة. يجيب اقبال على ذلك فيقول : «إن يقظة الإسلام يجب أن يصاحبها تَمْحِيصٌ بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوربي وكشف عن المدى الذي تستطيع به النتائج التي وصلت إلى أوربا أن تعيننا في إعادة النظر في التفكير الديني في الإسلام وعلى بنائه من جديد (53).

د. محسن عبد الحميد

---

53) تجديد التفكير الديني ص 71 ـ 74.

المراجع

1 ـ پيام مشرق ـ محمد اقبال ـ ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام الأولى ـ كراجي 1370 هـ.

2 ـ في السماء (جاويدنامه) ترجمة الدكتور حسين مجيب المصري مكتبة الانجلو المصرية 1973 م.

3 ـ درر من شعر اقبال ـ ترجمة أميرة نور الدين ـ الأولى بغداد 1371 هـ ـ 1951 م.

4 ـ تجديد التفكير الديني في الإسلام ـ محمد اقبال ـ ترجمة عباس محمود القاهرة ـ الثانية 1968 م.

5 ـ محمد اقبال ـ حياته وشعره وفلسفته ـ الدكتور عبد الوهاب عزام. القاهرة 1373 هـ 1954 م.

6 ـ اقبال الشاعر الثائر ـ نجيب الكيلاني. الأولى. القاهرة 1959 م.

7 ـ اقبال الشاعر والفيلسوف والإنسان ـ حميد مجيد هدو. الأولى النجف 1383 هـ ـ 1963 م.

8 ـ فلسفة اقبال ـ محمد حسن الاعظمي ـ الصاوي علي شعلان الثانية ـ دمشق 1395 هـ ـ 1975 م.

9 ـ محمد اقبال ـ لمجموعة من كبار الكتاب في مصر. القاهرة 1956.

10 ـ محمد اقبال فيلسوف الإسلام وشاعر باكستان ـ محاضرة سجاد حيدر. القاهرة 1967.

11 ـ إذاعة باكستان عدد 1954/54 م عـدد خـاص بعنوان (اقبـال شـاعر الإسلام وفيلسوفه الخالد).

12 ـ الفكر الإسـلامي الحـديث ـ الـدكتـور محـد البهي. الأولى. القـاهرة 1957.

13 ـ شخصيات وتيارات ـ أحمد خالد. الأولى ـ مكتبة الشامي ـ سوسه ـ تونس.

14 ـ Introduction To The Thought Of Iqbal Luce Daudr Maitre. T. By M.A.M Dar V.I – Karachi

د.م.ع.ح.

حول كنز صغير حديث الاستكشاف

عبد العزيز توري

تم مؤخرا بقرية «إيفغ» بالقرب من «أغبالو - ن كردوس» (1)، إكتشاف كنز صغير يتكون من اثني عشر قطعة ذهبية، تعود كلها الى عهد الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي (525 - 558 هـ). وقد جاء هذا العثور بالصدفة عندما أخذ أحد الفلاحين في حفر خندق صغير لبناء أساس جدار أراد به حدّ حقله من جهة الواد، فوقف على القطع الإثنى عشر، مدفونة تحت الأرض، لا يأويها وعاء ولا صندوق (2). ورغم أنها بقيت طويلا في احتكاك مباشر مع التربة فإنه لم يحدث عليها أي تغيير، إذ بقيت على حالها، كاملة الجوانب، واضحة الكتابات، اللهم ما يتعلق بالقطعة 11، التي يظهر أن ضربا خفيفا مسها وأدى إلى محو قسم من كتابات السطرين الأولين من كل واجهة.

1) دائرة «كولمية»، عمالة الرشيدية.

2) هذا ما استفدناه من تقرير حامية الدرك الملكي التي تسلمت النقود والمؤرخ بيونيو 1983. ونتتهز هنا الفرصة، لتقديم شكرنا البالغ لهيئة الدرك الملكي، على المجهودات الكبيرة التي تقوم بها لمساعدتنا على إنقاذ تراثنا الثقافي بشتى أنواعه. أما المجرى المائي فهو «واد إيفغ».

ومجموع هذه النقود مستديرة الشكل، تحدها من كل واجهة دائرتان، الخارجية منها مُنكّتة، تحيطان بثلاث مربعات (3) الأوسط منهم مُنكّت كذلك.

ويعتبر هذا الشكل الذي يجمع ما بين الدائرة والمربع، تجديدا في السكة الإسلامية؛ فإن كانت النقود عند من سبق الموحدين من الدول الإسلامية شرقا وغربا مستديرة الشكل أو مربعته، فإنه لم يحدث أن جمعت النقود - ما عدا في حالة واحدة (4) حسب ما نعرفه - بين الشكلين الهندسيين، الدائرة والمربع، في القطعة النقدية الواحدة. وبذلك يكون الموحدون أول من اختار هذا النموذج والتزم به وأقره طيلة وجود حكمه.

وظهور المربع في النقود الموحدية كما هو معروف، لا يقتصر على الدينار الذهبي، حيث لا يعدو أن يكون شكلا يتوسط القطعة، وإنما هو الشكل الذي اختارته الدولة لنقودها الفضية. وفي هذا الإختيار قصة تداولها المؤرخون، مفادها أن مالك بن وهيب العلامة الأندلسي الذي كان ببلاط الأمير علي بن يوسف المرابطي، كان أول من تنبأ بعظمة ابن تومرت وحذر منه الأمير بقولته الشهيرة «إحتفظوا بالدولة من الرجل، فإنه صاحب القرآن والدرهم المربع» (5).

---

3) هناك قطعتان بها أربع مربعات هما القطعة 2، والقطعة 6.

4) يتعلق الأمر بفلس نحاسي ضرب باسم الوليد بن تليد في مدينة الموصل ما بين 114 و121 هـ (732 - 738 م)، جمع على إحدى واجهتيه ما بين المربع والدائرة. أنظر :

Ben Romdhane, Les Monnaies almohades, aspects idéologiques et économiques, T. II, p. 39.

5) أنظر ابن خلدون، **كتاب العبر**،

والناصري، **الاستقصا**، ج 2، الدار البيضاء، 1954، ص 84. وغيرهما.

وإذا ما رجعنا إلى النقود التي بين أيدينا، فإن مقاييسها وأوزانها (أنظر جدول 1) تجعلنا أمام دنانير ذهبية من الفترة الأولى للدولة الموحدية. ذلك أنه من المعروف أن تاريخ السكة الموحدية، ينقسم إلى مرحلتين أساسيتين، تمتد الأولى منهما من بداية أمر الدولة إلى عهد الخليفة يعقوب المنصور (580 ـ 595 هـ)، وفيها ضربت الدنانير الذهبية بوزن 2,3 غرام، وتبدأ الثانية بتولي هذا الأمير أمور الرعية وضربه لدينار أصبح وزنه ضعف وزن الأول، أي ما يعادل 4,72 غراما (6).

تحمل هذه النقود كتابات نقشت بحروف نسخية جميلة، لتشغل الأماكن الوسطى المحددة بالمربع الداخلي، والمساحات المدارية، المنحصرة ما بين أضلاع المربع الخارجي وخط الدائرة الداخلية. وقراءة هذه النقوش تفيد ما يلي :

الوجـه		الظهـر	
مأثورة المربع :	المهدي امام الأمة القائم بأمر الله.	المربع :	لا إله إلا الله محمد رسول الله
مأثورة المدار (7)	أبو محمد عبد المؤمن بن علي أمير المؤمنين (8) الحمد لله رب العالمين.	المدار :	بسم الله الرحمان الرحيم صلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

(6 راجع : R. Brunschvig, Esquisse d'histoire monétaire almohado - hafside, Etudes d'Islamologie, T. I, pg.72

مجموع هذه الكتابات نقشت بخط نسخي جميل، جاءت حروفه بـارزة واضحة، لا يصاحبها من عنـاصر الزخرفـة إلا القليل، إذ لا نسجل منهـا إلا رمـوزا صغيرة لخوصـة نخـل، أو زهـور مثلثــة كا هـو الشــأن على واجهتي القطعة (7).

إلى جـانب ذلـك هنـاك حروف تتخــذ أشكالا تـوحي ببعض النماذج الزخرفية المعروفة في المعمار الموحدي. أحسن مثـال لـذلـك، «الميم» النهـائيـة لكل من كلمتي بسم وامام (9) التي تأخذ شكلا «ثعبانيـا عموديـا» (10)، وهو نفسه السائد في أسفل أقواس العمارة الموحدية (11).

---

7) إخترنا بخصوص المصطلحات، الكلمات التي يستعملها الأستاذ أبو الفرج العش، أنظر مقالـه : **المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية**، المجلة العربية للثقافة، نشر المنظمـة العربيـة للتربية والثقافة والعلوم، السنة الأولى، عـدد 1، 1981، ص ـ 181 ـ 202، أنظر هـامش 13، ص 188.

8) عن الألقـاب عنـد المـوحـدين أنظر : د. محمـد بـاقر الحسيني، **الكني والألقـاب على نقـود دولتي المرابطين والموحدين في شمال إفريقيـا والأنـدلس**، سومر، م. 30، ج ـ 1 ـ 2، 1974، ص ـ 223 ـ 272 ـ (عن عبد المومن أنظر ص ـ 233 ـ 234).
يـذكر هـذا المـؤلف (ص 225) أن ألقـاب الخـلافـة (الإمـام ـ أمير المـؤمنين ـ الخليفـة) كانت «مقتصرة على الخلفاء في المشرق حتى نهايـة القرن الثـالث الهجري (التـاسع الميلادي «وأن أول من تجرء واتخذها له الفـاطميون سنـة 317 هـ، ثم تبعهم أموي الأنـدلس إبتـداء من 350 هـ «ولكنهم جميعا **لم ينقشوه على نقودهم** بل ظهر مؤخرا لعبد المومن بن علي (مؤسس دولـة الموحدين) على نقود أولاده من بعده».
لكن المؤلف يتنـاقض مـع مـا سبـق ـ فيا يخص هـذا اللقب على النقـود ـ إذ يشير (ص 226 وهـامش 1، نفس الصفحـة) استنـادا إلى زامبـاور (ص 113) إلى «أن المرابطين إتخــذوا لقبي (السيـد) و(أمير المؤمنين)، والنقـود لا تـوضـح ورود اللقب الأول عليهـا، **ولكنهـا تـوضـح اللقب الثاني على نقود يوسف بن تاشفين»**.

9) انظر على سبيل المثال القطع 4، 5، 8 الخ...

رقم القطعـــة	قطرهـــا	وزنهـــا
1	2,01 سنتمتر	2,40 غرام
2	2,00 سنتمتر	2,40 غرام
3	2,00 سنتمتر	2,40 غرام
4	1,95 سنتمتر	2,30 غرام
5	1,99 سنتمتر	2,30 غرام
6	1,98 سنتمتر	2,30 غرام
7	2,05 سنتمتر	2,40 غرام
8	1,95 سنتمتر	2,40 غرام
9	2,00 سنتمتر	2,40 غرام
10	1,92 سنتمتر	2,40 غرام
11	1,98 سنتمتر	2,40 غرام
12	2,00 سنتمتر	2,30 غرام

جدول ـ 1 ـ مقاييس وأوزان القطع.

---

(10) إخترنا هذا المصطلح لترجمة الجملة الفرنسية : motif serpentiforme

(11) أشرنا في مقال آخر إلى ما قد نستنتجه من دراسة مقارنة للنماذج والأشكال التي تتخذها المنجزات الزخرفية في المعمار والفنون الصغرى وما ينقش على النقود. أنظر :

- J.H. Benslimane, F. Rigaud, A. Touri et al., Numismatique et analyse en Laboratoire : détermination de la teneur en or de monnaies musulmanes anciennes par activation neutronique à l'aide d'une source de californium 252, à paraître dans B.A.M. XV.

اسم المدينة	رقم القطعة	قراءة مؤكدة	قراءة تقريبية	الواجهة الحاملة لإسم المدينة	ملاحظات
فاس	4	×	×	الواجهتان	دون وجود كلمة مدينة
	5		×	الظهر	دون كلمة مدينة
	6		×	الظهر	دون كلمة مدينة
	7		×	الوجه	دون كلمة مدينة
	10		×	الظهر	دون كلمة مدينة
	11		×	الظهر	دون كلمة مدينة
	12		×	الظهر	دون كلمة مدينة
مراكش	8	×		الوجه	مصحوب بكلمة مدينة
سلا	1		×	الوجه	مصحوب بكلمة مدينة
مجهول	2				
	3				
	9				

جدول 2 ـ مدن الضرب

أما بخصوص الخط النسخي نفسه، الذي لم يكن معهودا في السكة الإسلامية من قبل، فقد احتد النقاش حول ظهوره في بلاد الغرب الإسلامي، ليس على النقود فحسب، وإنما في كل معالم الحضارة من بنايات وغيرها. فكان أن أكد «ماكس فان بيرشيم» Max van Berchem أن أول من أدخله في العملة وعمل على نشره هو عبد المومن الموحدى (12).

(12 انظر : Max Van Berchem, L'épigraphie musulmane en Algérie, Revue Africaine, 1905.

وإذا أردنا أن نحصر الكلام عن العملة فقط، أثرنا الإنتباه إلى أن الموحدين لم يكونوا في هذا الباب، كما في كثير غيره، سوى وارثين لدولة لمتونة. ذلك أن الخط النسخي طبع نقودا مرابطية من عهد يوسف بن تاشفين قبلهم (13)، وإن لم يأخذ مكانه في السكة بصفة نهائية، فذلك راجع في اعتقادنا إلى تطبع علي بن يوسف، من بعد أبيه، بمظاهر الحضارة الأندلسية، التي لم يكن للخط النسخي فيها، سوى مكانة ثانوية (14). ولما جاء الموحدون وأقرو الخط النسخي بصفة رسمية، أعتبر قرارهم تجديدا في السكة الإسلامية ومظهرا آخر من مظاهر الإنفصال عما كان معهودا لدى من سبقهم من الدول الإسلامية شرقا وغربا (15).

بقي أن نشير في الأخير إلى أن مجموع هذه النقود، التي مكنتنا من الإحاطة بما سبق من معلومات بخصوص موضوع ضرب السكة في عهد الموحدين، توجد الآن، إلى جانب غيرها من النقود المختلفة العهود، محفوظة في خزينة المتحف الأثرى بالرباط، في انتظار إصدار دراسة إضافية لها، تنوى مديرية مصلحة الآثار تنفيذها، للتعريف بها وجعلها في متناول المهتمين.

---

(13) انظر : A. Launois, sur un dinar almoravide en Nashi, Arabica, 1967, pp. 61 s.
وكذلك : J.H. Benslimane, F.Rigaud, A. Touri (سبق ذكره) أنظر قطعة رقم 1.

(14) للتذكير فإن لكل نوع من الكتابات المستعملة دور دقيق ومحدد في الحياة الحضارية الإسلامية، فالكوفي كان مخصصا للكتابات المنقوشة على المنشآت المعارية وعلى شواهد القبور، والسكة وكذا لنسخ القرآن أى لكل ما كان له طابع رسمي ومقدس، بينما خصص النسخي للمراسلات الرسمية والخاصة.

(15) راجع Ben Romdhane سبق ذكره.



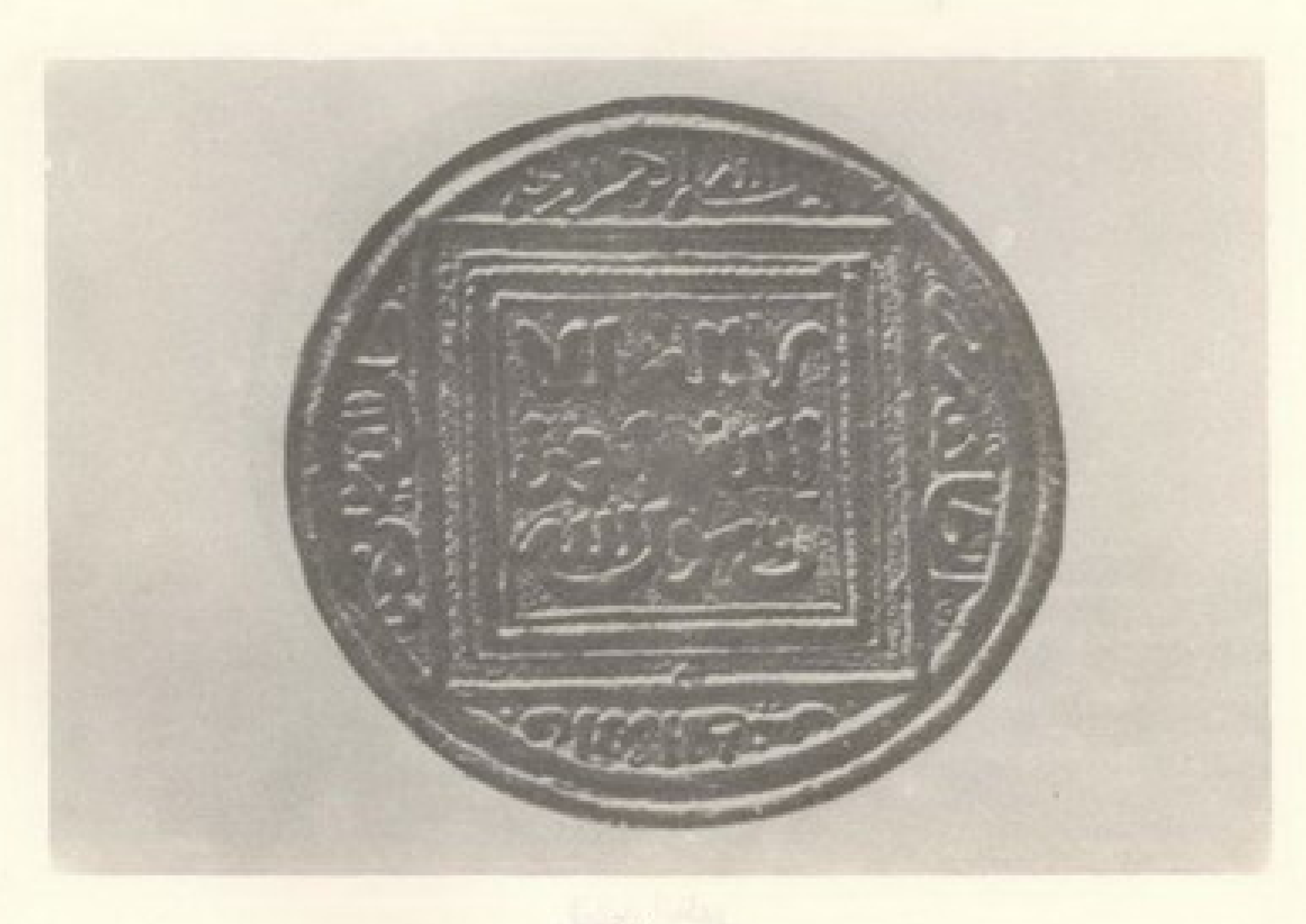
١ - الوجه



١ - الظهر



2 ـ الوجه



2 ـ الظهر



3 ـ الوجه



3 ـ الظهر



4 ـ الوجه



4 ـ الظهر



5 ـ الوجه



5 ـ الظهر



6 ـ الوجه



6 ـ الظهر



7 - الوجه



7 - الظهر



8 ـ الوجه



8 ـ الظهر



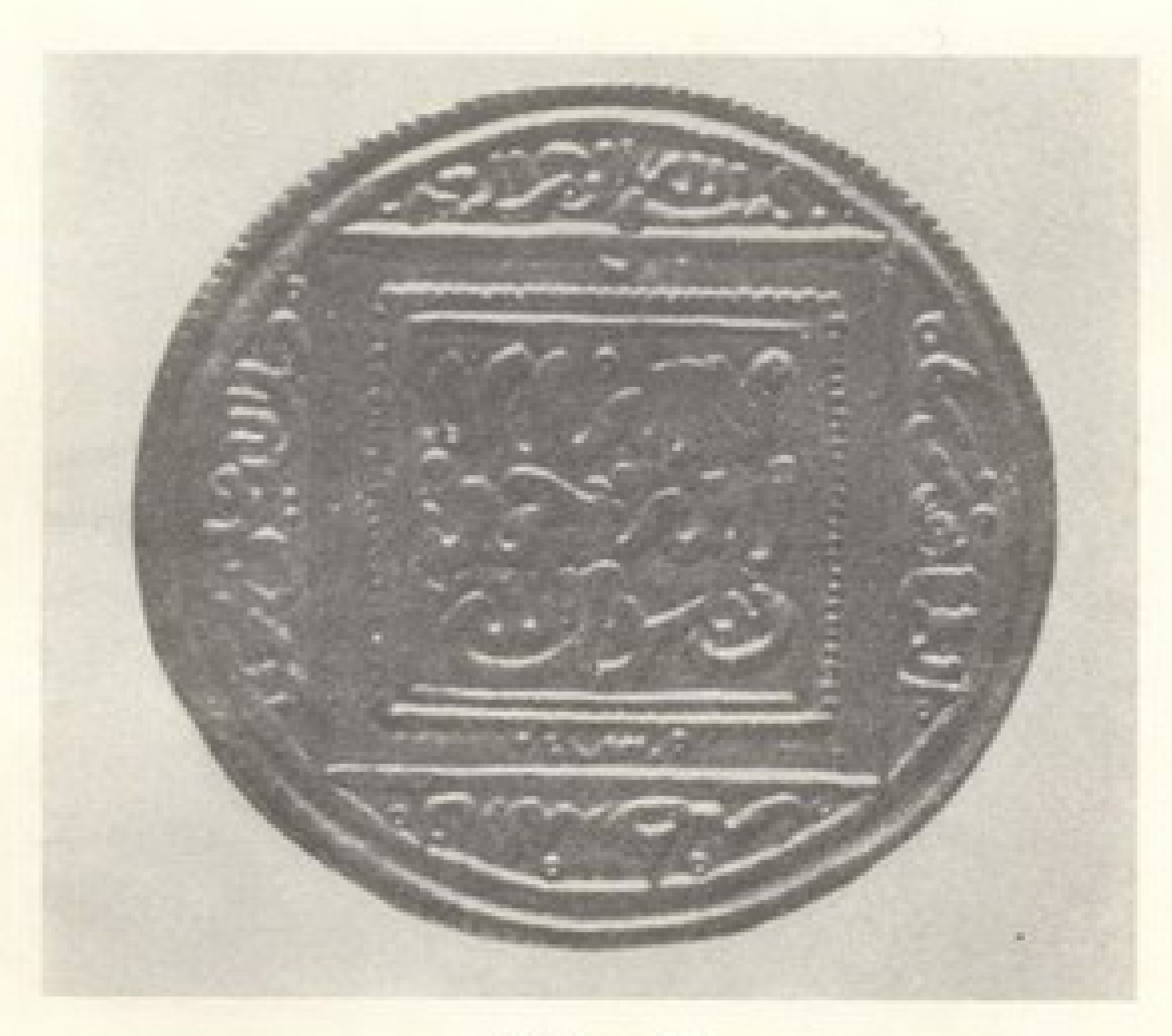
9 ـ الوجه



9 ـ الظهر



10 ـ الوجه



10 ـ الظهر



١١ ـ الوجه



١١ ـ الظهر



12 ـ الوجه



12 ـ الظهر

بين حبال الظن

حسن الطريبق

تجرجر بي من الخطرات مأمول من الأحيانْ
وكنت به أدبُّ كما يدبُّ النَّمل في الوديانْ
ينوءُ بما يجرجره من الأقوات بين الطين والأعشاب والرعيان
فلم يسلم لغير عناده المكرور، إصرارا على منأى من المبتل والريَّانْ
أنا المعدود في كيف وفي كمٍّ هما في الملتقى سيَّانْ
أُغالبُ رحلتي في كل منحدرٍ عميق الغور في هذا المضيق الجهْم
وأشعر أنَّني أُرمي بآلاف السِّهام على ثنايا الوهْمْ
أُحاول أن أرد اليوم عنِّي السهمْ
فيضربني التردُّد بارتداد الرَّجع في أُذني
وأتركني بلاسرٍّ ولا علنِ
لأستبقي الخطى مابين إصراري العنيد وبين مكرور من الوهن
سأستبقي على نفسي إذاما اشتدَّ فيه لُهاثُهُ المحمومْ

ساستحليه مهما اكتظ فيه المنبع المسترسل المكظومْ
أنا في خلوة الذات
أُكفكف ماهمى أو ما على الأجفان قد يهمي من العبرات في مجهول مرضاة
فما أبحرت إلا في الملماتِ
وما استكثرتها إلا إذا استعصت مع استعصاء علاتي
«إذا ما اللّيل أضواني»
ولاح الأُفق مجروح السنا في ثوب عريانِ
سأبسط فيه ألحاني
أألفيني، هناك، ومالديَّ الآن فيه سرٌّ عنوانِ ؟
تلفعني السُّدول السُّودْ
وتحبس من دراري الليل من كانت علي تجود
سأستلقي على نفسي لأعرف ما بها من سرْ
وأحملها على أن لا أكون الراهب الفاني بها حتى وإن صارتْ هي المأوى
وهي الدير !
شربت المترع الوافي من الأقداح
وصنت السعي من دنس العهارة، في دروب الحقد، كي أرتاح
فما أهويت كفي اليوم إلا للهداية في غواية ساد لا يقبل الريبة (1)
فهل يستروح الورد النديُّ ـ إذا ارتوى ـ طيبه ؟

---

1) المعنى مأخوذ من قول الشاعر الصوفي القديم الذي يقول :

لعمري مـــــا أهـــويت كفي لريبـــــة
ولا حملتني نحـــو فـــاحشــــة رجلي

أفاء اللوم من زور السحابة عن أحاسيسي، وزاد اليوم فوق اللوم ماقد زاد
فما أدري بماذا الآن أنطق، بعده، إن غاب أو إن عادْ ؟
حبال الظنّ توثقني وتقتل بي التطامن حين أعبر دربي المعتاد
فمن ألقى بها ؟ من شدّني في باب مدخلها ؟
أصرت بها أطوف على الشوارع بين أقصرها وأطولها ؟
فلم أخرج عن المحظور من معقوف منجلها !

العرائش **حسن الطريبق**

النحس

للشاعر: اسطيفان مالارمي
تقديم وترجمة: مصطفى القصري

تقديـــم :

بقيت مترددا بين نشر الترجمة العربية لهذه القصيدة بدون أي تقديم حتى أترك القارئ العربي الشغوف بالأدب الرفيع، يكتشف بنفسه وبدون أي تدخل أو تأثير عظمة الشاعر الفرنسي مالارمي وروعة انتاجه النادر، أو أن أقدم لها بتقديم يجعل القارئ غير المتمرس على روائع الأدب الفرنسي يلج مملكة الشعر الرفيع ويستمتع بدون كبير عناء بالتفسح في جنباتها الفيحاء.

وأخيرا ملت إلى الاختيار الثاني خوفا من أن أفوّت على البعض على الأقل فائدة قراءة هذا النشيد الذي حاولت جهد المستطاع إفراغ مادته في قالب عربي يقترب من مستوى أسلوب الشاعر اسطيفان مالارمي الصعب المراس، العسير الانقياد الذي كثيرا ما يستعمل موسيقية الكلمة مع الحفاظ، كل الحفاظ، على ما يريد لها أن تؤدي من معنى أو من معاني متداخلة

متشابكة زيادة على جماليتها الخاصة بها كجزء من كل متكامل يمكن أن نعبر عنه بالأسلوب المالارمي.

وبصدد موسقة الأسلوب هذه فإن مالارمي على ما يظهر لنا كان يرى أن فن الموسيقا وفن الشعر أو الأدب بصفة عامة، وجهان لغاية واحدة ومثل أعلى واحد.

إن القصيدة التي نعتز اليوم بنشرها من أوليات قصائد مالارمي أدخل عليها تحويرات طيلة عشرين سنة بعد أن نشرها للمرة الأولى، ونحن ننشرها هنا في صيغتها النهائية كما هي اليوم في ديوانه بعد موته. وكان مالارمي في بداية أعماله الشعرية متأثرا بأسلوب شارل بودلير وبمعانيه ومشاغله الفنية تأثرا ملموسا، فهو يستعمل مفردات من القاموس البودليري، وله ما لأستاذه بودلير من مشاغل بخصوص دور الشاعر ورسالته، هذا الشاعر الذي يخشى أن ينقضي أجله قبل أن ينهي عمله الفني الذي خلقه الله من أجله ففضل أن يضحي بكل شيء لائذا بالجهد المتواصل والعمل الذي لا يفتر ولا يني. يقول بودلير في قصيدته «سوء الحظ» :

الفن ما أبعد مداه والعمر ما أقصره
رَغْمَ ما للمرء من همة وقريحة..»

إننا نجد في كثير من قصائد بودلير الشعرية منها والنثرية صورة الشاعر السيء الحظ الذي تلعنه أمه وتسخر منه زوجته ويمجّه مجتمعه، يعاني من طالع النحس ما يعانيه من يوم ولادته إلى يوم وفاته، وهو أكرم مخلوق يعي كل الوعي تلك الرسالة المنوطة به من لدن المشيئة الربانية التي تسيره في دروب الحياة وتثبت خطاه في الأزمات رغم ما يلقاه من متاعب في

مساره المحتوم ولو أدى به الأمر إلى الوقوف أمام الموت (انظر القطرس، وطائر التم وإلى القارئ، والعناية الربانية) من ديوان بودلير الذي كاد يكون صيحة واحدة وصرخة مصدعة هذا مغزاها وفحواها. صرخة تنتهي بإرسال نداء إلى الموت بعد اليأس من جميع المحاولات :

«أيها المنون، أيها القائد العجوز، لقد آن للمركب أن يرفع مراسيه !
«سئمنا من هذا البلد فلننشر القلاع أيّها المنون.
«وإن كانت السماء والبحار سوداء كالمداد،
«فقلوبنا التي تعرفها أيها المنون مفعمة بالأشعة والنور.
«اسكب لنا سمك لننعش به الفؤاد،
«وبأكثر مما تحرق هذه النار أحشاءنا
«نريد أن نهوي في قعر اليم ـ نعيما كان أو جحيما ـ
«في قعر المجهول لكي نستكشف الجديد».

ومن هنا يستأنف مالارمي المسيرة الشعرية ليقدم لنا في قصيدته «النحس» جنسين من الشعراء في صورة قاتمة لا أمل للشاعر في الخلاص من فظاعتها وفي جو مهول تهب فيه الريح صرصرا، وتمطر زمهريرا.

فنرى الجنس الأول من الشعراء وهو أسعد الخطين يتقدم نحو البحر (أي المثل الأعلى» في ليلة مظلمة بارزا بشخصه فوق الغوغاء من الطغام والدهماء من بني البشر لا زاد له سوى عزمه على بلوغ الهدف، وأغلب هذا الجنس الأول يفقد كل أمل في تحقيق نفسه بتحقيق فنه فيتقدم إلى الموت مبتسما لأن المثل الأعلى محرم على الجميع طرق بابه، رصدت الآلهة لحمايته من الوصول إليه ملائكة مصلتة سيوفها الباترة راصدة شهبا ثاقبة في وجه كل

من أراد من الشعراء أن يقترب لاستراق السمع من الملكوت الشعري الأعلى قصد تبليغه إلى البشرية وإلى الأبدية..

فالجزء الأول من النشيد وصف مأساوي لهؤلاء الأنبياء الخائبين في مهمة تحقيق أنفسهم، ولكن بكاءهم وألمهم وشقاءهم وحزنهم وخيبتهم وبؤسهم جعل منهم أبطالا سعداء الحظ يصفق لهم الملأ إعجابا وتشمخ أممهم بأنفها افتخارا ـ فكانوا بذلك، ولذلك من المحظوظين.

أما الصنف الثاني، وهو الكثير، فإن رحلتهم لم تبلغ بهم إلى العلياء، وعائقهم عن ذلك ليس في قلة عبقريتهم أو عدم اجتهادهم ومتاعبهم، بل عائقهم الأول والأخير هو «النحس»، هذا النحس الذي يطبع كل محاولة يقومون بها مخلصين جادين، فلا يجدون إلا الصغار والهوان والحظ الملتوي والمصير الخائب والفشل الذريع، والسخرية المقيتة وسفاهة المجتمع الحقير ـ وحتى السماء نفسها، فإنها لم تتحفهم ـ كما أتحفت إخوانهم المحظوظين ـ بذلك الملك القاهر للوقوف في وجههم في الأفق لصدهم عن اجتيازه ولم تعر لهم أي اهتمام ولم ترصد لهم رصدا، فهم كالبهلوان أو العربيد الذي يجري صبيان الأزقة الآهلة وراءه بالصياح والضحك والرجم بالحجارة.

لم ينجح لهم أي عمل باشروه ولم تفز لهم أية مبادرة بالنجاح، وحتى في الحب نفسه فإنهم معذبون خائبون لا يذوقون للسعادة طعما ولا يجدون في المرأة سوى ذلك القزم الأنيق في مظهره، الخبيث في مخبره الذي لا رحمة له عليهم ولا شفقة.

كرامتهم مداسة وحسرتهم لا حد لها، وغبنهم لا غبن بعده، وكل ما بقي لهم من عمل بعد هذا ـ بعد أن نبذهم الجميع، وطردهم الجميع، وضحك

منهم الجميع - سوى أن يشنقوا أنفسهم على قارعة الطريق لإنهاء المهزلة التي أصبحوا عنوانها الناطق ورمزها الصارخ.

☆ ☆ ☆

إننا لن نقول ما كابدناه من عناء ومشقة لتحقيق هذا المشروع الهزيل في حجمه ومبناه الضخم في جوهره ومعناه، ولن نستعرض ما جندناه من طاقة فكرية وما أعدناه وكررناه ثم أعدناه وكررناه من محاولات لم نعد نحصيها للوصول إلى إنجاز هذا النص في الشكل الذي نقدمه عليه إلى قراء العربية، وسيكتشف القارئ المهتم من تلقاء نفسه، وخصوصا من يمكن له الاطلاع على النص في أصله الفرنسي واقتحام هذا النص بدوره، أي نوع من المتاعب والمصاعب قاسيناه محاولة منا لتخريجه على الوجه الذي خرجناه فيه ولإكساء أسلوب مالارمي في بنيته وغنائيته وأبعاده الأصالة العربية وعباءتها وعمامتها التي هي تاجها، والله ولي التوفيق..

م.ق.

النحـــس

فــوق البهـــائم البـــاهتـــة من الـــدّهمـــاءْ
تطـــايرت الأعراف الجـــامحـــة شرارات من أضــواءْ،
أعرافَ المتســـوّلين ممن يمشـــون في الأســـواقْ
يستجــــــدون ســـــانحـــــة السّماءْ.

☆ ☆ ☆

هبّت الريــح صرصرا تُرفرف أعــلامهــا على هــذا المسيرْ
فـــأنــزلت بركبـــه سيـــاطـــا من الـــزّمهريرْ
بلغت بهم العظمْ، وتركتْ في اللحم أليم الآثـــــارْ.

☆ ☆ ☆

عقـــــدوا الأمـــلَ على بلـــوغِ البحـــارْ
غير أنهم شـــــدُّوا إليهـــــا الرّحـــالْ
من غير مـــــا زادٍ من طعــــــامٍ أو شرابْ
ومن غير عصـــــــا التّسيـــــــار
يمتصـــونَ قـــارصَ الـــذهبْ للمثـــلِ الأعلى المَريرْ.

☆ ☆ ☆

أغلبهم في ركب السّرى لَفَـــظَ أنفـــاســـه
أسكَرَتْهُم الغبطــةُ وهم يشـــاهــدونَ دمـــاءَهم مراقــة،
أيُّهـــا المَنُـــونْ ! أيتهـــا القبلـــة الـــوتْرْ
على الشّفـــاهِ المستمسِكَـــةِ بـــالصّمتِ الرّهيبْ !

أوقَـــعَ بهم الهـــزيمـــةَ ملـــكٌ قـــاهر،
منتصبـــاً بحمَى الأُفُــق، مصلتـــاً سيفَـــهُ البـــاتِرْ،
فتجمَّـــد النَّجيـــع أُرجـــوانـــة بـــالنَّحر الشَّـــاكِرْ.

☆ ☆ ☆

يرتضعـــون الألم كما رضعـــوا بـــالأمس الخيـــال،
وحينمـــا ينظمـــون الـــدّمـــع عقـــداً من حنـــانْ
يركـــع المـــلأُ إجـــلالا وتهب أُمهم بـــالقيـــام.

☆ ☆ ☆

أُولئـــك أُتيبـــوا، مجلّلين بـــالثّقـــة، ملتحفين بـــالـــوقـــار،
غير أَن غيرهم من الأَقران وهم كثير
مكثـــوا وراءهم يسحبـــون ذيـــل الصغـــار.
يـــا للحظـــوظ الملتـــويـــة ! يـــا لـــلإستشهـــاد الحقير !

☆ ☆ ☆

ملـح الـــدّمـــوع يخـــدّد مرآةَ خـــدّهم بنفس الأَخـــاديـــد،
ابتلعـــــوا الرّمـــــــاد بنفس الهيـــــامْ
فحـــاق بهم مصيرٌ إمّـــا ســـاخِرٌ أَو سَفِيـــهْ.

لقد كان في متناولهم أن يثيروا كالطبل سخيف الشفقة
في نفوس الأجناس من الطغام
وقد قعدوا مقاعد للسمع فأعوزهم شهاب ثاقب.
لا، لم يفعلوا، بل رذلوا، وجابوا غول التيه،
راكضين تحت سوط سلطان عنيد :

☆ ☆ ☆

النحس !
النحس الذي يصفعهم ضحكه البليد،
النحس المقتسم !
أيها العشاق ! إنه يمتطي الصهوات ثالث اثنين،
وبعدما يعبر السيل، يلقي بكم في مستنقع الغدير،
ويخلف بياض الزوجين الساجين كومة من وحل

☆ ☆ ☆

إن نفخ أحدهم في بوقه الغريب
جعل الصبيان يقلدون جعجعته كالقردة،
واضعين أيديهم على الأدبار،
مثيرين الإزدراء العنيد.

☆ ☆ ☆

وإن تـــــوّج الإبريـــــــق نحرا ذابــــــــلا
بـــــوردة أوقـــــــدت فيـــــه جـــــذوة الغرام
جعـــــــــــــــــل الرغـــــــــــــــام
يلمـــــع على بـــــــاقتـــــه اللعينـــــــة.

☆ ☆ ☆

وهـــذا الهيكل القـــزم، الـــذي يرتـــدي قبعـــة الحرير
تـــــزينهـــــــا ريشـــــــة طـــــــــائر
ويحتـــــــــدي الســـــــــوقـــــــــاء
وينبت إبطـــــــه شعرا من الـــــــدود الحـــــق
أوغر نفـــوسهم بمـــا لا حـــد لـــه من الغم العميـــق.

☆ ☆ ☆

ألم يصـــــابـــوا في كرامتهم فـــــانحرفـــوا عن الأثر،
يبـــــارزون بسيـــوفهم المقعقعـــــة شعـــــاع القمر
فينعكس نـــــوره على قـــــــائمهـــــــــا
ثم يخترق حـــــــــــــــــدهـــــــــا.

☆ ☆ ☆

أصـــــابتهم الحسرة وفقـــــدوا من الكبريـــــــاء
مـــا يضفي على ســـوء الحـــظ هـــالـــة القـــدسيـــة
فنـــــــــاشـــــــدوا البغضـــــــــاء
وأضربـــــــــوا عن الشحنــــــــاء.

أصبحـــــوا سخريـــــــة الطنبـــــــوريين،
سخريـــــة الســـوقـــــة والمـــومســــات،
سخريــــــــة الانــــــــذال، وذوي الأسمال
ممن يرقصـــون بعـــــدمـــا تفرغ الـــدنــــان.

☆ ☆ ☆

النظّـــــامـــــون من المـــدّاحين والهجّـــائين
يتهمـــونهم بـــــالغبـــــاوة وإثــــارة الملــل
جـــــــاهلين الـــــــــداء العيـــــــاء
لهـــــــؤلاء العمالقـــــــــة المستصغرين.

☆ ☆ ☆

في متنـــــــاولهم أن يلـــــوذوا بـــــــالفرار
بعـــد أن ألقـــوا مـــا صنعـــوا من المـــآثر ظهريـــا
كجــــــواد كريم يرغي ويـــــــزيـــــــــد
عـــــــوض أن ينصرف الجمــــــــــع راكضين
وبـــــالســــــلاح مـــــــدججين.

☆ ☆ ☆

سنجـــــــــد المنتصر من بينهم في المهرجـــــــان.
ولكن، لمـــــاذا لا نكســـــو هـــؤلاء المتسكعين
أسمالا أرجـــوانيـــــة نضـــع بهـــا حـــدا للبهلـــوان !

بعـــدمـــا سيــواجههم الجمــع بكل أنــواع الحقـــار
سيتـــوجهــــون سرا إلى السماء لتمطر سخطهــــا،
سيتــوجهـون إليهـــا في زمــزمــــة خــــافتــــة،
ثم ينصرفــــــــــــــــــون.
ليشنقــوا أنفسهم في سخف بمصـــابيــح الطرقـــات.

الرباط مصطفى القصري

الكتابة القصصية
في القرن الثاني

محمد حماد

تمهيد :

وجدت ألوانا من القصص في الأدب العربي الجاهلي، مختلفة أشكاله وغاياته، فمنه ما كان سجلا لوقائع تاريخية اختلطت فيها الحقائق بالأساطير لاذكاء معاني البطولة، والاحتفاظ بالأمجاد حية متألقة في ذاكرة الاجيال. ومنه ما كان تصويرا لنوازع انسانية تستقطبها المرأة وما يحتويها في عالم اللذة والمغامرة. ومنه ما كان تمجيدا للمثل العليا من نبل ووفاء وتضحية... ثم القصص الخرافي الذي يقوم بدور البطولة فيه الحيوان والطير، ويقصد به الاتيان بضروب من الحكم والامثال على السنته (1).

وقد تطورت هذه القصص بعد الاسلام، فاغتنت بعض مضامينها القديمة وتلونت بالحياة الإسلامية، واستجدت أخرى تبعا للروافد الفكرية الجديدة والأحداث المتلاحقة التي اخصبت الخيال العربي ووسعت آفاقه.

---

1) انظر : محمد جاد المولى وصاحبيه : قصص العرب وعلي عبد الحليم محمود القصة في الأدب الجاهلي.

وقد اسهم القرآن الكريم في اغناء المجال القصصي بقدر ما أسهم في تطوير النثر العربي عامة، إذ جعل القصة من وسائل التبليغ والتذكير وورد فيه ما يرغب رسول الله ﷺ في ذلك حيث قال تعالى : ﴿**فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**﴾ (2) وقصص القرآن كله حقائق تاريخية تهدف إلى اطلاع المسلم على أحوال أمم قد خلت، وضمن هذا النطاق وجدناه يتفرع إلى :

1 ـ أخبار الأنبياء ومعجزاتهم : كقصص نوح وسليمان وصالح وموسى وعيسى عليهم السلام.

2 ـ أخبار الملوك وسيرهم : وهي مرتبطة بحياة الأنبياء وصراعهم مع قوى الكفر والشر، كخبر نمرود مع ابراهيم، وفرعون مع موسى، وبلقيس مع سليمان.

3 ـ أخبار بعض القرى أو الجماعات الإنسانية التي اتبعت طريق الهدى فنالت رضوان الله والجزاء من عنده كأهل الكهف، أو طغت في الأرض وتجبرت فهلكت وبادت كعاد وثمود.

4 ـ أخبار تتصل بحياة العرب خاصة قبل الإسلام وبعده كقصص أصحاب الفيل، وخولة بنت ثعلبة، والإفك (3)...

ورغم أن التاريخ البشري هو المادة المستقاة منها قصص القرآن فإن الهدف منه ـ كما أشرت ـ ليس فقط التعرض لأخبار الأولين أو الآخرين بل

---

2) سورة الاعراف 176.

3) انظر قصص القرآن لجاد المولى وأبي الفضل ابراهيم والبجاوي.

تقديم نماذج من سير الإنسان في صراعه مع نوازعه النفسية ومحيطه الاجتماعي، ومن القيم النبيلة كالتضحية في سبيل العقيدة والصمود في وجه البغي والثقة في الله. وقصص يوسف وهاجر أم اسماعيل وأيوب ومريم العذراء أمثلة رائعة لهذه المضامين.

وكما أن الموعظة والاعتبار هما غاية القصص القرآني، فإن أسلوبه أيضا جاء محققا لهذه الغاية، إذ يقوم على انتقاء الأحداث دون تتبع للتفاصيل والجزئيات، مع التعليق على المواقف المختلفة وإثارة الانتباه إليها بطريقة مباشرة.

وبتأثير القرآن اتسعت مجالات القصص التاريخي فلم يعد مقتصرا على أيام العرب والعجم كما كان عليه في الجاهلية، وساعد بعض المفسرين بما أضافوه من تفاصيل وتأويلات مستمدة من الاسرائيليات وغيرها على جعل هذا القصص مادة شيقة تلبي حاجات المجتمع إلى المتعة والفائدة معا. كما أضيفت إلى أيام العرب في الجاهلية أيامهم في الإسلام، وأخبار الولاة والخلفاء والفتوح وما شابها من بطولات أضفى عليها خيال العامة هالة أسطورية أحيانا.

أما قصص الحب والمغامرة فقد ازدهر مع بروز ظاهرة شعر الغزل في الحجاز في صدر دولة بني أمية، وتأثر بالاتجاهين الرئيسيين في هذا الفن. الاتجاه الصريح الذي يقوم على إبراز عنصر المغامرة واللهو في الحديث عن المرأة، مما يعد استمرارا للقصص الجاهلي الذي أسندت بطولته الى امرىء القيس والمرقش الأكبر وعنترة بن شداد وغيرهم. والاتجاه المسمى بالعذري الذي عني بتصوير عاطفة الحب والتسامي بها إلى ذروة المثالية والعفاف.

ومن هنا أخذت أحاديث العشاق وأشعارهم تكون مادة قصصية ممتعة وضعت فيها المصنفات كما ذكر ابن النديم وفي طليعة هؤلاء جميل وبثينة، وقيس ولبنى، ومجنون ليلى وسواهم (4).

ويضاف إلى ما سبق نوادر النوكى والموسوسين التي اهتمت بها مصادر الأدب القديم وأفردت لها أبوابا خاصة كما هو الشأن عند الجاحظ في بيانه، وابن المعتز في طبقاته، وابن عبد ربه في عقده... بل إن بعض المتأخرين صنفوا مؤلفات كاملة في هذا الباب كأبي القاسم النيسابوري (+ 406 هـ/1160 م) صاحب كتاب «عقلاء المجانين» وأبي الفرج ابن الجوزي (+ 597 هـ/1201 م) مؤلف كتاب «الحمقى والمغفلين»، لما في أقوال هذه الأصناف البشرية وسلوكها من طرافة ونكتة مع عمق الدلالة في بعض الأحيان.

وجل هذه الموضوعات بقيت سارية في قصص القرن الثاني مع إضافة سير أهل المجون والخلاعة من أمثال بشار بن برد، وحماد عجرد وأبي نواس ووالبة بن الحباب ومن سلك سبيلهم ونوادرهم متفرقة في مختلف المضان وأهمها كتاب الأغاني.

أنواع القصص :

لتفصيل الكلام في موضوعات الكتابة القصصية وخصائصها خلال القرن الثاني نرى لزاما علينا أن نصنف ما وقع بأيدينا من ذلك إلى قسمين متميزين :

---

4) ابن النديم : الفهرست 439.

الأول عربي خالص فيما حمله من محتويات أَلْمَعْنَـا اليهـا، وفي أسلوبـه الـذي لا يكاد ينفرد عن أسـاليب التـأليف الأخرى في هـذا العصر، وأوضح النماذج مـا حوتـه كتب الجـاحـظ عـامـة والبخلاء بشكل خـاص، ثم «عيون الأخبار لابن قتيبة و«الأغاني» وغيرهما من الأمهات.

وكتاب البخلاء خير مصنف في هذا الفن بما اشتمل عليه من حكايات وطرائف في موضـوع واحـد هـو البخـل، وأغلبهـا أطلـق عليـه المؤلف اسم القصص، وهكذا نرى في عناوين الكتاب : قصة أهل البصرة من المسجديين وقصة زبيدة بن حميد، وقصة ليلى النـاعطيـة... الخ. وبـذلـك يكون لفـظ القصة قد أخذ يتحدد مدلوله الأدبي منذ أيام الجاحظ على ما يبدو.

ويمكن إجمال خصائص هذا النوع من القصص في :

1 ـ اعتماد السند في الرواية : وهذه ظاهرة عامـة في مؤلفـات القرنين الثاني والثالث في مختلف الموضوعات الدينيـة والأدبيـة، ولم يشـذ عنهـا حتى الحكايـات والنـوادر، ولكن المـلاحـظ أن السنـد في هـذا المجـال ليس أمراً مطَّرداً، فهو يذكر مرة ويغفل أخرى، وقد يكتفى بقال بعض أصحـابنـا أو حدثني صاحب لي أو صاحب محلة كذا. وبهـذا يكون المراد من ذكر السنـد مجرد إيهام القارىء بصحة الخبر زيادة في شد الانتباه إليه.

2 ـ الواقعية : ويراد بها هنا البعد عن المثاليات وعن ركوب أجنحـة الخيال، ومظاهر الواقعية في القصص العربي متعددة أهمها :

أ ـ أن أبطال هذا القصص أعلام معروفون في عـالم الواقع، فجلهم من رجالات السياسـة أو الفكر والأدب، وأحيـانـا تنسب القصـة أو النـاذرة إلى

رجل من بلد معين، قصد التعريض بأهل ذلك البلد كلهم وجعلهم موضع التندر.

فما نُسب إلى بعض رجالات العصر على سبيل المثال حكاية خالد بن عبد الله القسري التي وردت في كتاب البخلاء ونصها :

«قال أبو عبيدة بلغ خالد بن عبد الله القسري أن الناس يرمونه بالبخل على الطعام، فتكلم يوماً، فما زال يُدخِل كلاماً في كلام حتى أدخل الاعتذار من ذلك في عرض كلامه، فكان مما احتجَّ به في شدة رؤية الأُكِيلِ عليه وفي نفوره منه أن قال : نظر خالد المهزول في الجاهلية يوماً إلى ناس يأكلون وإلى إبل تجترّ، فقال لأصحابه : أتروني بمثل هذه العين التي أرى بها الناس والابل ؟ قالوا نعم. فحلف بإلهه ألا يأكل بَقْلاً وان مات هُزلا. فكان يغتذي اللبن ويصيب من الشراب فأضره ذلك وأيْبَسَه، فلما دق جسمه واشتدَّ هُزاله سمي بالمهزول. ثم قال خالد : ها أنذا مُبتلَى بالمضغ ومحمول على تحريك اللَّحْيَيْنِ (5)، ومضطر إلى مناسبة البهائم، ومحتمل ما في ذلك من السخف والعجز. ما بالي احتملته فمن لي منه بُدٌّ ولي عنه مذهب، ليأكلْ كل امرىء في منزله وفي موضع أَمْنِه وأُنْسه ودون ستره وبابه» (6).

هكذا نرى النص أشبه بقصة قصيرة بالتحديد المعاصر، تتداخل فيها حكايتان أولاهما هي الإطار العام في موضوع الحرص والتقتير، والثانية أداة

5) اللحيان : الفكان.

6) الجاحظ البخلاء 66 ومن قصص اعلام العصر أيضا انظر قصة مالك بن أنس يغني في الأغاني 222/4. وبخل سهل بن هارون في عيون الاخبار 259/3.

للاستدلال نظرا لتطابق الموقفين، وفي كلتا الحكايتين نجد الحوادث والأقوال منسوبة إلى شخصين معروفين في عالم الواقع.

ومن القصص الكثيرة التي أسندت مواقفها إلى أهل بلد معين نأخذ على سبيل المثال أيضاً ما نسب إلى رجل من أهل مرو، وهي ترد في نطاق التشنيع بالخراسانيين والفرس عامة، فقد ذكر صاحب البخلاء أن عراقياً تعرَّف مَرْوِزَيّاً كان يأتي للحج والتجارة فينزل عنده ويكرم مثواه، وفي كل مرة يقول المروزي لصاحبه أنه يتمنى أن تتاح له الفرصة ليستقبله في بلده ويكافئه على صنيعه. ثم شاءت الظروف أن يتحقق ذلك «فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية فكان مما هوّن عليه مكابدة السفر ووحشة الاغتراب مكان المروزي هنالك، فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره، وفي عمامته وقلنسوته وكسائه، ليحط رحله عندها كما يصنع الرجل بثقته وموضع أُنْسِه، فلما وجده قاعداً في أصحابه أكَبَّ عليه وعانقه فلم يره أثبتَهُ ولا سأل به سؤال من رآه قط. قال العراقي في نفسه : لعل انكاره إياي لمكان القِنَاع، فرمى بقناعه وابتدأ مُسَاءَلَته فكان له أنكر. فقال : لعله أن يكون إنما أُتي من قِبَل العمامة، فنزعها ثم انتسب وجدد مسألته فوجده أشدَّ ما كان إنكاراً. قال : فلعله إنما أُتي من قبل القلنسوة، وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل فقال : لو خرجتَ من جلْدك لم أعرفك» (7).

هكذا يبدو من خلال النموذجين السالفين ما يوضح النزعة الواقعية في ايراد النوادر وتصوير المواقف بطريقة تجعل القارىء يقتنع بتحققها أو امكانية تحققها مهما رأى فيها من توجيه للحدث وابراز عنصر الفكاهة فيه.

---

(7) نفس المصدر 22.

ب ـ احتمالية الوقائع : أي دخولها دائما في دائرة الممكن من الأشياء فمهما كانت غرابة بعضها وندرة وقوعها فإن تلك الغرابة لا تصل حد الغلو والاحالة، ومن أمثلة الطرافة التي تطبع بعض القصص ما أورده الجاحظ أيضا على لسان ابراهيم النظام، إذ قال «دعانا جار لنا أطعمنا تمرا وسمن سِلاَء (8) ونحن على خوان ليس عليه الا ما ذكرت، والخراساني معنا يأكل، فرأيته يُقطر السمن على الخوان حتى أكثر من ذلك فقلت لرجل إلى جنبي ما لأبي فلان يضيع سمن القوم ويسيء المؤاكلة ويغرف فوق الحق ؟ قال وما عرفت علته ؟ قلت لا والله. قال الخوان خوانه فهو يريد أن يدسمه ليكون كالدبغ له، ولقد طلّق امرأته ـ وهي أم أولاده ـ لأنه رآها غسلتْ خِوَاناً له بماء حار فقال لها هلا مَسَحْتِيه» (9). فهذا الضرب من السلوك بلغ حدا يُثير الدهشة والاستغراب، ومع ذلك فليس هناك ما يمنع من الوجهة المنطقية من حدوث مثله في حياة الناس، فالحرص قد يدفع صاحبه إلى هذا وإلى ما هو أبعد منه.

جـ ـ شعبية الأسلوب : فحرصا على إخراج القصص إخراجا مطابقاً أو قريباً من الواقع المعيش، نجد المؤلف يتخلى عن المعهود من الأساليب الرصينة التي يتناول بها القضايا العلمية والنقدية، ويعمد إلى تليين العبارة وتضمينها كلمات أعجمية أو سوقية، والتضحية بالإعراب أحيانا لتأتي الحكاية منسجمة مع واقع الحال وجارية في عباراتها مجرى الأحاديث السائدة. والجاحظ نبّه قراءه إلى مقصده في ايراد قصصه على هذا النحو

---

(8) السلاء ما صفي وعولج من السمن طبخا.

(9) نفس المصدر 24.

فقال : «إن وجدتُم في هذا الكتاب لَحْناً أو كلاما غير مُعْرب ولفظاً معدولاً عن جهته، فاعلموا أنَّا إنما تركنا ذلك لأن الاعراب يُبغض هذا الباب ويخرجه من حده، إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء واشحاء العلماء...» (10)، وواضح من هذا الكلام حرص الجاحظ على أن يطابق أسلوب القصة الوسط الذي تتحدث عنه، وأن يكون الحوار فيها مناسبا لمستوى المتحاورين وعقلياتهم، وهذا من صميم الواقعية عند مؤلفي القصص بوجه عام (11).

3 ـ التركيز على ما يتصل بالطريف والنادر من أنماط السلوك وأشكال التعبير أي على الحدث نفسه سواء كان قولا وفعلا، أما شخصيات القصة فلهم دور ثانوي. وبمعنى آخر أن هذه القصص يمكن أن تنسب إلى أي كان دون أن تتأثر مضامينها، وتسمية أصحابها ليس إلا من باب إثارة فضول القارىء في التندر بأعلاَم العصر ورجالاته المشهورين.

4 ـ على مستوى المضمون كذلك تتردد في هذه القصص أصداء الحياة الاجتماعية وما كان يشوبها من مظاهر التنافس. فعلى الرغم من لهجة السخر الكاريكاتوري التي يصعب معها أخذ معلومات صحيحة أو ثابتة عن الأشخاص أو الأقاويل التي ترد على ألسنتهم، فإن هناك سياقا يمكن الافادة منه في استخلاص بعض الحقائق الاجتماعية، إذ نجد فيها أحيانا أخبارا مفيدة عن بعض الأثرياء من شخصيات العصر، فقصة الثوري مثلا يستهلها

---

(10) نفس المصدر 40.

(11) انظر ما ورد في حكايات ونوادر في العقد الفريد والأغاني ونهاية الأرب والمستطرف فستجد فيها هذه الميزة ماثلة للعين.

الجاحظ بقوله : «قال الخليل السلولي : أقبل عليَّ يوماً الثوري، وكان يملك خمسائة جَرِيب (12) ما بين كرسي الصدَقَة إلى نهر مرة (13)، ولا يشتري الأكُلَّ غرة، وكل أرض مشهورة بكريم التربة وشرف الموضع والغلة الكثيرة» (14).

وفي قصة أحمد بن خلف اليزيدي قال «ترك أبوه في منزله يوم مات ألفي ألف درهم وستمائة ألف درهم وأربعين ومائة ألف دينار فاقتسمها هو وأخوه حاتم قبل دفنه، فأخذ أحمد وحده ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم وسبعين ألف دينار ذهبا عينا مثاقيل وازنة جيادا سوى العروض» (15).

وقال عن خال ابن يزيد مولى المهالبة «وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد» (16).

ومثل هذه الأخبار مفيدة لمن يروم معرفة أحوال هذه الطبقة الميسورة وحجم الثروة في المجتمع الإسلامي آنذاك.

وزيادة على هذا نجد في مضامين هذه القصص آثار العصبيات الجنسية أو الاقليمية، أقرب مثال لها ما رأيناه منذ قليل من نوادر أهل خراسان عامة وما ينعتون به من حرص وجشع لا شك أنه يحمل بعض ردود الفعل ضد التيارت الشعوبية التي تزعمها الفرس وأذكوا أوارها نحو

---

12) الجريب مساحة من الأرض الزراعية تساوي ستين ذراعا في مثلها. قال قدامة في كتاب الخراج : الأسل إذا ضرب في مثله فهو الجريب.

13) كرسي الصدقة، صدقة اسم مكان بمرو. ومرة لعلها مَرْتُ وهي قرية قرب تبريز.

14) نفس المصدر 103.

15) نفس المصدر 41.

16) نفس المصدر 46.

العرب. ويؤكد هذا الاستنتاج ما ختم به كتاب البخلاء من أقوال وطرائف تتحدث عن جود العربي في باب «القرى عند العرب» وما تلاه.

5 ـ وأخيراً فان الشكل الفني لهذه الأقاصيص يميل بها إلى القِصَر في غالب الأحيان، وان لم نعدم نماذج مطولة منها، ونظرا لذلك فإنها تتفاوت في مستوى الوصف والحبك، فبينما بعضها لا يعدو كونه سردا موجزاً لنادرة أو طرفة فان في بعضها الآخر استقصاء وتتبعا للتفاصيل ووصفا للهيأة والمكان مع حوار ينمو إلى أن يبلغ غايته (17).

القسم الثاني : ما نقل إلى العربية من أنواع القصص خلال القرن الثاني في نطاق حركة النقل والترجمة التي نشطت في هذا الإبان واحتل القصص الفارسي والهندي الحيز الأكبر في هذا المضمار. وقد تحدث ابن النديم وغيره عن ذلك وذكروا أسماء ما وقع بأيديهم منه أو نما إليهم خبره وجله في سير ملوك الفرس وأساطير الهنود والبابليين، مثل «هزار أفسان» أو ألف حكاية التي يرجح أن ألف ليلة وليلة نسخة منها، و«رستم واصفنديار» و«الكارنامج في سيرة انوشروان» و«دارا والصنم الذهبي» وغيرها (18).

ومعنى هذا أنه قد توفر رصيد مهم من الأقاصيص المترجمة أضيف إلى ما كان في العربية من أشكاله وأساليبه، ولا شك أن الداعي إلى الاهتمام بذلك هو أولا وقبل كل شيء تلبية حاجات وأذواق غير العرب من العناصر والأجناس التي تعايشت في دار الإسلام واتخذت العربية لسانا لها وأتيح لها أن تعرب عن نفسها في شتى نواحي الحياة الاجتماعية والفكرية.

---

17) انظر مثلا قصة الكندي في البخلاء 81.

18) ابن النديم : الفهرست 338.

وهناك ملحوظة لا بد من تقريرها قبل الاسترسال في الحديث عن هذا اللون من القصص الأجنبي وأثره في الأدب العربي، وهي ضياع القسم الأكبر منه فيما ضاع من مؤلفات، وبالنسبة إلى هذا الموضوع بالذات فالأمر يتعلق بقلة الاهتمام وعدم إعطاء قيمة أدبية كبيرة للكتابة القصصية، إذ اعتبرت فقط وسيلة للسمر والتسلية ولذلك بقيت دائما في مقام أدنى من فنون الأدب الأخرى كالشعر والخطابة والترسل. إذ يستفاد مما ذكره ابن النديم مما يسميه كتب الأسمار والخرافات أن عددها لم يكن بالقليل، ولكن ابن النديم نفسه كان يجهل مؤلفيها ـ وقد صرح بذلك ـ (19) وهذا دليل على عدم العناية لعله كاف.

وبتأثير حركة النقل والترجمة ازدهر نوع من القصص وأوجد لنفسه مكانا مرموقا في الحياة الأدبية لهذا العصر وما تلاه من حقب، وهذا النوع هو الخرافة. وقد أشرنا في مستهل هذا البحث إلى قدمها في الأدب العربي فيما وقفنا عليه من صور لها وردت في كتب الأمثال، كما أن القرآن الكريم جاءت فيه بعض الحكم والمواعظ على لسان بعض الطيور كقول النملة : «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزةَ أهلها أذلة» (20) وما جاء في قصة الهدهد مع سليمان (21).

وقد بقي ضرب الأمثال وإلقاء الحكم والمواعظ هدفاً رئيسيا لفن الخرافة في هذا العهد أيضا، وهو ما سأحاول تناوله ضمن الحديث عن

---

19) نفس المصدر.

20) سورة النمل 34.

21) انظر سورة النمل.

الكتابين المهمين اللذين وقعا بأيدينا من ذلك وهما «كليلة ودمنة» و«كتاب النمر والثعلب». فالأول من الآثار المترجمة عن الآداب الشرقية المنحدرة من أصول هندية. والثاني صورة منه احتذاها سهل بن هارون. واتباعا لخطة البحث المرسومة سيقتصر تحليل هذين الأثرين على ما يتصل بالمضمون وعلاقته بالمناخ الفكري والسياسي لهذا العصر أولا، ثم محاولة إقامة الصلة بينهما وبين شخصية كل من ابن المقفع وسهل بن هارون كما اتضحت معالمها، فهذان الجانبان هما أهم ما يمكن تناوله بعد النظر فيما كتب حول الموضوع.

كليلة ودمنة :

هي قطعة من الآداب الشرقية كما نفضل أن ننعتها، فرغم أنها هندية الأصل كما أكدت الأبحاث فإن ما شابها من زيادات وتغييرات وأضيف إليها من حكم وأمثال تحمل طوابع فارسية وعربية وغيرها يجعلها ظاهرة عالمية كما أشار بعض الباحثين (22). ولذلك فإن الاهتمام الذي أولي لتتبع ما أضيف إلى الأصل الهندي ومقارنَة الأمثال التي اشتمل عليها بنظائرها في آداب الأمم المختلفة لم تأت بطائل كبير، لأن الكتاب ترجم مرات متعددة وفي فترات مختلفة، ففي القرن الثاني فقط عرفت له ترجمتان إحداهما لابن المقفع وهي المشهورة، والأخرى لعبد الله بن هلال الأهوازي أنجزت في خلافة المهدي سنة 165 هـ/782 م كما ذكر حاجي خليفة (23). وما زال البحث كل يوم يوقفنا على نصوص من كليلة ودمنة تختلف عما هي عليه

---

22) احسان عباس : ملامح يونانية في الأدب العربي 144.

23) حاجي خليفة : كشف الظنون 1508/2.

في النسخ المتـداولـة. وإذا كان هـذا هو شـأنهـا في العربيـة، وهي التي اعتنى أهلها بهذا الأثر الأدبي وعنهم أخذه غيرهم على مر الحقب بعد أن فُقد الأصل أو توارى عن الأعين، إلا مـا عثر عليـه من شـذرات منـذ أمـد قريب فـإن شأنها عند الفرس أكثر تعرضا للاضطراب.

ومما يؤكد وجهة النظر هذه التي تعتبر الكتاب قطعة من أدب الشرق عـامـة مـا اشتمل عليـه من أسماء الأعلام والأمكنـة والأشيـاء التي ترجـع إلى لغات وبيئات شرقية مختلفة، وعلى سبيل المثال لا الحصر؛ هناك أسماء عربية أطلقت على بعض الحيوانـات التي تقـوم بـدور البطـولـة في بعض الخرافـات وأهمها : كليلة ودمنة اللذان جعلا عنوانا للكتـاب بـأتمـه. وفي بـاب الحمـامـة المطوقة يحمل الغراب اسما عربيا هو حائر (24).

كما نجـد أسماء فـارسيـة في مـواضـع متفرقـة كالمرزبـان والبـازيـار والأساورة (25). أما الألفاظ الهندية فكثيرة بـاعتبـار أن الكتـاب أصلا من تأليف حكماء الهند. وهكذا نجد من أسماء الأعلام : شَنْزَبة ونَنْـدَبـة في بـاب «الأسد والثور» (26) و«كبيرغ التاجر في بـاب» الفحص عن أمر دمنـة (27) وإيلاَد وإيرَاخْت وشَادَرم وهم أبطال القصة التي تحمل أسماءهم، وهي القصة الـوحيـدة في الكتـاب التي لا تـدخـل في بـاب الخرافـة إذ أبطـالهـا ليسـوا حيوانات بل ملك من ملوك الهند وزوجته الوفية ووزيره الحكيم (28).

---

24) ابن المقفع : كليلة ودمنة 127.

25) نفس المصدر 120 ـ 121.

26) نفس المصدر 51.

27) نفس المصدر 108.

28) انظر القصة في ص 103.

وعلاوة على هذه الألفاظ المختلفة التي سميت بها شخوص كليلة ودمنة اشتمل الكتاب أيضا على ذكر لبعض الأقاليم والأمصار الهندية والفارسية مما لا يزال معروفا إلى الآن كأرض كشمير (29)، والسند (30) ومدينة بلخ الخراسانية (31)، أو مما نجهل أمره الآن كمدينة ماروات التي حدد لها موقع بأرض دستاد (32).

وزيادة على هذه الألفاظ والأسماء فكليلة ودمنة اشتملت على حكم وأمثال وتصورات للحياة تبدو من خلالها ملامح الإنسان الشرقي وعقليته بشكل عام وهو ما سأحاول إبرازه الآن.

إن أبواب كليلة ودمنة المختلفة ليست إلا مجموعة من الخرافات تنفرد كل واحدة منها بسياق قصصي مستقل، باستثناء بابي «الأسد والثور» و«الفحص عن أمر دمنة» اللذين يتكاملان ويتصل عنصر الحكاية فيهما لأسباب سيأتي توضيحها، ولكن هذه الأبواب كلها تسير في خط واحد من حيث القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التي تهدف إلى ترسيخها في النفوس، ولهذا يمكن القول إنها من حيث بناؤها الفني ليست على جانب كبير من الأهمية إذ الحوادث فيها تساق أحيانا بشكل بارد يفتقد إلى عنصر التشويق والحبك المتقن بسبب يعود إلى الحوار الطويل الذي ليس الا دروسا في أدب السلوك والأخلاق الاجتماعية يقوم على إيراد الأمثال

29) نفس المصدر 108.

30) نفس المصدر 114.

31) نفس المصدر 121.

32) نفس المصدر 127.

الواحـد، تلو الآخر، مما ينسي القـارىء أحيـانـا تفـاصيل الحكايـة ويشوش عليه، وما ذلك إلا لأن القصد فيها هو تقديم تلـك الحكم والعظـات قبل أي شيء آخر. وقد نبه ابن المقفع على ذلك في المقدمة فقال : «فـأول مـا ينبغي لمن طلب هذا الكتاب أن يبتدىء فيه بجودة قراءته والثبت فيـه، ولا تكن غايته منه بلوغ آخره قبل الإحكام له، فليس يَنتفع بقراءته ولا يفيـد منـه شيئا. وانْ طمحت عيناه إلى جمعه ولم يأخذ منه ما يعي الأول فالأول فإنه خليق الا يصبب منه...» (33).

ومعنى هذا أن ما تقدمـه هـذه الخرافـات من وقـائع متسلسلـة ليست هي الغاية الأولى منها، ولذلك نصح ابن المقفع قارئه بألا يتسرع في قراءتـه بل عليه أن يتثبت فيها ويمعن النظر في مضونها لتتحقق له الفائدة.

وبناء على هذا أرى من المفيد أن ينصب البحث في المضـامين الأدبيـة لهـذه الخرافـات على نحـو يربـط العـلاقـة بينهـا وبين شخصيـة ابن المقفـع وتفكيره من جهة، وبينها وبين معطيات العصر من جهة ثانية.

شخصية ابن المقفع في كليلة ودمنة :

أول مـا ينبغي تقريره في هـذا الصـدد أن ترجمـة ابن المقفـع لكليلـة ودمنة لم تكن مجرد نقل من لسان إلى آخر، بل فيها مـا يـدل على شيء من التصرف والتحوير استنادا على المعطيات التالية :

1 ـ ما يلاحظ في مقدمة الكتاب التي عرضت محتواه والغاية منه من تشـابـه كبير بينهـا وبين متنـه من حيث أسلوب التنـاول، وعرض الأفكار،

---

33) ابن المقفع : مختصر عرض كليلة ودمنة 6.

وطريقة الاستدلال، فمن يتأمل هذه المقدمة يحس لأول وهلة أنها جزء من الكتاب معنى ومبنى، إذ ليس فيها ما يميزها عنه، ووحدة الأسلوب دليل على أن ابن المقفع اضفى على الكتاب من شخصيته ونظره، ولا يحدث ذلك الا إذا كان النص المترجم يلتقي محتواه مع اتجاه المترجم وتفكيره، ففي هذه الحال لا يكون مجرد ناقل من لغة إلى أخرى، بل مشارك في عرض الأفكار وتقديمها على أكمل وجه.

ومن مظاهر التشابه الأسلوبي بين المقدمة والمتن : الاحتجاج لكل قضية بضرب مثل أو امثال لها من الحكايات الطريفة. ففي حث القارىء على التأني وتدبر معاني الكتاب وعدم التسرع في بلوغ نهايته يضرب له مثل المتسرع في القراءة برجل «رأى في بعض الصحاري كنزا فلما كشف عنه ونظر إليه، رأى شيئا عظيما لا عهد له بمثله، فقال في نفسه : إن أنا أحرزتُ ما ها هنا بنقله وحدي لم أنقله إلا في أيام، وجعلتُ لنفسي عملا طويلا، ولكن أستأجرُ رجالا يحملونه. ففعل ذلك وجاء بالرجال فحمل كل واحد منهم ما أطاق، وانطلقوا فيما زعم إلى منزله، فلم يزل دائبا في ذلك حتى فرغ واستنفذ الكنز كله، ثم انطلق إلى منزله بعد الفراغ فلم يجد شيئا ووجد كل رجل منهم قد حاز ما حمل لنفسه ولم يكن له إلا العناء في استخراجه والتعب عليه» (34).

وبهذه الطريقة حاول ابن المقفع إقناع قارئه بكل ما يعرفه من أفكار، وهي الطريقة المعتمدة في سائر أبواب الكتاب.

---

34) نفس المصدر.

وعلاوة على هذه الظاهرة الأسلوبية، تضمنت المقدمة كذلك نبذا من الآراء والحكم التي تعرفناها في رسائل ابن المقفع الأدبية مما ينبىء عن وحدة المصدر المستقاة منه هذه الآراء والحكم. فمن ذلك على سبيل المثال لا الاستقصاء تقريره مبدأ المنفعة في طلب العلم وتحصيله، وهو مبدأ وقفنا عنده في بحث آخر وورد في مقدمة كليلة ودمنة قوله «فالمرء حقيق أن يطلب العلم، فإذا وجد حاجته منه وفهمه وعرفه وبلغ غايته منه انتفع بما يرى فيه من الأدب» (35). وقوله أيضا «ومن علم ولم يستعمل علمه لم ينتفع بعلمه» (36)، ويفسر هذا بأن قيمة العلم مرتبطة بنتائجه العملية، فإذا لم يحصل المرء على نتائج مما عَلِمَه فلا فرق بينه وبين الجاهل «والعلم لا يتم لامرىء إلا بالعمل، والعلم هو الشجرة والعمل هو الثمرة، وإنما يطلب الرجل العلم لينتفع به فإن لم ينتفع به فلا ينبغي أن يطلبه» (37).

ومثل هذا الكلام ترددت أصداؤه بصور مختلفة في رسائل ابن المقفع، إذ جاء في الأدب الكبير : «العلم علمان علم المنافع، وعلم بتذكية العقل، وأفشى العلمين واجداهما أن ينشط له صاحبه من غير أن يحرضَ عليه علم المنافع» (38) وتفسير المنافع عنده يتلخص فيما هو مفيد للإنسان في حياته وعلاقاته الاجتماعية، ويبدأ ذلك بالفهم الصحيح لما يحيط به واكتساب الفعالية التي تمكنه من الاسهام في توجيه الأمور في مجتمعه، ومعاملة الناس

35) ابن المقفع : مختصر عرض كليلة ودمنة 6.

36) نفس المصدر 8.

37) نفس المصدر.

38) محمد كرد علي : رسائل البلغاء، الادب الكبير 83.

حسب ما هم عليه من مراتب. قال في الأدب الصغير «مما يدل على علم العالم معرفته بما يدرك من الأمور، وامساكه عما لا يدرك، وتزيينه نفسه بالمكارم، وظهور علمه للناس من غير أن يظهر منه فخر ولا عُجْب، ومعرفته بزمانه الذي هو فيه، وبصره بالناس، وأخذه بالقسط وارشاده المسترشد، وحسن مخالفته خلطاءه، وتسويته بين قلبه ولسانه، وتحرّيه العدل في كل أمر» (39).

2 ـ ما اشتمل عليه الكتاب من حكم اخلاقية وسياسية واجتماعية تنطبق في منطلقاتها ومقاصدها العامة مع الآراء والنصائح الواردة في الأدبين الصغير والكبير. فمن ذلك مثلا الانتصار للعقل، وجعل ذوي الأحلام الراجحة دائما في موقع الضفر في كل أبواب الكتاب، حيث نجد أحيانا مخلوقات ضعيفة في قوتها الجسدية تنتصر على من هو أقوى منها جسدا واقدر على البطش والغلبة، وما ذلك إلا لحسن تفكيرها الذي يرشدها للتعاون فيما بينها وتدبير الحيل الناجحة لصد الأخطار التي تتهددها من اعدائها الأقوياء، كما هو الشأن في باب «الحمامة المطوقة» وباب «السنور والجرذ» وحكايات كثيرة ترد في سياق ضرب الأمثال. وهذه الخصيصة في الكتاب هي التي تلخص قيمته ليس عند الدارس المعاصر فحسب، بل ورد فيه ذلك بعبارة صريحة في باب «ت39وجيه كسرى انوشروان برزويه إلى بلاد الهند» الذي أضافه الفرس إلى الأصل الهندي منسوبا إلى حكيمهم بزر جمهر، حيث نجد أن العقل أفضل هبة وهبها الله لخلقه لتدبير أمر معاشهم ومعادهم، وأضاف «العقل سبب لكل خير، وهو

39) محمد كرد علي : رسائل البلغاء، الأدب الصغير 24.

مكتسب بالتجارب والآداب، وغريزة مكنونة في الإنسان كامنة كمون النار في الحجر والعود لا تُرَى حتى يقدحها قادح من غيرها يظهر ضوءها وحريقها. كذلك العقل من الإنسان لا يظهر حتى يظهر الأدب وتقويه التجارب فإذا استحكم كان هو ولي التجارب والمقوي لكل أدب...» (40).

وعلاقة الأدب بالعقل معروفة في رسائل ابن المقفع مما لا حاجة بنا إلى بسطها من جديد.

ولكن العقل وحده غير قادر على صيانة القيم الاخلاقية، وتحقيق السعادة لصاحبه إن لم يكن مقرونا بما سمي بالمروة والأدب، ولذلك نرى في كل أبواب الكتاب انتصارا لأولئك الذين جمعوا بين النباهة والسعي إلى ترسيخ القيم النبيلة كالوفاء والنجدة والعدل والحلم وغيرها. ففي باب الثور والأسد نجد مثلا واضحا لما قد يحققه صاحب العقل الراجح من فوز في بلوغ مطامحه، وانتصار على خصومه ومنافسيه إذ يعمد أحد بنات آوى المسمى دمنة إلى التماس أسباب الجاه والمجد لنفسه بما أوتي من ذكاء ودهاء، فينجح في التقرب من السلطان (الأسد) وينال الحظوة لديه حتى أصبح ياتمنه على أسراره ويعهد إليه بعظائم الأمور فيكاشفه مرة بما يحس به من خوف عند سماعه لصوت حيوان لا يعرفه، ولم يكن هذا الصوت إلا خوار الثور الذي كان يجهله، فيطمئن دمنة مولاه بأن هذا الحيوان هو أقل الوحوش خطرا عليه ويستأذنه في الاتيان به ليهدأ روعه، فأذن له، وحضر الثور (شنزبة) بعد تطمينات قدمها له دمنة، وعاد بذلك إلى الأسد سكونه وانعقدت بينه وبين شنزبة مودة حتى أصبحا لا يفترقان. وهنا شعر دمنة بالحسد يسري في

---

40) ابن المقفع كليلة ودمنة 17.

أوصاله من المكانة التي احتلها هذا الدخيل لدى السلطان حتى شغله عما سواه، فلجأ إلى الكيد والوقيعة حيث وشى بالثور إلى الأسد وحذره بوادر خيانته، كما سعى إلى الثور وأوعز له أن مولاه يضمر له الغدر، وهكذا نجح في توسيع الهوة بينهما حتى اقتتلا وذهب الثور ضحية هذه المؤامرة.

وإلى هنا تكون الخرافة قد استوفت عناصرها وانتهت بانتصار الدهاء على القوة المادية، ولكن القراىء يلاحظ أن الباب التالي قد سمي بـ «الفحص عن أمر دمنة» والداعي إلى وجوده هو تتبع مصير هذا الداهية الماكر الذي يقتضي منطق الأخلاق الا يفلت بغير عقاب لما اقترفته يداه من اثم في حق الأبرياء.

ويبدو أن هذا الباب قد أقحم في الكتاب إقحاما للدفاع عن المبدأ الاخلاقي وجعله غاية أولي الألباب، وقد لاحظ ذلك الأستاذ عبد الوهاب عزام ونبه على أن الأصل الهندي المسمى «بنج تنترا» لا يشمل الفحص عن أمر دمنة، كما لم يوجد في النسخة السريانية القديمة ولهذا مال إلى الاعتقاد بأن هذا الباب إسلامي من وضع ابن المقفع نفسه (41). وهي ملاحظة مهمة أضيف إليها أن هذا الباب هو دون مستوى سابقه أحكاما سواء من حيث الحبك القصصي الذي ارتكز فقط على المحاورات غير المشوقة، التي أثبت فيها دمنة براعته في الحجاج، ومن حيث المداولات القضائية التي جعلت وسيلة لاجلاء الحق وعدم أخذ الجاني بالظن حتى تتوفر العناصر

---

41) عبد الوهاب عزام مقدمة كليلة ودمنة 34.

المثبتة لجرائره، ونظرا لذكاء دمنة وقدرته على المدافعة لم يصل القضاء إلى أي قرار بشأنه، ورفعوا محضر جلساتهم إلى السلطان الذي بقي على تردده حتى أتيح له شاهدا عدل هما نمر كان قد سمع حديث كليلة لصديقه دمنة يعاتبه فيه على ما ارتكبه في حق شنزبة البرىء، وسبع كان رهن الحبس واصغى إلى ما دار من نقاش بين دمنة السجين وصاحبه كليلة حول نفس الموضوع. وهذا الأسلوب في التحري عن الحقيقة والأخذ بشهادة الشاهدين لاشك مستقى من البيئة الإسلامية ويظهر أثر ابن المقفع في الكتاب وتصرفه في معانيه بما يلائم فكره واتجاهه.

وإذا تركنا هذا الجانب مما حواه كتاب كليلة ودمنة من الأدب الاخلاقي الذي يمجد العقل وينتصر للعلم والفضيلة، يبقى جانب آخر له أهميته كذلك في إبراز صلة ابن المقفع بهذا الأثر الأدبي، وهي صلة تشير أيضا إلى وحدة المنابع التي تلتقي عندها كليلة ودمنة بغيرها من رسائل ابن المقفع الأدبية ونعني بها سياسة الملك.

فقد وقفنا على شذرات من التفكير السياسي وردت في كل من «الأدب الكبير» و«الأدب الصغير» و«الرسالة اليتيمة» مما يدخل في دائرة العلاقة بين الراعي والرعية وبين الملوك وبطانتهم. ونستطيع هنا مقارنة ذلك بما ورد في كليلة ودمنة من خلال مستويين :

أ ـ المستوى الأول الآراء والأحاديث المباشرة التي جاءت على ألسنة الحيوانات في مهاجمة الملوك وأخلاقهم، نجد ذلك في مواضع متفرقة من الكتاب ولكن بابي «الملك والطير قبرة» و«الأسد وابن آوى» مخصصان لتوجيه النقد للملوك والازراء بهم بشكل عنيف.

ففي بـاب «الملـك والطير قبرة» يجري حـوار بين ملـك من ملـوك الإنس وبين طائر له يعيش في قصره ويتحدث الحكماء والبلغاء ضمن حكاية يشعر القارىء لها أن الهدف منهـا هو الطعن على كل ملوك الأرض، إذ زعم أن قبرة كان له فرخ في قصر الملك يلعب مع ابنه ويتسليـان ببعضهما، وكان قبرة يطير كل يوم إلى جهـة بعيـدة ويـأتي بفـاكهتين نـادرتين يطعم فرخـه إحـداهمـا، ويطعم الأمير الأخرى، إلى أن حـدث مرة أن وثب الفرخ على حجر الأمير، فسخط وغضب عليـه حتى قتلـه، فلما عـاد قبرة وجـد فرخـه قتيلا فصـاح «قبحـا للملوك الـذين لا عهـد لهم ولا وفـاء، وويـل لمن ابتلي بصحبتهم فـإنهم لا حميم لهم ولا حريم، ولا يحبون أحـدا ولا يكرم عليهم إلا أن يطمعوا عنـده في غنـائم فيقربوه عنـد ذلـك ويكرموه، فـإذا قضوا منـه حاجتهم فلا ود ولا حفاظ ولا الاحسان يجزون به، ولا الذنب يعفون عنه، الـذين انمـا أمرهم الفخر والريـاء والسمعـة، الـذين كل عظيم من الـذنـوب يركبونه وهو عندهم صغير حقير هين» (42).

وبعـد هـذا الكـلام انقض على وجـه الأمير ففقـأ عينيـه وطـار على شرفته. ولـما علم الملـك امتلأ قلبـه حقـدا، وأراد أن يثـأر لولـده ويستـدرج الطائر إليه باصطناع التسامح والود، ولكن قبرة أريـد لـه الان يمثل رجل الحكمة وبعد النظر، فبيّن للملك أنه لم يعد بينهما مجال للثقة بعد أن كان مـا كان، فأهل الترات لا يمكن أن يصفو الود بينهما مرة ثانية، وعلى العـاقل إلا يثق بعدوه الذي عليه ثأر وخصوصا إذا كان في مقام الملوك.

---

42) ابن المقفع كليلة ودمنة 250.

وهكذا وجدنا الملك يقول لطائره متلطفا : «إن الكريم لا يترك إلفه، ولا يقطع إخوانه، ولا يضيع الحفاظ وإن هو خاف على نفسه حتى إن هذا الخلق ليكون في أوضع الدواب منزلة وقد عرفنا أن ناسا يذبحون الكلاب ويأكلونها، فيرى ذلك الكلب الذي قد ألفهم فيمنعه ألفه إياهم من أن يفارقهم». فيجيبه قبرة : «إن الأحقاد مخوفة حيث كانت، وأشدها ما كان في أنفس الملوك فإن الملوك يدينون بالانتقام ويرون الطلب بالوتر مكرمة وفخروا، ولا ينبغي للعاقل أن يغتر بسكون الحقود فإن مثل الحقد في القلب ما لم يجد متحركا مثل الجمر المكنون ما لم يجد حطبا، فلا يزال الحقد يتطلع إلى العلل كما تبتغي النار الحطب، فإذا وجد علة استعر استعار النار فلا يطفئه ماء ولا كلام ولا لين ولا رق ولا خضوع ولا تضرع ولا شيء دون تلف الأنفس» (43).

وبفطنته هذه نجا قبرة من الفخ، ويهمنا من ذلك أن الخطاب هنا مباشر في التعرض للملوك عامة ثم لمن له منهم موجدة على أحد من بطانته، وقد جعل قبرة رمزا لكل من عاشر الملوك وخبر أخلاقهم، وابن المقفع أحد هؤلاء، وقد شهد أحداثا خطيرة في أيام الانقلاب العباسي وما صاحبه من وقائع ودسائس، أميل إلى الظن، أنها أملت عليه مثل هذه الأقوال المبثوثة في هذا الباب وفي غيره.

وقد ورد أيضا في باب «الأسد والثور» على لسان شنزبة عندما أوعز إليه دمنة بما يضمره له السلطان من غدر «قد غرر من لجج في البحر، وأشد

43) ابن المقفع. كليلة ودمنة 252.

منه مخاطرة صاحب السلطان، فإنه خليق، ان هو لزمهم بالوفاء والاستقامة والمودة والنصيحة أن يعثر فلا ينتعش» (44).

وبمقارنة مثل هذه الفقرات من «كليلة ودمنة» بما ورد في الأدبيين الكبير والصغير من شذرات في هذا المعنى يتأكد لنا الصلة الوثيقة التي تجمع بينها، ومن ثم يمكن القول إن شخصية ابن المقفع وفكره حاضران في كليلة ودمنة بشكل لا يمكن دفعه.

ب ـ المستوى الثاني. يتحدد في مجموعة من المواقف التي اشتملت عليها أبواب الكتاب المختلفة، إذ نرى فيها أصداء الوقائع السياسية للعصر ماثلة في مجتمع الحيوان، وهي وقائع لها ارتباط بما نعرفه عن حياة ابن المقفع وعلاقته بولاة عصره، ففي باب «الأسد والثور» وردت إشارة مهمة حينما بعث السلطان في طلب شنزبة، إذ لما رأى دمنة تردد الثور في الاستجابة إلى ما دعاه إليه من مقابلة مولاه ألح عليه في ذلك، فما كان منه إلا أن اشترط عليه أن يكتب له السلطان عهدا يؤمنه فيه على نفسه، فأعطاه ما سأل (45) ويمكننا فهم مغزى ذلك إذا عرفنا مصير شنزبة فيما بعد، حيث لم ينفعه عهد ولا أمان، وتزداد فهما لهذا الموقف إذا نظرنا إلى سيرة ابن المقفع مع ولاة عصره، وما قيل في شأن العهد الذي كتبه لعم المنصور عبد الله ابن علي بعد هزيمته، ومصيره فيما بعد، وما جر ذلك على كاتب العهد نفسه. وفي باب «الأسد وابن آوى» نجد الحادث يتكرر عندما يطلب السلطان (الأسد) من ابن آوى أن يصحبه ويكون له وزيرا، فلم يوافق في مبدأ الأمر

44) نفس المصدر 79.

45) نفس المصدر 61.

لما كان عليه من ورع وسمو في الأخلاق، ولبصره بما يلحق صحبة الملوك من بوائق لا قبل له بها، ولكن السلطان ألح عليه في ذلك لإعجابه به، فقبل على مضض، واشترط على مولاه أن يكتب له عهد أمان من شد الحاسدين ممن هم فوقه أو دونه منزلة في الدولة (46) وهكذا أصبح ابن آوى من خاصة الملك وأهل مشورته، فولاه أمر خزانته الخاصة، مما أثر حسد الحاسدين وكيد الطامعين، فسعوا في هلاكه، ودبروا له مؤامرة مؤاداها أن الملك أصاب من لحم شهي، فأمر أن يحتفظ له بما تبقى منه ليرجع إليه، فسرق أحد المتآمرين هذا اللحم، وأخفاه في منزل ابن آوى، وعندما طلب الملك طعامه لم يجده، فأجمع الحاضرون على اتهام وزيره، وطالبوا بالتحقيق في أمره، فثبت بالبرهان ذنبه، وحبس وكاد يقتل، لولا أن أم الملك استدركت الأمر، والحت على ولدها بالتثبت إلى أن بانت برائته.

وهكذا نرى دائما أن العهود والضمانات التي يقدمها الملوك لا قيمة لها أمام نزواتهم ولهذا أيضا مغزاه الخاص المستمد من عصر ابن المقفع لا شك، وعلى هذا فإن ابن المقفع لم يكن مجرد ناقل من الفهلوية إلى العربية فيما يتصل بكليلة ودمنة، بل كان مترجما ومتصرفا ومضيفا ما عن له من أفكار تناسب المواقف المختلفة في هذه الخرافات، وقد وفق في ذلك إلى حد بعيد، ومما يؤسف له أنه لم تقع في أيدينا إلى اليوم أية ترجمة أخرى لهذا الكتاب ليستطيع الدارس الموازنة والوصول إلى معرفة يقينية لمختلف النواحي المتصلة بالموضوع.

(يتبع)

محمد حماد

46) نفس المصدر 259.

قراءة في كتاب الأدوار
لصفي الدين الأرموي البغدادي
ونقد لتحقيق الحاج هاشم الرجب(*)

أ حمد عيدون

يعتبر كتاب «الأدوار» لصفي الدين عبد المومن البغدادي المتوفى سنة 693 هـ (1294 م) من أهم المخطوطات التي تعطينا معلومات دقيقة عن المقامات والإيقاعات العربية وقد تناوله الحاج هاشم محمد الرجب الباحث العراقي المرموق بالشرح والتحقيق فأسهم بذلك في إغناء المكتبة الموسيقية في العالم العربي،وانتهى إلى توضيحات ومقارنات علمية تيسر التعامل مع المصطلحات التي وردت في المخطوط وتعطي المقابل الحديث للأدوار والإيقاعات المذكورة فيه. وإني إذ أهنيء الحاج هاشم محمد الرجب على صبره الطويل ودقته في التحليل، أرى من واجبي أن أسوق بعض الملاحظات حول ما استرعى انتباهي في سلم الأرموي وما أغفله المحقق في هذا الصدد وأملي أن أضيف إلى بحث أستاذنا الرجب ما هو كفيل بتسليط مزيد من الأضواء على تراثنا العربي.

(*) كتاب الأدوار شرح وتحقيق هاشم محمد الرجب. دار الرشيد للنشر 1980 سلسلة كتاب التراث 192.

1 . أبعاد الأرموي

الأبعاد كما يسوقها المحقق في صفحة 19 هي :

- بعد البقية ومسافته $\frac{256}{243}$.
- بعد (ج) ونسبته حسب المحقق إما $\frac{10}{9}$.

أو $\frac{16}{15}$ أو $\frac{2187}{2048}$.

- البعد الطنيني ونسبته $\frac{9}{8}$.
- الكوما الأرموية ونسبتها $\frac{81}{80}$

والحقيقة أن المحقق قد جانب الصواب فيما يخص بعد (ج) وفيما يخص الكوما الأرموية. ولتوضيح ذلك نرجع إلى نص الأرموي في محاولة لاستشفاف المعلومات التي ستعيننا على الحساب الدقيق للمسافات وبالتالي تسوقنا إلى نتائج علمية واضحة.

ينطلق الأرموي من الوتر المطلق (أو المحبوس) ليقسمه حسب نسب مختلفة لايجاد 17 دستانا أي موقعا وعلامة في السلم ويستعمل الأرموي في ذلك ستة علاقات (أنظر ص 45 أقسام الدساتين).

العلاقة الأولى :

ويكون تعبيرها كالآتي : «نقسم... قسمين متساويين ونعلم عليها حرف (كذا)» وهو ما يحدد بعد ذي الكل أي الجواب.

العلاقة الثانية :

تعبيرها : «نقسم... ثلاث أقسام ونعلم على نهاية القسم الأول حرف (كذا)» إذن يهتز من الوتر ثلثاه وهو ما يحدد بعد ذي الخمس.

العلاقة الثالثة :

تعبيرها : «نقسم... أربعة أقسام ونعلم على نهاية القسم الأول منه حرف (كذا)» فيهتز من الوتر ثلاثة أرباعه الشيء الذي يحدد بعد ذي الأربع.

العلاقة الرابعة :

تعبيرها : «نقسم... تسعة أقسام ونعلم على نهاية القسم الأول منه حرف (كذا)» فيهتز من الوتر ثمانية أجزاء من تسعة الشيء الذي يحدد البعد الطنيني الأعلى.

العلاقة الخامسة :

تعبيرها : «نقسم... ثمانية أقسام ونضيف إليه من جانب الثقل قسما ونعلم على نهايته حرف (كذا)» وهو ما يحدد البعد الطنيني الأسفل.

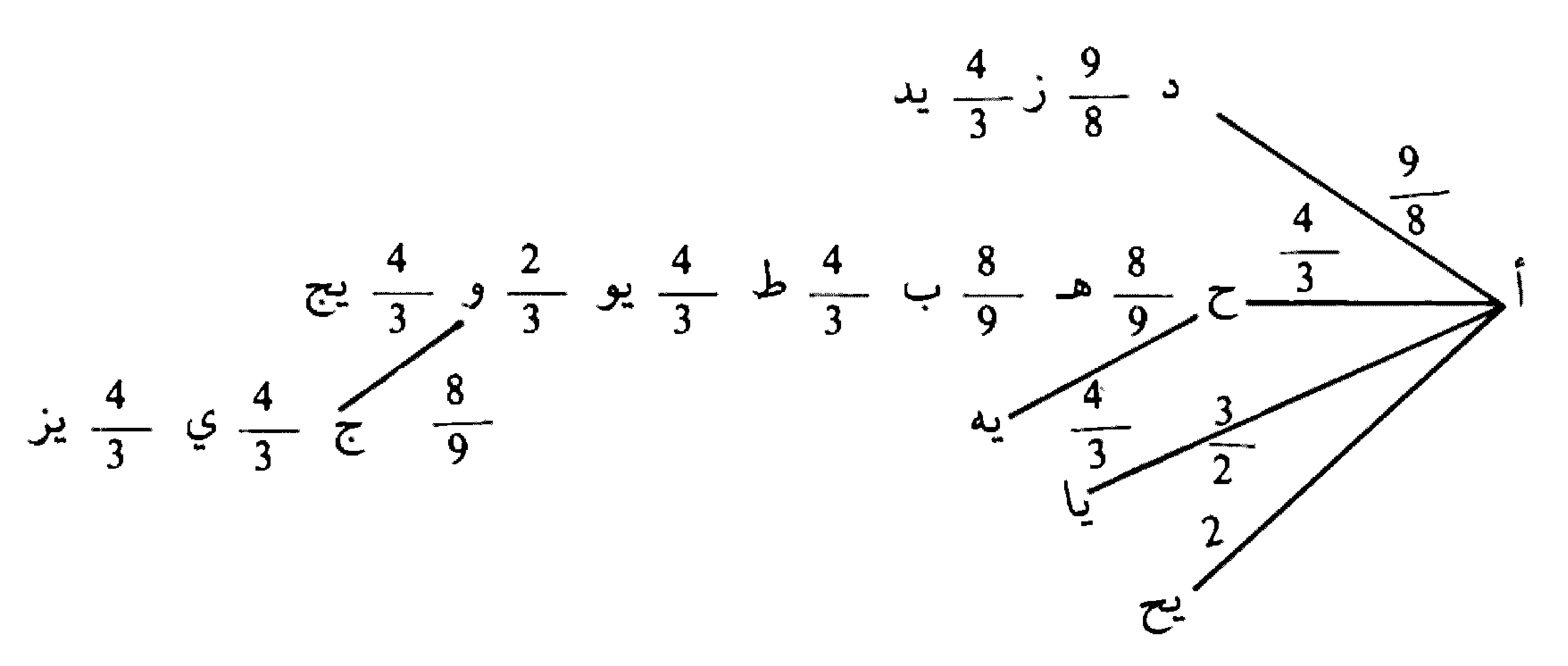
العلاقة السادسة :

تعبيرها : «نقسم... قسمين متساويين ونضيف إليها من جانب الثقل قسما آخر مساويا لأحد القسمين ونعلم على نهايتها حرف (كذا)» الشيء الذي يحدد بعد ذي الخمس الأسفل.

وزيادة في التوضيح نطبق ما قاله الأرموي في الجدول الآتي :

العلاقـة	الأولى بعد ذي الكل	الثانية بعد ذي الخمس	الثالثة بعد ذي الأربع	الرابعة بعد طنيني أعلى	الخامسة بعد طنيني أسفل	السادسة ذي الخمس الأسفل
الدساتين حدود العلاقة	أ - يح	أ - يا ب - يب	أ - ح ح - يه ب - ط ط - يو ج - ي ي - يز و - يج ز - يد	أ - د د - ز	ح - هـ هـ - ب و - ج	يو - و

فيكون ترتيب ظهور الدساتين أ - يح - يا - ح - يـه - د - ز - هـ - ب - يب - ط - يو - و - ج - ي - يز - يج - يد وعلاقات استخراجها من بعضها حسب الشجرة التالية :



وبذلك يسهل حساب جميع الدساتين التي يذكرها المخطوط ابتداء من دستان أ مطلق الوتر فالدساتين الأخرى تؤخد على الطريقة الآتيـة وحسب نسبها إلى مطلق الوتر :

د : ونسبته $\frac{9}{8}$

ح : ونسبته $\frac{4}{3}$

يا : ونسبته $\frac{3}{2}$

يح : ونسبته 2

ز : ونسبته د × $\frac{9}{8}$ أي $\frac{81}{64}$

يد : ونسبته ز × $\frac{4}{3}$ أي $\frac{27}{16}$

هـ : ونسبته ح × $\frac{8}{9}$ أي $\frac{32}{27}$

يه : ونسبته ح × $\frac{4}{3}$ أي $\frac{16}{9}$

ب : ونسبته هـ × $\frac{8}{9}$ أي $\frac{256}{243}$

ط : ونسبته ب × $\frac{4}{3}$ أي $\frac{1024}{729}$

يو : ونسبته ط × $\frac{4}{3}$ أي $\frac{4096}{2187}$

و : ونسبته يو × $\frac{2}{3}$ أي $\frac{8192}{6561}$

يج : ونسبته و × $\frac{4}{3}$ أي $\frac{32768}{19683}$

ج : ونسبته و × $\frac{8}{9}$ أي $\frac{65536}{59049}$

ي : ونسبته ج × $\frac{4}{3}$ أي $\frac{262144}{177147}$

يز : ونسبته ي × $\frac{4}{3}$ أي $\frac{1048576}{531441}$

هذا الجدول يعطينا ـ إذن ـ نسبة طول الوتر المهتز عند نقطة كل دستان إلى الوتر المطلق. لذلك إذا أردنا معرفة المسافات الأخرى يجدر بنا أن نقوم بحساب نسبة كل دستان للدساتين التي تسبقه ودون أن ندخل في تفاصيل النسب نسوق كل المسافات المحصورة في حدود البعد الطنيني (أ ـ د) :

المسافة	أ ـ أ	أ ـ ب	أ ـ ج	أ ـ د	ب ـ ج	ب ـ د	ج ـ د
النسبة	1	$\frac{256}{243}$	$\frac{65536}{59049}$	$\frac{9}{8}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{2187}{2048}$	$\frac{531441}{524288}$

وحتى ولو أكملنا العملية على كل دساتين السلم فلن نجد الكوما التي يقول المحقق أنها أرموية وأن نسبتها $\frac{81}{80}$ وسنجد بدلها في مواضيع شتى كوما أخرى نسبتها $\frac{531441}{524288}$ وهي الفضلة أو كوما فيتاغورس. ويسوقنا هذا إلى مقارنة سلم الأرموي بالنظم السلمية الأخرى لتبيان مطابقتها أو عدم مطابقتها لها قبل الترجمة إلى النوطة الحديثة.

2 ـ مقارنة النظم السلمية :

كل النظم السلمية الموجودة نظريا يمكن تصنيفها وتلخيصها في :

أ ـ نظام الخامسات.

ب ـ نظام الأنغام الهارمونية الناتجة.

ج ـ النظام السلمي المعدل.

مع العلم أن المقامات العربية الحديثة ما زال النقاش حولها منذ 1932 لم ينته بعد إلى نتائج تحدد نظامها السلمي.

وسنتعرض للنظامين الأولين (أ و ب) فقط لوجود النسب التي تعنينا في البحث.

أ ـ نظام تتابع الخامسات

وهو النظام الذي اتبعه فيتاغورس في القرن السادس قبل الميلاد وطوره العرب باخضاعه لمسافات جديدة.وسنعرض لذلك في حينه حينما نتكلم عن سلم الأرموي.

يتميز هذا النظام بكون كل المسافات يعبر عنها بكسر يتضمن أس رقم 2 وأس رقم 3 مثلا البعد الطنيني هو $2^{3}/3^{2}$ (أي ثلاثة مضروبة في نفسها على اثنان مضروبة في نفسها 3 مرات) وبالتالي فالبعد الطنيني نسبته 9/8 في هذا النظام تكون البقية أو الليما أصغر من الأبوطوم Apothome بفضلة نسبتها $\frac{531441}{524288}$ لذلك فعلامة فابمول أثقل من علامة مي وعلامة مي دياز أعلى وأحد من علامة فا وقس على ذلك في جميع الدساتين.

وبما أن البعد الطنيني هو زيادة أبو طوم وليما أو ليما + فضلة + ليما فلا يوجد إلا بعدا طنينا أو حدا هو حاصل ضرب الأبوطوم في الليما أي

$$\frac{256}{243} \times \frac{2187}{2048} = \frac{9}{8}$$

ب ـ نظام الأنغام الهرمونية الناتجة.

أول من استعمل هذا النظام هو أريسطوكسين اليوناني وقد تممه زارلينو في القرن السادس عشر الميلادي وهو إن لم يستعمل كل الأصوات الناتجة Harmoniques يتخذ أهمها أساسا لحساب النسب.

ويتميز هذا النظام بوجود بعدين طنينين:كبير (ونسبته $\frac{9}{8}$) وصغير (ونسبته $\frac{10}{9}$) بفارق ضئيل يسمى كوما البعدين (ونسبته $\frac{81}{80}$).

في هذا النظام كذلك يكون نصف البعد الطبيعي أكبر من نصف البعد الملون عكس ما هو موجود في النظام السابق. لذلك فعلامة دو دياز مثلا أثقل من ري بمول وقس عليه في كل الدساتين الأخرى.

أما النسب المعتمدة في البعدين الطنينيين فهى :

نصف بعد طبيعي + نصف بعد ملون = يساوي بعدا طنينيا صغيرا بنسبة $\frac{16}{15} \times \frac{25}{24} = \frac{10}{9}$.

ثم نصف بعد طبيعي + نصف بعد ملون + كوما = يساوي بعدا طنينيا كبيرا بنسبة $\frac{16}{15} \times \frac{25}{24} \times \frac{81}{80} = \frac{9}{8}$

3 ـ الاستنتاجات :

بمقارنة هذه الأنظمة نرى أن نظام الأرموي هو نفسه نظام فيتاغورس لا وجود فيه إلا لبعد طنيني أو حد بنسبة $\frac{9}{8}$. أما البقية أو

الليما فنسبتها $\frac{256}{243}$ ولا وجود لبقية غيرها والمحقق مخطأ إذ يذكر في صفحة 57 أن البعد الطنيني عند الأرموي مؤلف من نسب

$$\frac{81}{80} + \frac{135}{128} + \frac{256}{243}$$

وأن البعد ج على ثلاثة أنواع :

الأول على نسبة $\frac{10}{9}$ وهو حاصل من $\frac{256}{243} + \frac{135}{128}$

والثاني على نسبة $\frac{16}{15}$ وهو حاصل من $\frac{256}{243} + \frac{81}{80}$

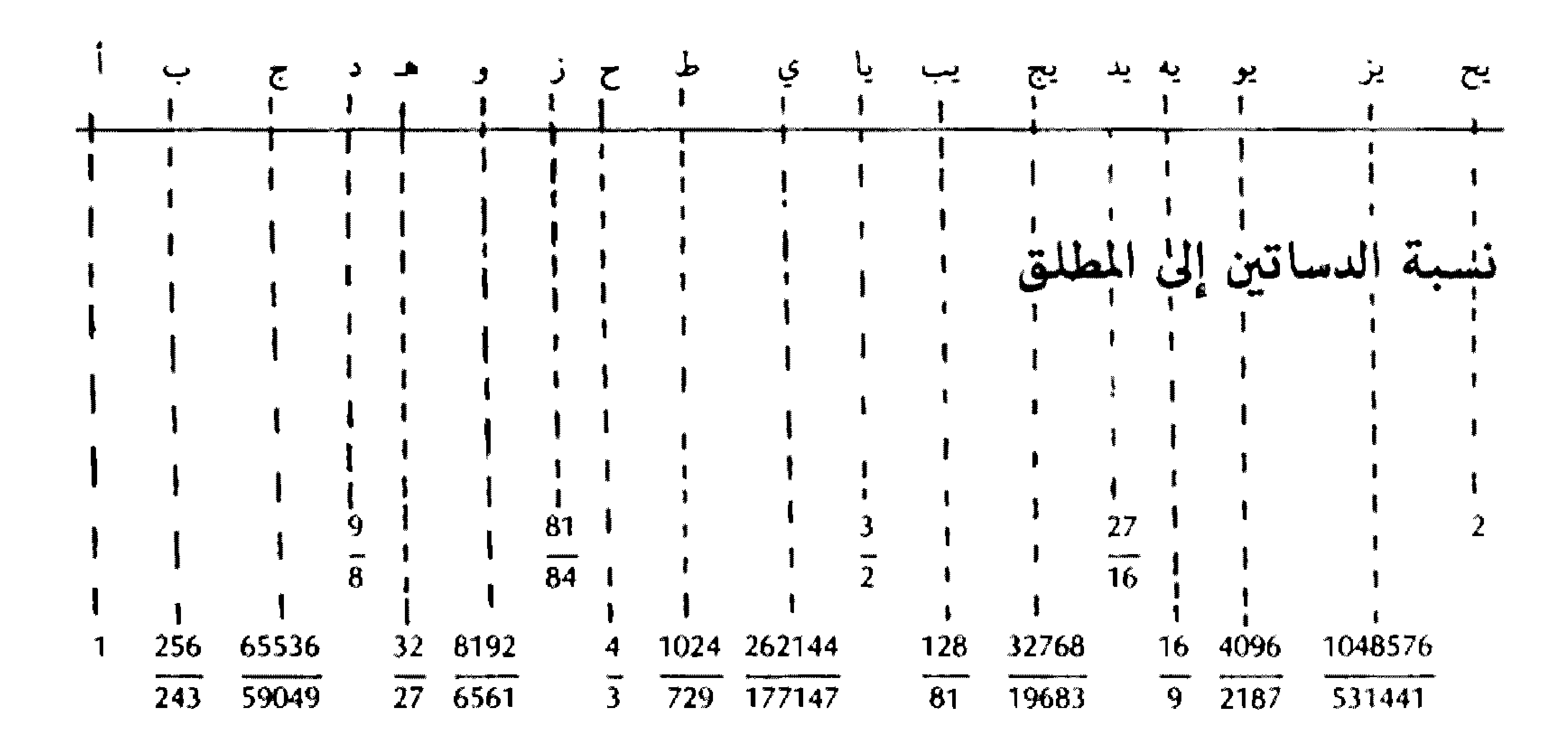
والثالث على نسبة $\frac{2187}{2048}$ وهو حاصل من $\frac{135}{128} + \frac{81}{80}$

وأظن شخصيا أن سبب هذا الخلط بين الأنظمة النظرية عند المحقق ناتج عن ماورد في الجنس السابع من الطبقة الأولى حيث تتوالى ثلاثة أبعاد من صنف ج وبعد ب لتكوين مسافة ذي الأربع. ولرفع الالتباس أعرض فيما يلي كيفية بناء سلم الأرموي وسنبدأ العد من دستان أ الذي يوافق نغمة البم ونصعد ببعد ذي الخمس أربع مرات حتى دستان (ز) ثم ببعد ذي الأربع (الذي هو انقلاب بعد ذي الخمس) اثنى عشر مرة حتى دستان (يز) وبهذه الطريقة سنجد كل الدساتين التي ذكرها الأرموي.

تتابع الخامسات	تتابع الرابعات		
أ	أ		يو
يا	ح		و
د	يه		يج
يد	هـ	ثم	ج
ز	يب		ي
	ب		يز
	ط		

ولن نحتاج إلى كبير مجهود لإثبات حساب هذه الدستانات بتوالي الخامسات أو الرابعات بنسبة $\frac{3}{2}$ أو $\frac{2}{3}$ الذي يوافق تماما حساب دستانات سلم الأرموي. وللمقارنة نوردهما معا.

سلم الأرموي



نسبة كل دستان إلى الذي قبله

●	●	●●	●	●	●●	●	●	●	●●	●	●	●●	●	●	●	●●
$\frac{256}{243}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{531441}{524288}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{531441}{524288}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{531441}{524288}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{531441}{524288}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{256}{243}$	$\frac{531441}{524288}$

علاقة ب/د $\frac{2187}{2048}$

أبو طوم ● ليما

سلم الخامسات (الفيتاغوري)

أ

(يا) $\frac{3}{2}$ د ($\frac{9}{8}$) يد ($\frac{27}{16}$) ز ($\frac{81}{64}$)

ح $\frac{4}{3}$ يه ($\frac{16}{9}$) هـ ($\frac{32}{27}$) يب ($\frac{128}{81}$) ب ($\frac{256}{243}$) ط ($\frac{1024}{729}$)

يو ($\frac{1096}{487}$) و ($\frac{8192}{6561}$) يج ($\frac{32768}{19683}$) ج ($\frac{56536}{59049}$) ي ($\frac{262144}{177147}$)

يز ($\frac{1048576}{531441}$)

4 ـ مقارنة سلم الأرموي بالسلم الموسيقي العربي حاليا

في سنة 1932 انعقد بالقاهرة أول مؤتمر للموسيقى العربية. وقد آنكب هذا المؤتمر على دراسة مشكلة السلم الموسيقي العربي في لجنة مختصة أثبتت أن الاختلاف قائم حول عربتي العراق والسيكا بين ثلاثة أنظمة على الأقل : نظام أمين الديك (مصر) نظام الشيخ على الدرويش (سوريا) نظام رؤوف يكتابك (تركيا).

وبمقارنة النسب التي تتضمنها هذه الاتجاهات الثلاث تبين لي أن أقربها إلى سلم الأرموي هو ما أتى به رؤوف يكتا بك الذي ينبني نظامه على تتابع الخامسات وامتداد المنطق الفيتاغوري إلى 24 خامسة بدل 17 عند الأرموي لذلك كانت عربتا العراق والسيكا مرتفعتان عن مثيلتيهما في النظام المصري بكومتين فيتاغوريتين وعن النظام السوري بكوما فيتاغورية واحدة وهو الشيء الذي أكده مؤتمر القاهرة وبات معروفا عند كل المهتمين بنظرية الموسيقى العربية.

الرباط أحمد عيدون

كتاب السِّيَر

لأبي إسحق ابراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري المتوفى سنة 186 هـ

محمد بن عبد العزيز الدباغ
محافظ خزانة القرويين

من أهم المميزات التي تطبع القرن الثاني الهجري انكباب الفقهاء والمحدثين على تدوين الحديث وتسجيل الأحكام الواردة عن اجتهاد ذوي الرأي وعن تأويل المفسرين الشيء الذي جعل بعض الكتب في تلك الحقبة من اللبنات الأساسية في نشر القوانين الفقهية وفي تحديد أصولها.

وكانت الخطة المتبعة في ذلك تنهج نهج المحققين الذين يروون الأخبار وينقلونها بعد التمحيص والتدقيق وبعد ربطها بأعلام معينين ويتعمدون في الذكر موضوعات متصلة بالأخلاق والمعاملات والعبادات وترتبط بالجهاد والغنائم والمغازي وما يتعلق بذلك من أحوال المجاهدين وأصنافهم.

ولقد جرت عادة بعض الذين يهتمون بالتأليف في هذا المجال أن يستحضروا حياة الرسول وأقواله وأفعاله وأن يوازنوا بين بعض الآيات

القرآنية وما تحتمله من تأويلات خاضعة للمبادىء الأصولية المتعلقة بتخصيص العام أو تعميم الخاص وبتقييد المطلق أو إطلاق المقيد أو ما يشبه ذلك بالنسبة إلى المقارنة بين الآيات القرآنية وكيفية تفسيرها من خلال السنة أو بالنسبة إلى اجتهاد العلماء والأئمة الذين كانوا يربطون بين القضايا المحدثة وبين ما يشبهها في سيرة الرسول وسيرة أصحابه.

وأصبحت هاته الخطة التأليفية تعرف بالسير ومن أقدمها سير أبي اسحق الفزاري المتوفى سنة 186 هجرية وهو من أكبر العلماء في القرن الثاني الهجري فقد ولد بالكوفة ثم رحل إلى دمشق فكان من أصحاب الأوزاعي ومعاصريه ثم رحل إلى بغداد فأكرمه الرشيد إكراما كبيرا واحتفى به وقدر مجهوده الفكري وجعله عمدة في الفتوى وفيا يصدر عنه من أحكام.

ولم يكن أبو اسحق ممن يرضى بالركون إلى الخمول والاكتفاء بالبحث العلمي فهو كان يرى أن الإسلام لا يتم انتشاره ولا تستقر أوضاعه إلا إذا ساهم المسلمون بالدفاع عن حوزته وحماية مبادئه لذلك توجه من بغداد إلى المَصِيصَة فرابط بثغرها وظل هناك إلى أن لقي الله شهيدا.

كان الفزاري قويا في الحق نزيها في الرواية عاملا على تطهير الحديث من التدليس وعلى تمحيصه ونقده ليلا يتسرب إليه الموضوع أو يتخلله المدسوس. ولقد ورد في كثير من الأخبار ما يدل على صدق دفاعه وقوة مواجهته للزنادقة والملحدين والوضاعين وكان هرون الرشيد يفتخر بوجوده ووجود عبد الله بن المبارك ويعتبرهما حصنا دفاعيا يبطل على المفسدين خططهم ولا يترك لهم مجالا للوضع والتدليس : (تهذيب التهذيب ج 1 ص 151).

ولقد ظهرت قيمة اختياراته فيما نقله في سيره عن الرسول ﷺ وعن الصحابة والتابعين وعن بعض الأئمة المجتهدين حتى صار كتابه عمدة للقارئين والدارسين في العصر العباسي واعتز به الإمام الشافعي وعده أحسن كتاب في بابه فقال إنه لم يؤلف كتاب في السير مثله (تهذيب التهذيب)، ولإعجابه بخطته ومنهاجه جعله نموذجا لتأليف بعض السير التي كتبها كسير الأوزاعي وسير الواقدي رحمهم الله جميعا (معجم الأدباء للحموي ج 17 ص 326).

وكان الفزاري يهتم كثير الاهتمام بأمور الجهاد وما يتعلق به نظرا لقيمة هذا الموضوع في المجال الديني والأخلاقي والاجتماعي وكان يعمد إلى ربطه بنقول دقيقة موثقة معتمدة على تسلسل السند شأنه في ذلك شأن رجال الحديث المحققين.

وقد قسم كتابه إلى خمسة أجزاء احتفظت خزانة القرويين بالجزء الثاني منها سالما وبالأجزاء الأخرى متلاشية مبتورة ومع ذلك يمكن الاستفادة منها.

وقد ازدان الجزء الثاني بملحوظة كتبت على الصفحة الأولى يقول فيها كاتبها هذا الكتاب يشتمل على خمسة أجزاء وجميعها بخط الشيخ الراوية الفاضل أبي بكر عباس بن أصبغ حاشا الجزء الثاني فهو أصله بغير خطه وعباس هذا من جلة العلماء والرواة والفضلاء المكثرين أخذ الناس عنه كثيرا واشتهر بالعلم والدين والفضل والثقة وعلو الإسناد وتوفي في ذي القعدة من سنة ست وثمانين وثلاثمائة ومولده سنة ست وثلاثمائة..

الجزء الثاني من حديث إبراهيم بن محمد العبدلي

رواية محمد بن وضاح عن أبي مروان الحمصي

والغالب أن هذا الجزء الثاني المكتوب على رق الغزال سنة مائتين وسبعين هجرية كان الحافز لعباس بن أصبغ على البحث عن الأجزاء الأخرى وعلى نسخها بخطه الجميل فكان الكتاب بعد ذلك ينتقل بأجزائه الخمسة وتتداوله أيدي العلماء إلى أن أصبح يوما من الأيام في حوزة المؤرخ الجليل والعالم الفاضل خلف ابن بشكوال صاحب الصلة الذي وضع خطه على واجهته ثم استمرت به الأيام إلى أن أصبح أخيرا ذخيرة من ذخائر الفكر الإسلامي في خزانة القرويين وعنوانا من عناوين الروابط الروحية التي كانت تجمع بين المشرق والمغرب فنظرة في هذا الكتاب تسبح بالفكر نحو آفاق المعرفة وتعود به إلى أحضان الحضارة الإسلامية في عهد ازدهارها وإلى نشاط علماء الأندلس في الأخذ والتلقين.

إن عباس بن أصبغ لم يكتف بنسخ الكتاب وإنما كان أحد الملقنين له، فقد سمعه منه جماعة من الأعلام نجد على واجهة الكتاب أسماءهم وتاريخ سماعهم نذكر من بينهم أصبغ بن سعيد بن أصبغ، فقد قرأ جميعه في عقد ذي القعدة من سنة تسع وسبعين وثلاثمائة وقد قرأه أيضا محمد بن عبد الله بن اليسع بن بنوش، وذلك في متم جمادى الأولى من سنة تسع وسبعين وثلاثمائة وسمعه في التاريخ نفسه أخوه يحي وأحمد بن عبد الله بن أبي لاحم ومحمد بن أبي ابراهيم وأسد بن ابراهيم.

وقرأه عبد الرحمن بن محمد بن وليد في جمادى الآخرة من سنة ثمانين وثلاثمائة وقرأه محمد بن عبد الله في صدر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وسمعه في التاريخ نفسه هشام بن عبد الملك وعبد الجبار.

الورقة الأخيرة من كتاب السير وفيها يظهر تاريخ النسخ واضحاً

ولقد كان رجال الحديث والتاريخ يفتخرون بانتمائهم المعرفي إلى عباس بن أصبغ هذا نظرا لما له من الشهرة آنذاك فهو من أساتذة ابن الفرضي ولقد ترجم له في كتابه المخصص لتاريخ العلماء والرواة بالأندلس وقال عنه إنه كان شيخا حليما ضابطا لما كتب طاهرا عفيفا.

ولا شك أن الكتاب المذكور قد تعددت رواياته عن مؤلفه إلا أن النسخة التي نحن بصدد الحديث عنها تتعلق بالنسخة المروية عن محمد بن وضاح عن أبي مروان عبد الملك المصيصي.

ومحمد بن وضاح هذا علم من أعلام الحديث بالأندلس في القرن الثالث الهجري فقد توفي سنة 287 هـ وقلما تجد رجلا من أهل الحديث في هذا العصر إلا أخذ عنه واستفاد من علومه ودرايته وكان كثير العناية بالتلقين زاهدا في ملذات الدنيا محتسبا لله فيما يروي وكانت همته متوجهة إلى أخذ العلم وتسجيله، فقد روى عن جلة من العلماء بالأندلس والمشرق حتى إنهم يذكرون عنه أنه روى عن خمس وسبعين ومائة رجل، وكان حريصا على التلقين برواياته مجتهدا في ذلك حتى كان من أسباب ازدهار علم الحديث بالأندلس فقد قيل : إن الأندلس صارت دار حديث بسبب ابن وضاح هذا ورجل آخر هو بقي بن مخلد الحافظ الشهير.. (تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ج 2 ص 16).

ان ابن وضاح نقل كتاب السير عن أبي مروان عبد الملك بن حبيب المصيصي ولا ريب أن رواية المصيصي هذه ستكون دقيقة لأنه أخذها عن المؤلف الذي كان مرابطا بالمصيصة حينما كان يقدم كتابه ويعلمه للناس (تهذيب التهذيب ج 6 ص 389).

ولم يكن ابن وضاح يكتفي حين التلقين بمحفوظاته بل كان يرجع إلى مدوناته وتقييداته وهي طريقة كانت في المغرب والأندلس متبعة حتى صار المثل الشعبي الشهير «ينسى الراس ولا ينسى الكراس» مذاعا في كل مكان.

وكان الناقلون عنه يعتزون بالأخذ منه وبالاستفادة مما عنده، فقد ورد في الصلة لابن بشكوال حين الحديث عن محمد بن عبد الله الأسدي القرطبي أنه كتب عن محمد بن وضاح جميع ما كان عنده حتى الكم وسئل عن الكم فقال كان عنده كم قميص مملوء من بطائق وقنادق وقال حتى البطيقات بقدر الأنملة (ج 2 ص 474).

فابن وضاح إذن كان حريصا على تسجيل ما يتلقاه ويقدمه للناس معتمدا على تقييداته وتسجيلاته وهذا مما يؤكد صدقه وحرصه على الأمانة في التلقين، وقد يكون هذا الكتاب المذكور من الكتب التي وصلت إلى عباس بن أصبغ عن طريق محمد بن عبد الله الأسدي هذا.

إنما الشيء الذي يقتضيه تسلسل الأحداث ويدل عليه الوضع العام للثقافة آنذاك، هو كون هذا الكتاب كان من الكتب التي حملها ابن وضاح إلى الأندلس فشارك بنقله في النهضة العلمية التي عمت الآفاق في مختلف المجالات، فالأندلسيون كانوا يروجون الكتب الشرقية كثيرا وكان الأمويون يشجعون على ذلك ويبعثون البعثات إلى الشرق من أجل استيراد الكتب النافعة، بل إن الرحلات العلمية قد فرضتها الظروف وأصبح المتوجهون إلى المشرق كثراً يؤسسون الشركات المتعلقة بالاستفادة والنسخ ويرجعون مزودين بالعلم والأدب وازدهرت بسبب ذلك التجارة الخاصة بالكتب فكان

لها الفضل الكبير في بث جذور المعرفة التي انتشرت في مختلف الآفاق وظلت إلى الآن تعد إشعاعا حضاريا يربطنا بتطور الفكر الإسلامي على اختلاف واجهاته.

ونظرة في هذا الكتاب وفي موضوعاته العامة تدل على أن الفقهاء كانت لهم عناية بشؤون الجهاد وبتحديد القوانين العامة الرابطة بين المسلمين وغيرهم في حالتي السلم والحرب بل إن بعض موضوعاته تدمح الآن في دراسات القانون الدولي وفي دراسات الفقه المقارن، ولعلنا سنكون على بينة من ذلك إذا قدمنا أسماء بعض الأبواب التي أثارها الفزاري في كتابه، فهو قد تحدث في الجزء الأول عن أمان الرجل والمرأة والعبد وعن العلج يدخل بأمان ويريد الرجوع، وعن نصب المنجنيق، وتحدث في الجزء الثاني عن نبش القبور وعن الركاز يصاب في بلاد العدو والدواب وعن كراهية أخذ الرجل عن المقاسم والقضاء أجرا وعن بيع الكلب والباز وعن الصلاة على الصغار إذا ماتوا وعن الغلول وتحدث في الجزء الثالث عن الرجل يبايع على قتل أخيه وأبيه وعن الرياء وعن الشهادة وعن الصوم في السفر وتحدث في الجزء الرابع عن النهي عن قتل الراهب وتحدث في الجزء الخامس عن أول من أظهر الإسلام.

وليست قيمة هذه الموضوعات التي أشرنا إليها بظاهرة إذا اكتفينا بالإشارة فقط، بل إن الصورة لا تكتمل إلا إذا اخترنا بعض النصوص من الكتاب لنتعرف على الطريقة التي كان المؤلف يعالج بها موضوعاته وسنجعل هاته النصوص منوعة ومنتقاة من مختلف الأبواب.

1 ـ الفزاري عن عبد الملك عن أنس بن سيرين قال : أتيت ابن عمر وهو في المسجد فقلت إن صاحبا لي أوصى بدارهم تجعل في سبيل الله وإني

رأيت ناسا من الحاج قد قطع بهم أفأدفعها إليهم أو إلى ذوي الحاجة منهم ؟ قال : نعم، قلت : إني أخاف أن يكون صاحبي إنما نوى المجاهدين قال أعطها إياهم قال قلت إني أخاف ألا أوافق ما كان في نفس صاحبي فغضب ثم قال ويلك أليس في سبيل الله. (الجزء الثاني صفحة 7).

2 ـ الفزاري عن ابن عون عن أنس بن سيرين قال أوصى إنسان بشيء في سبيل الله فلما كان زمن الحج قيل لابن عمر أيجعل في الحج ؟ قال أما إنه من سبل الله ! (ج 2 ـ ص 7).

3 ـ أخبرنا أبو مروان قال حدثنا الفزاري قلت لسفيان إن أصاب المسلمون في بلاد عدوهم مسالماً معه امرأة وأمة وولدها ومالها فقال امرأتي وولدي ومالي وأمتي ابتعتها قال إن كانوا في يديه صدق... وقال الأوزاعي هم له إذا كانوا في يديه إلا أن تقوم بينة أنه لعدو (ج 2 ص 15).

4 ـ قلت لسفيان : رسول دخل إلى العدو بأمان فقدر على أن يخرج بأسرى من المسلمين بغير علمهم أترى إخراجه إياهم خيانة منه لهم ؟ قال هي خيانة لا بأس بها فليخرج بما قدر عليه منهم. قيل للأوزاعي رسول أو غيره دخل إلى العدو بأمان ففدى أسيرا من المسلمين هل للأسير أن يختانهم ويأخذ من أموالهم شيئا بغير علمهم ؟ قال : لا لأنه في أمان منهم، قلت فإن خرج رجل من دار الإسلام إلى دار الحرب بغير إذن الإمام فأغار عليهم فأصاب منهم شيئا، قال يخمس وبقيته له (ج 2 ص 17).

5 ـ قال ابن جريج وأخبرت عن صالح بن كيسان أن النبي عليه السلام قسم يوم النضير لستة وثلاثين فرسا لكل فرس سهمين وقسم يوم خيبر لمائتي فرس لكل فرس سهمين.

ـ الفـزاري عن عبيـد الله بن عمر عن نـافـع عن ابن عمر قـال : قسم رسول الله عليـه السلام يوم خيبر للفرس سهمين وللرجل سهما. قـال : قـال نافع : فإذا كان مع الرجل فرس أخذ ثلاثة أسهم، فإن كان وحده أخذ سهما (ج 2 ص 18).

6 ـ الفزاري عن عبد الله بن عون قال كتبت إلى نافع أسأله عن قول الله **﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِـذٍ دُبُرَه إلا مُتَحَرِّفـاً لِقِتَـالٍ أَوْ متحيزاً إلى فئة فَقَدْ بَاءَ بغضب مِنَ اللّـهِ﴾**. (الأنفـال 16)، كان ذلـك يوم بـدر أو بعده ؟ فكتب إلي إنما كان ذلك يوم بدر.

ـ الفزاري عن اسماعيل بن مسلم عن الحسن قـال : إنمـا كان ذلـك يوم بدر خاصة (ج 2 ص 19).

7 ـ الفزاري قال سألت الكلبي عن قول الله : **﴿وَأنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّه وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إلى التَّهْلُكَةِ﴾**. (البقرة 195)، قال أمـا قولـه في سبيل الله في طاعة الله قال فلمـا نزلت هـذه الآيـة حث رسول اللـه عليـه السلام الناس على الصدقة فقـال قوم : يـا رسول اللـه بمَ نتصـدق ؟ قـال : تصدقوا ولو بشق تمرة فأنزل الله **﴿وَأَحْسِنُوا إن اللـه يُحِبّ المحسنين﴾**. قـال من زاد فهو خير لـه. قـال قولـه، ولا تلقـوا بـأيـديكم إلى التهلكـة، لا تمسكوا عن النفقة أو عن الصدقة فتهلكوا.

ـ الفزاري عن أبي غروبة عن قتادة قال كانوا يغزون ويسـافرون ولا ينفقون أموالهم فأنزل الله هذه الآية **﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾**. فأمرهم أن ينفقوا أموالهم ويتقوَّوْا على عدوهم.

ـ الفزاري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ليس التهلكة بأن يقاتل ولكن التهلكة ترك النفقة (ج 2 ص 19).

8 ـ الفزاري عن عبد الرحمن بن عياش عن سليمان بن موسى عن أبي سلام عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت عن النبي عليه السلام قال أدوا الخيط والمخيط وإياكم والغلول فإنه عار على أهله يوم القيامة.

ـ الفزاري عن نسر بن عبد الله عن أبيه عن جده قال، قال رسول الله ﷺ، لا غصب ولا نهب ولا إسار ولا غلول. وَمَنْ يَغْلُلْ يَاتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامة، (ج 2 ص 24) (يلاحظ أن الرسول اتبع قوله بجزء من الآية 161 من سورة آل عمران).

9 ـ الفزاري عن الأوزاعي عن يحي قال، جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن الرجل، يغزو أو يقاتل ابتغاء وجه الله ويحب أن يُحْمَد. قال، لا شيء، وكان يتبع هذا الحديث في آخره فيقرأ.. ﴿**وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إلاَّ ابْتغَاءَ وَجْهِ رَبِّه الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى**﴾. (الليل 19 ـ 20 ـ 21) (ج 3 ص 28).

10 ـ إن الله لا يقبل عملا فيه حبة من خردل من رياء.

ـ أربع لا يقبلن من أربع : السرقة، والخيانة، والغلول، ومال اليتيم في الحج والعمرة، والصدقة والنفقة في سبيل الله (ج 3 ص 28).

ولعلنا نلاحظ من هاته النصوص أن المؤلف كان يسعى في تقوية الإيمان وفي تعويد الشخص على البذل من أجل المصلحة، وعلى الإنفاق في

سبيل الله مع إبراز العواقب الوخيمة التي يصاب بها المسلمون إذا بَخِلُوا فإن قلة الإنفاق تؤدي إلى التهلكة والذل والصغار وقانا الله شر ذلك.

وليسمح لي القراء فإني أكثرت الأخْذ من الجزء الثاني نظرا لوضوحه بالنسبة لغيره، ولعل ذلك هو الذي دفع أحد الباحثين وهو الدكتور فاروق حمادة إلى تصوير هذا الجزء وإلى محاولة إخراجه وتحقيقه وإنا لعمله لمنتظرون.

فاس **محمد بن عبد العزيز الدباغ**

أنواع الأدب الشعبي بالمغرب

مالكة العاصمي

يلاحظ المختصون في الدراسات الشعبية وجود تشابه بين أنماط من التعبير الشعبي من مجتمع إلى آخر، ومن منطقة جغرافية إلى أخرى على ما يكون بين هذه المجتمعات من التمايز والاختلاف في الجنس، وما تخضع له من قوانين وأنظمة اجتماعية، وما يميز عقليتها وفكرها وطبيعتها من تباين.

الأسطورة والقصة الخرافية عرفت في تراث مختلف الشعوب. وأكثر من هذا فإننا نستطيع أن نتتبع النموذج الأدبي الواحد في تراث شعب ما فنجد ملامح واضحة منه مشابهة له في تراث شعوب أخرى متباعدة جغرافيا وعرقيا، كما يلاحظ في قصة «القزم»، أو قصة «عيشة رمادة» مثلا.

وتفسير ذلك ما نعرفه من كون تاريخ الإنسانية تاريخ مشترك على مستويين :

1 ـ المستوى الزمني الذي يجعل الإنسان على وفرته وانتشاره في الأرض متحدا في أصوله وأعراقه، وبالتالي فهو خضع لظروف واحدة في طريق نمو وعيه، واستقلاله، وبناء كيانه، وصراعه مع الطبيعة، وما تفرضه على الإنسان من أوضاع.

2 ـ المستوى الشعوري الذي يشترك فيه الإنسان أينما وجد باعتباره شبكة من الأحاسيس والقيم والحاجيات والعلاقات.

فهو اذن قد حمل إرثا أدبيا من مجتمعه الأم، وانتقل به إلى البقاع الجديدة التي استوطنها، ثم أبدع أدبا جديدا في بيئاته الجديدة، إذا كان يختلف في بعض نماذجه، فإن نماذج أخرى تعبر عن قيم وحالات ثابتة يخضع لها الإنسان، قسرا أينما وجد، وحيثما حل، فجاء تعبيره عنها مشابها على بعد المسافة وتمايز الظروف.

التفسير الثاني : إن ثقافة الإنسان نهلت من منابع موحدة، على بعد المسافة وصعوبة الاتصال، فكما أن توابل الهند وحرائرها وتمورها، وأخزاف الصين، وأصداف الشرق، وبسط الترك وعلك أمريكا، تقطع الأرض طولا وعرضا، وتصل إلى أقصى البلاد، كذلك تصل الثقافة وتلتقي الأجناس، وتتبادل خبراتها، وتروي تاريخها، وآدابها وفنونها وتعرض نماذج من ابداعاتها، فتتلاقح الثقافات، وتتغذى وتنمو كل واحدة منها في الأخرى.

التفسير الثالث : إن الإنسانية في هجرة دائمة من أرض إلى أرض ومن بقعة إلى بقعة. المجتمعات على تجانسها وانسجامها تتشكل من خليط من القوميات والاعراق، منها ما يأخذ صفة المكان الذي يتواجد فيه، ومنها ما يحتفظ بانتمائه إلى قوميته الأولى، ولكنه في كل الأحوال ينقل إلى موقعه

ومجتمعه الجديد عناصر من ثقافة وأدب وفنون مجتمعه السابق.

والأدب الشعبي في المغرب لا ينبو عن هذه القاعدة ولا يشد، حيث نجد فيه ملامح من مختلف أشكال الآداب الشعبي في العالم.

هذا اللقاء إذا كان يتم بين الأجناس المتباعدة جغرافيا وعرقيا وتاريخيا، فأولى به أن يكون قائما بشكل أكثر وضوحا، وأقرب إلى أن يكون طابعا عاما من أن يكون مجرد ملمح يتراءى من خلال ثنايا الظاهرة التراثية، ويشكل خلفيتها البعيدة.

المجتمعات العربية أو الإسلامية تتناقل تراثا مشتركا في كثير من الأحوال. تروي سيرة عنترة بن شداد، وسيرة الملك سيف بن ذي يزن، وهما من الثرات العربي. وتروي سيرة علي بن أبي طالب وبطولاته، كما نجد أن الرقم 7 يلعب دورا في حسابات الشعوب الإسلامية لما له من دور في القرآن. فالكون خلق (سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت) والرياح سخرها الله على قوم عاد سبع ليال وثمانية أيام حسوما (وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما). كذلك أبطال القصص الشعبي سبعة أولاد، وسبع بنات، والأبواب التي تغلق على العفريت سبعة أبواب. كما أن الخمسة أو الخميسة رمز مشترك يرد العين. والشعوب الإسلامية تومن بالعين وبالسحر لأن النبي ﷺ يقول : «العين حق والسحر حق» ولما ورد في القرآن الكريم ﴿**قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد**﴾. بعد أن سحر يهودي النبي ﷺ ونفث في سبع عقد ورماها في بئر.

وإذا كان في تراث المجتمعات عناصر توحد بحكم تاريخها المشترك، وبحكم تواصل عملية المثاقفة فيا بينها، وبحكم زحف الإنسان، وسعيه في الأرض من مكان إلى مكان، ولأسباب أخرى، قد لا نأتي عليها، فإن عناصر الانفصال أو التمايز تشكل حقيقة ثابتة هي الأخرى لا مناص من مجابهتها، والاعتراف بها، لأن الطبيعة والمناخ يغير من ملامح الافراد والجماعات، ويخضعها لقالب من العيش ومنهج في السلوك والتفكير، مغاير لما تعيش عليه أو تفكر به في موقع مغاير. الإنسان في الجبل يخلق مناهج في الزراعة والمعمار وأدوات العمل وأنواع الملابس والوسائل، مختلفة عن مناهج الزراعة والبناء وأنواع الأعمال التي يتعاطاها الإنسان في الصحراء، أو الأراضي الواطئة المنبسطة.

من جهة أخرى فان كل مجتمع يخضع لشروط سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية متميزة، وتنشأ فيه صراعات وأحداث قد لا تعرفها مناطق ومجتمعات أخرى وتتكون لدى الانسان بحكم ما يخضع له من شروط، أو بحكم ما خضع له من أحداث أو ما عاش من عناء، ردود فعل معينة محددة، قد لا تقوم عند مجتمع آخر، بحكم تغير القضية واستحالة تكرار الحدث الواحد في الحياة بنفس الشكل والتفاصيل. كما يستمد من هذه الأحداث والعلاقات ما يحتفظ به في فكره، أو لباسه، أو عاداته أو طعامه.

من جهة ثالثة فإن تركيبة المجتمع البنائية بسبب ما تحمله من عناصر بشرية متميزة، تحكم نوعية العلاقات التي تسود أو تنمو داخل المجتمع، ونوعية الممارسات والطرائق التي يبتدعها، بل وحتى اللغة التي يعبر بها، وعدد الحروف التي يستعملها أو يهملها وتحكم مظاهر من حياته وتفكيره وعاداته وفنونه وصناعاته وتميزه عن مجتمع آخر.

ونظرا لأن المجتمع الواحد يتكون من وحدات بشرية هي مجتمعات مصغرة. وتتساكن فيه مجموعات عرقية، وديانات، وتتسع رقعته الجغرافية أو تضيق وتتنوع ملامحها. وتعيش كل منطقة من مناطقه أحداثا معينة. وتكتسب معارف متميزة، فإن تراثه كمجتمع يتعدد ويختلف ويتباعد.

ولعل في مثل هذا القول ما يوضح لنا التناقض بين عناصر الوحدة مع الشعوب الخارجية، وعناصر الافتراق داخل المجتمع الواحد بينما تشترك نفس هذه الوحدات الاجتماعية الصغرى في نماذج أخرى من التعبيرات الشعبية.

إذا كنا سنجد قصة القزم الأحدب في تراث الريف وتراث الأحواز وتراث الجنوب، وسنجد تشابها في العادات والتقاليد، وبعض مناهج العيش، وبعض أنواع الآداب كأغاني الأطفال، أو ارجيح النساء بين أقصى الشمال وأقصى الجنوب فإننا لا نجد ما يشبه ذلك في أنواع أخرى من التعبير الشعبي كفنون الغناء مثلا أو الايقاعات أو أدوات الموسيقى.

ولعلنا نجد في تاريخ المغرب ما يفسر لنا هذا المظهر الإجتماعي البارز، لأن المغرب إذا كان يشكل وحدة بنائية متراصة اجتماعيا وفكريا في الوقت الحاضر فإنه يحمل في بنيته التحليلية عناصر تنافر وتباعد تاريخيا.

سكان المغرب الأقدمون هم البرابر كما يقول التاريخ. لكن البربر وفدت عليهم أجناس أخرى أجنبية حكمت واستوطنت، واستقرت، ولا شك أنها تركت بقاياها بعد أن رحلت.

خضع المغرب لحكم الفينيقيين المنحدرين من أصول عربية وخضع لحكم الرومان المنحدرين من أصول غربية، وخضع لحكم الوندال المنحدرين من

أصول جرمانية، وتعامل مع العرب القادمين من الجزيرة العربية ومن مصر.

وتشكلت دولة المغرب العربي، وتوسعت، فاستقبلت قبائل عربية أخرى. وجماعات افريقية، وموجات بشرية من الأندلس.

كل هذه الأجناس استقرت في المغرب لفترة طويلة وتركت بقاياها بعد أن رحلت، ولا شك أنها تركت تراثها الفكري والأدبي ضمن ما تركت إذ أن بقايا هذه الهجرات احتفظ بجزء من تراثه في أرضه الجديدة، أو أن التراث المهاجر دخل في علاقة زواج شرعي مع تراث المجتمع الأصلي والجنس الأصلي.

هذه العناصر على تنافرها نقلها الموقف الفلسفي الذي تشبعت به إلى نوع من التوحد، تبددت بمقتضاه مقاييس الخلاف العرقي ودخل المجتمع في وحدة اديولوجية شاملة بحكم الإسلام، كانت كافية لإعادة بنائه الإجتماعي على أساس المعطى الفكري.

ورغم ما بذله المجتمع من جهة لتوحيد بنائه وعناصره ووحداته على المستوى الفكري والسياسي، فإنه لم يسع إلى طمس معالم الاختلاف بين عناصره مما هو كامن في تراثها وتقاليدها ولغتها ومعارفها وأنماط سلوكها.

ورغم أن الأمة تسعى لتوحيد بنائها وعناصرها لمحو الفوارق الفكرية والعقائدية والاجتماعية، إلا أنها تسعى للمحافظة على كثير من عناصر الاختلاف في الثرات، وتتعهد هذه العناصر وترعاها وتستمتع بها، وتعرضها في مختلف المناسبات كدليل على غنى معارفها وتنوع خبراتها.

بذلك سنجد أنفسنا ونحن بصدد دراسة الأدب الشعبي في المغرب أمام نماذج واشكال من التعبير الشعبي لا نكاد نقوى على الاحاطة بها وادراكها، لما في طبيعة المغرب الجغرافية والمناخية من تنوع، ولما في بنائه من أجناس واعراق وقبائل.

كذلك سنصادف فيه إشكالا من الاختلاف في اللغة والمنحى الفكرى، والمنحى الأدبي والمنهج الفني الذي يعبر به، ووسائل العمل التي يتوسل بها، والإطار الشكلى، والطقوسى الذي يوضع فيه.

(يتبع)

مراكش **مالكة العاصمي**

الإعلام الثقافي

المسيرة الخضراء
ملحمة شعب يوحد بلاده بقيادة ملكه

وزارة الشؤون الثقافية، 334 ص. 30 × 24 سم.
مطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب). في جمادى الأولى
1404 هـ (مارس 1984)

صدر عن وزارة الشؤون الثقافية ـ مؤخرا ـ كتاب «المسيرة الخضراء ملحمة شعب يوحد بلاده بقيادة ملكه»، مشتملا على مجموعة مهمة من الخطب، والندوات التي عقدها صاحب الجلالة مع مختلف وكالات الأنباء العالمية في الموضوع بالإضافة إلى عدد كبير من الوثائق والصور التاريخية، والإحصاءات والبيانات والتعليقات.

ويستهل الكتاب بصورة صاحب الجلالة، ثم بمقدمة تحتوي على «قسم المسيرة» بخط يد محرر البلاد وموحدها جلالة الملك الحسن الثاني المؤيد المنصور بالله.

فجاء وثيقة تاريخية ناطقة بجميع الأحداث والأطوار التي مرت بها قضية صحرائنا المغربية إلى يومنا هذا في حلة قشيبة رائقة.

وفيما يلي الكلمة التي قدم بها الدكتور سعيد ابن البشير هذا الكتاب :

«المسيرة الخضراء» ـ هذه الملحمة الخارقة المهيبة، أبالإمكان حصرها، أو أسرها في هذا الكتاب، أو في كتب شتى، ومن دأبها، تخطي الأبراج والحدود والتخوم، وهي سائرة زاحفة نحو الأمام ؟

ضرب من المحال، محاولة إحكام إسارها بين دفات مجلدات، ولا تتدفق من بين حواشيها مندفعة في سيرها بحرية، وإباء، وشمم.

وأوان يصحو أي شعب وينتفض متحدا جياشا ـ في دأب وإصرار ـ اعتصاما بمبدإ، وتمسكا بحق، وإحقاقا لمشروعية، فبجرأة مسيرته الفروسية الوثابة الوهاجة، سيتجاوز الزمن، وجميع آفاقه وأبعاده، ويتفوق على كل مثبطاته، ظافرا منتصرا، مكللا بعمامات المجد.

«مسيرتنا الخضراء» : إنها مختصر ضمير شعب، رفض الاستيلاء والاستلاب، فتحرك وانتفض، لاسترجاع فلذة حبيبة من فلذات ترابه، كانت تعيش في السغب والحرمان.

هذه «المسيرة» : مختصر ضمير شعب برمته، وعلى رأسه ملك، تحرك واهتز وزحف، يوم جاءه «النبأ العظيم» بالإقلاع : ﴿**باسم الله مجراها ومرساها**﴾.

ما أروع ! أن يحتشد الشعب المغربي قاطبة، ويتكتل ويتوحد في حرارة ونضالية ومشروعية «النداء الملكي»، ثم يتفجر منه دفقات «مسيرة خضراء» مبينة، لاستخلاص «صحرائنا» ـ من يد المستعمر الغاصب، واستعادتها إلى أحضان الأمومة الوطنية.

تم كل ذلك بمهارة وأناقة، ونضارة خضراء بيضاء، في سلام مجلل بالتكبير والتهليل، متوج بالقرآن العظيم.

إنها مهارة تتجلى في هندسة هذه «المسيرة الخضراء»، تحكي بتفوق وامتياز، عبقرية مبتكرها ومنظمها ومنسقها وقائدها الإمام، العاهل الكريم، جلالة الحسن الثاني.

هذه الهندسة الحكيمة المحكمة لا يرقى إلى تنضيد رقائقها ودقائقها ومضمراتها، وإلى التنبه إلى مفاجآت أبعادها وخلفياتها، والتأكد من ضمان انتصارها، إلا ذلك الذي تألقت مداركه، وتوغل في مكنون الحضارات.

لقد كتب المغرب أمجاده وفكره للحضارة الإنسانية عبر تاريخه. أما في «مسيرته الخضراء»، فقد أوقف العالم، يشهد له بهذه الحضارة.

☆ ☆ ☆

وبعد، فبابتهاج كبير، أقدمت وزارة الشؤون الثقافية، على إعداد هذا الكتاب : «المسيرة الخضراء ملحمة شعب يوحد بلاده بقيادة ملكه»، حاولت أن تستقصي فيه أكبر عدد ممكن من الوثائق، والمعلومات، والصور، والندوات، والإحصاءات، والتعليقات، والبيانات، وسوى ذلك، مما يتصل بهذا الموضوع، من قريب أو بعيد، مع مراعاة تسلسل الأحداث زمنيا، ليستقيم الكتاب ويستوي شريطا متصل الحلقات، محكم البناء، في سياق تجدد وتطور الأحداث.

إنه كتاب وثائقي يعبر ببلاغة وفصاحة عن وطنية وشجاعة وعزم ونضال الشعب المغربي وولائه العميق، لمن كان في هذه الملحمة قلبه وفكره

ويده لاسترجاع «صحرائه» عبر «مسيرة خضراء - ملحمة» خاضها بقيادة ملكه، فأدهشت العالم، وبهرته إلى حد الانخطاف والهتاف به.

وهو إلى جانب ذلك، مرآة متألقة وهاجة، تعكس لأجيالنا المقبلة، من أبنائنا وحفدتنا البررة، صورا حية صادقة، تلخص حجم ومساحة تاريخ نضالية ملكهم، وآبائهم وأجدادهم وأسلافهم، دفاعا عن قدسية وكرامة مجد كيانهم الوطني الراسخ الثابت الأصول.

وإن لهم في هذه المثل العليا لعبرة جليلة تتخذ صيغة ومفهوم الوصية، يقدمها الأجداد والآباء لأبنائهم وحفدتهم، قصد الحفاظ عليها، والبر بها، والعمل الجاد الموصول على إثرائها وتزكيتها، قدوة سامية برسالة أسلافهم المقدسة.

وليس من قبيل الصدف، أن يكون جلالة الملك قد جسم الوفاء في «قسمه» أمام شعبه وأمام العالم، فجعله للملحمة مقدمة، ولهذا الكتاب ديباجة.

☆ ☆ ☆

هذه «المسيرة الخضراء» - الملحمة الخارقة الجامحة المهيبة، أبالإمكان حصرها، أو أسرها في هذا الكتاب، أو في مجلدات شتى، ومن دأبها تخطي الأبراج والحدود والتخوم، وهي سائرة زاحفة نحو الأمام ؟

إنه اعتراف في نهاية المطاف، بالعجز عن وصف ما استقر في النفوس من وطنية متأججة، ومن إيمان بالكرامة الوطنية.

وفي محاولة استشفاف النفوس، وتقصي الوقائع، تظهر «المسيرة» كنموذج، بل كملخص، لحضارة أمة عريقة، تقيم الوزن بين الحماسة في الاندفاع نحو العمل الوطني الشهم النبيل، وبين الانضباط، وإعمال العقل، في كل كلمة تعبر، أو عمل ينفذ:

شعب في انصهار دائم مع عرشه، أصر على أن يحيا في كرامة.

د. سعيد ابن البشير

الأسبوع الثقافي المغربي بالسينغال

توطيدا للعلاقات الاخوية والثقافية المتينة التي تربط المملكة المغربية والجمهورية السنغالية، نظمت وزارة الشؤون الثقافية أسبوعا ثقافيا مغربيا بالسنغال من 26 مارس 1984 إلى 31 منه.

افتتح هذا الأسبوع السيد وزير الشؤون الثقافية الدكتور سعيد ابن البشير ووزير الثقافة السنغالي السيد عبد القادر فال بالقاعة الوطنية للفنون بدكار، بحضور سفير المملكة المغربية بالسنغال السيد محمد مكوار والسيد حبيب تيام رئيس الجمعية الوطنية السنغالية، وأعضاء من السلك الدبلوماسي وجمهور غفير من السنغاليين. وقد أعرب السيدان الوزيران في خطابين ألقياه بالمناسبة عن ارتياحها العميق للعلاقات الطيبة التي تجمع بين البلدين منذ قرون، ولوحدة الأهداف المشتركة التي يسعى إلى تحقيقها كل من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني وفخامة الرئيس عبدو ضيوف.

وقد هدفت الوزارة من تنظيم هذه التظاهرة الثقافية إلى إعطاء صورة عن بعض مظاهر الحضارة المغربية، ومدى تطورها في بلادنا في مختلف المجالات الثقافية، والفنية والاجتماعية بواسطة المحاضرات والندوات والمعارض المختلفة والعروض المسرحية والسينمائية والموسيقية.

وتميز هذا الأسبوع بإقامة معرض لنماذج من الكتاب المغربي، وصور لبعض المخطوطات والوثائق، ومشاهد للمباني التاريخية، وقطع من صناعاتنا التقليدية.

وأقيم حفل اختتام هذه التظاهرة الثقافية بمقر سفير المملكة المغربية بالسنغال، حضره وزيرا الثقافة المغربي والسنغالي وعدد من أعضاء الحكومة السنغالية من بينهم الشيخ حميدو كان، وزير التخطيط والتعاون، والسيد سيرين لامين ديوب، وزير الانماء الصناعي والصناعة التقليدية، وأعضاء من السلك الدبلوماسي وعدد من المثقفين السنغاليين. وقد ارتجل السيد وزير الشؤون الثقافية الدكتور سعيد ابن البشير خطابا عبر فيه عن سرور المملكة المغربية بما أحرزته التظاهرات الثقافية التي أقيمت خلال هذا الأسبوع من نجاح، كان الهدف منها «اطلاع السنغاليين على مختلف مظاهر التاريخ والثقافة المغربيين» ونجاح هذا الأسبوع مكن المغاربة والسنغاليين «أن يحتفلوا جميعا بالانتماء المشترك إلى حضارة واحدة، وإلى عقيدة واحدة وأمة واحدة» وأعلن السيد الوزير، باسم المملكة المغربية، عن اهداء الكتب والمطبوعات المعروضة إلى المصلحة المختصة بوزارة الشؤون الثقافية السنغالية، وقد كان لهذه البادرة أثرها العميق في نفوس السنغاليين الذين أعربوا عن ارتياحهم لهذا اللقاء الثقافي الهام.

مهرجان المسرح العربي المتنقل

نظمت وزارة الشؤون الثقافية مهرجانا للمسرح العربي المتنقل ما بين 16 و26 أبريل 1984، افتتحه الدكتور سعيد ابن البشير وزير الشؤون الثقافية، بحضور أعضاء من الحكومة وبعض سفراء الدول العربية المعتمدين بالرباط، ونائب المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والوفود العربية المشاركة، وبالمناسبة ألقى السيد الوزير الخطاب التالي :

خطاب
السيد وزير الشؤون الثقافية
الدكتور سعيد ابن البشير

بسم الله الرحمن الرحيم

السادة السفراء

السيد والي الرباط

السيد مستشار المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حضرات الأخوة الأشقاء من أقطارنا العربية العزيزة.

كم يسعدني أن أرحب بكم في بلدكم المغرب، وأن أعرب لكم عن غبطتنا بلقاء هذه الصفوة من الكتاب والمبدعين المسرحيين العرب في هذا الجناح الغربي من وطنكم العربي الكبير. وأملنا أن نتوفق في توفير الإمكانات والوسائل الضرورية لإنجاح هذا المهرجان الذي نعول عليه كثيرا في توضيح صورة المسرح العربي، ووضع الأسس الكفيلة بنهضته وتطوره.

حضرات السادة :

مضت عشر سنوات على مارس 1974 حيث احتضنت هذه القاعة مهرجانا للمسرح العربي حضرته الأقطار العربية وقدمت فيه مختلف التجارب المسرحية. وشارك في مناقشاته وندواته العديد من الكتاب والنقاد والدارسين لحركة المسرح في الوطن العربي، مما أتاح للمسرحيين العرب فرصة التعرف إلى بعضهم وتقييم تجاربهم والاطلاع على خصائص كل تجربة مسرحية، وكذا تلمس الآفاق والآمال التي تتواخاها جهود المسرحيين العرب في سائر أقطار الوطن العربي، وقد كان بودنا أن نسعد باحتضان مثل هذه المهرجانات مرة كل سنة لأننا نقدر أهمية مثل هذه المهرجانات وأثرها الإيجابي على عطاءات المبدعين من جهة. ولأننا من جهة أخرى نحس كما تحسون بخطورة التباعد الثقافي بين أقطار الوطن العربي ليس على ثقافة الإنسان العربي وحسب، ولكن على كيان أمتنا التي عانت في السابق من تغلغل الثقافات الأجنبية في نفوس أبنائها، وتعاني حاليا من سيطرة

الإعلام الأجنبي الذي يقحم مفاهيمه وسياساته عبر مختلف أنماط فنون التعبير ليكرس حالة من التبعية، لكنكم تقدرون معنا ما تتطلبه مثل هذه اللقاءات من إعداد وإمكانات ليس من السهل توفرها دائما، ومع ذلك فقد التزم المغرب من جانبه بقرار المكتب الدائم للمسرحيين العرب الذي عقد اجتماعه قبل أكثر من سنة بمدينة مكناس بحضور نائب المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وقد وقع الاختيار على المغرب لتنظيم مهرجان المسرح العربي، وها هو المهرجان يعقد في المغرب تتويجا لمجموعة من اللقاءات والمهرجانات المسرحية التي عرفتها بلادنا خلال الشهور الثلاثة الماضية من سنة 1984 مثل المهرجان الثاني لمسرح الطفل بطنجة، ولقاء المسرح الوطني بالجديدة، والمهرجان الثاني لمسرح الممثل الواحد بفاس، وهي مهرجانات ولقاءات تعكس مكانة المسرح ضمن سياسة وزارة الشؤون الثقافية وتتيح للمسرحيين المغاربة على اختلاف وتنوع تفاوت مستوى العروض المسرحية التي يعرضونها فرص اللقاء والاستفادة من آراء وملاحظات بعضهم، كما أنها فرص للقاء بالجمهور الذي يعبر بمختلف ردود فعله عن قيمة كل تجربة بما لها وما عليها، كما أننا نسعى من وراء هذا، أن نؤكد على أهمية المسرح في تحقيق رصيد من الأعمال المسرحية التي نستطيع من خلالها أن ننتقي فيما بعد ما يصلح لتحديد حجم وملامح تجربتنا المسرحية.

حضرات السادة :

إن الاهتمام بالمسرح يعني الاهتمام بمختلف فروع وألوان الفكر والابداع، فالمسرح هو الكلمة واللون والموسيقى والهندسة والحركة والضوء،

أي أن المسرح هو الجذع المشترك الذي تلتقي عنده أصناف وطرائق التعبير والإبداع، ولأننا نريد له أن يرقى إلى مستوى الخبرة والمسؤولية الفكرية التي يعبر عنها، فقد عزمنا على إنشاء معهد عال للدراسات المسرحية صادقت الحكومة على النص المؤسس له، ومن المنتظر أن يفتح أبوابه في بداية السنة الدراسية المقبلة، كما أعلنا عن عزم الوزارة على تنظيم مسابقة سنوية في مجال الكتابة لمسرح الطفل، وكذلك تخصيص جائزة المغرب السنوية للنص المسرحي، اعتقادا منا أن مثل هذه المبادرات ستحد من حالات الارتجال والضعف، وتساعد على تطوير مسرحنا إلى الحد الذي يتلاءم مع تراثنا الثقافي وحضارتنا العربية الإسلامية التي أسهمت في تنمية الثقافة الإنسانية، في مختلف مراحلها وأحقابها السالفة.

حضرات السادة :

لقد مر المسرح العربي بعدة مراحل حاول فيها أن يطرح موضوعه في الحياة العربية كحاجة أساسية، وكمطلب للإنسان العربي، إلى حد عدم القدرة على الاستغناء عنه، ولقد عانى المسرحيون العرب من أجل الوصول إلى هذه الصورة المثلى للمسرح العربي، وأملنا أن تساعد ظروف كل العاملين في هذا المجال الثقافي على بلوغ هذه الغاية التي هي غاية كل إنسان عربي غيور على وطنه وأمته ما دام المسرح واجهة ثقافية تعد من مقاييس تقدم حضارة الشعوب والأمم. ثم لأن تقدم المسرح في الوطن العربي لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل تقدم شامل يعني الحياة بمختلف واجهاتها، وعليه فإن العروض المسرحية وخلاصات المناقشات والندوات التي ستتمخض عن هذا المهرجان يجب أن تكون إسهاما في تحقيق الطموحات الكبرى التي والتي تخططون لها حسب موقع وأهمية كل تجربة من تجاربكم.

حضرات السادة :

إذا كان الحوار قاعدة معروفة في كتابة النصوص المسرحية، فإن الحوار بكل ما يصوره من تعددية في الرأي وتناقض في مواقف الشخصيات هو قاعدة ثابتة في السياسة الثقافية ببلادنا، لأننا نؤمن بتعايش الأفكار، لنقدم بذلك النموذج العلمي-للديمقراطية كاختيار أقره جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، والتزم به الشعب المغربي بكل فئاته وهيئاته ذلك أن المسرح بحكم طبيعته لا يمكن أن يتأسس بمعزل عن الحياة السياسية والاجتماعية العامة، ولذلك فإننا لا نتصور وجود مسرح دون حرية في التعبير، ودون استعداد مسبق لتفهم واعتماد التساؤلات والأفكار التي تستأثر باهتمام كتاب المسرح وتتدخل في تحديد العديد من المواقف والآراء التي يعبّرون عنها. ومن ثم فإنكم ستلاحظون أن الجمهور المغربي على استعداد للتجاوب والتواصل مع المسرحيات التي ستقدّمونها لأن المسرحيين المغاربة قد خلقوا عند الجمهور استعدادا خاصا للتعامل مع مختلف الصيغ الفنية، فقد اعتاد جمهورنا على مختلف التجارب المسرحية. وإننا متأكدون من أن مستوى عروضكم المسرحية والمناقشات العلمية التي ستتبعها ستجعلنا نتفاءل بمستوى المهرجان الذي سيفتح ولا شك للمسرح العربي آفاقا جديدة، كما أننا قد أعددنا برنامجا للعروض المسرحية الموازية، وهي عروض أردنا من خلالها إتاحة الفرصة للإخوة العرب الذين يشاركون في هذا المهرجان، للتعرف إلى حقيقة التجربة المسرحية المغربية، وهي تجربة خصبة ومتعددة الملامح والأبعاد، أعطت في السابق مجموعة من الأسماء التي نعتز بكفاءتها في هذا المجال ونعتز بانتمائها للأمة العربية، كما نتفاءل بمستوى عطاءات الجيل اللاحق الذي نعتقد أنه في مستوى تطوير الحركة المسرحية بالدرجة التي

تنسجم مع تطور حركة المجتمع والحياة المعاصرة، ودون اخلال بقواعد الابداع الحق، أو التفريط في المقومات والأسس التي تضبط وحدة الفكر والكيان العربي الإسلامي الذي ننتمي إليه ونتحمل مسؤولية صيانته عبر مختلف الآراء والمواقف وصيغ التعبير التي نختارها.

حضرات السادة :

نجتمع في هذا اللقاء العربي والتجارب المسرحية تعرف تطورات من حيث المفاهيم في الشكل والجوهر.

ولا شك أن من بين الأسئلة المطروحة ما يتعلق بوظيفة المسرح.

فالمسرح هو ذلك اللقاء أو التلاحم الذي يتم بين النص أو الحركة، وبين الخطاب الشعبي.

والانفصام بينهما هو الذي يحدث الأزمة، لأنه يكسر الوحدة في التفاعل، فتصبح الأجزاء المنفصلة بعضها عن بعض غير قادرة على تصوير الجمال وتبليغ الرسالة. إن المسرحية لا تتألق وتحي على الخشبة فقط، ولكنها تعيش أيضا في قلب صفوف المشاهدين الذين يعيشون فكريا بالتفاعل مع الكلمة والحركة وبالتأويلات المختلفة التي تغنى المسرحية بقدر ما تثريها الكلمة والحركة.

وبسبب هذا الترابط العضوى الوظيفي بين الممثل والمشاهد في انفعالاتها الاجتماعية، فإن قضية المسرح أولا وقبل كل شيء، هي قضية إبداع، والابداع لا ينفلق حبه إلا في قلب تربة المجتمع، فالإديلوجيات الأجنبية الدخيلة لا تستطيع أن تنمي الفكر والفن العربيين لأنها وليدة

معطيات اجتماعية تختلف عن معطياتنا العربية الإسلامية ولا يمكن اذن للإبداع أن يتولد عنها.

فلنترك التقليد الفكري والابداعي للاتجاه نحو أنفسنا. لقد مرت بعض التجارب بأزمة التقليد باتباع (الموضة) في المسرح الغربي كما حدث مثلا بالنسبة لمسرح العبث (Théâtre de l'absurde) ولن يكون لنا عطاء متميز في الحركة المسرحية إلا إذا اتجهنا نحو تأصيل المسرح. ونستطيع أن ندرك الهدف بأن ننكب من جهة على انتاجنا الأدبي القديم والحديث، وعلى حياتنا الاجتماعية بكل عناصرها لنأخذ من ذاك وهذه، عناصر الابداع والامتاع. وسيقودنا تأصيل المسرح على النحو الذي ذكرناه إلى الهدف من كل عمل علمي أو فني، وهو الإنسان. سنرتبط بفكره وبكل مقوماته الحضارية فيكون التأثير عميقا وفاعلا، وبذلك يصبح الابداع الأصيل فعلا من بين الوسائل الكفيلة بتعميم المسرح والثقافة بصفة عامة. وان المجتمع الذي أعطى انتاجا أدبيا يعد من قمم الإبداع الإنساني لقادر على أن يأخذ من ذاته عناصر الابداع المتجدد شكلا ومضمونا.

فمن حيث المضمون لا شك أن المجتمع العربي من أغنى المجتمعات في حياته اليومية، ويستطيع اذن أن يكون وعاء صالحا لمسرحة كثير من الوقائع الاجتماعية.

أما شكلا فليس النص المسرحي الذي يكتب أصلا بهذه الصفة، هو الوسيلة الوحيدة للقيام بعمل مسرحي، فهناك نصوص أدبية يمكن أن تمسرح، وفي هذا المهرجان بالذات، سنشهد نموذجا منها.

وينبغي للمسرح أيضا أن يتعامل مع الشعر، ولنا في الأدب العربي الأكاديمي والشعبي، ما يسمح بذلك. فإذا أضيفت هذه الأشكال التعبيرية إلى

الحركة، فإن الإبتكار سيأخذ في تنوع ألوانه جمال النور المستمد من تزاحم وتفاعل الألوان في الحركة الضوئية.

وإن تأصيل المسرح لا يعني الانطواء على النفس، وبالتالي فلا ينبغي تجاهل مسرح العالم المعاصر.

لقد تطورت تقنيات المسرح، ويجب أن نسايرها عن طريق الدراسة في المعاهد المسرحية وعن طريق الممارسة.

وان الوسائل الإعلامية الحديثة، ومنها التلفزة جعلت المسرح يتطور ويتكيّف مع معطيات جديدة في تقنية عرض الأشياء أو الأفكار ولا يمكن إذن اغفالها. وقد أصبح من الأكيد أن قوة المسرح ليست في ابراز الأشياء ولكن في تقديم المعاني التي تحملها.

إن تطور الفكر واتساع نطاق الاعلام ووسائله جعلا الجمهور يتفاعل مع هذا التطور. فتتغير نظرته إلى الأشياء وتتنوع اتجاهاته الذوقية. فهلاً فتحنا المجال لتنوع المسرح ؟ وقد نقول : ليس في المجتمع جمهور واحد، وبالتالي فلن يكون فيه مسرح واحد. إن للمسرح القدرة على أن لا يعكس الواقع وحسب، ولكن أن يغيره نحو الأجمل والأفضل. والشعر والموسيقى والهندسة المعمارية فنون تتوفر على هذه القوة الذاتية. فلماذا لا تكون للمسرح أيضا ؟

وفي النهاية هل قال وكتب الفكر العربي كل ما ينبغي أن يقال ويكتب بالنسبة للمسرح ؟ أن لتفكير الإنسان طابع الاستمرار. فليس من أحد يستطيع ادعاء الوقوف على الحقيقة المطلقة، وبالتالي اقرار الخطاب الاجتماعي النهائي. أنه مستمر باستمرار الحياة.

ولعل الثقافة هي هذه المسيرة التي لا تنتهي والتي لا يقف عند حد منها، إلا ذوو الفكر المحدود.

إن ما سُمي بالمجتمع الاستهلاكي، والذي بني على أساس استهلاك الماديات، سيتطور نحو مجتمع سيهتم في القرن الواحد والعشرين بالنوع أكثر مما يهتم بالحجم، وبالمعرفة والثقافة أكثر من المتلكات المادية. وعند احتدام الصراع الثقافي يجب أن تأخذ الأمة العربية مكانة مرموقة في المجتمع الدولي. فليكن للمسرح العربي دور نقل الفكر والفن بين مختلف أقطارنا وليكن لهذا الامتزاج الثقافي مدلول الوحدة التي ننشدها لضم مكونات الفكر، فيصبح المسرح عربيا بدلا من أن يبقى قطريا.

أيها الاخوة الأشقاء :

مرة أخرى باسم حكومة جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله، أجدد الترحيب بكم، وأتمنى لكم إقامة طيبة، كما أتمنى لعروضكم المسرحية وندواتكم ومناقشاتكم كامل التوفيق والنجاح، حتى يبقى مهرجان المسرح العربي المتنقل علامة اشراقة متوهجة في ذاكرتكم، وعلامة ايجابية في مراحل تجاربكم المسرحية.

وفقكم الله. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

د. سعيد ابن البشير

وبعد ذلك، رد عليه السيد أديب اللجمي نائب المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بخطاب جاء فيه :

نص خطاب
السيد أديب اللجمي نائب المدير العام
للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

معالي السيد الدكتور سعيد ابن البشير - وزير الشؤون الثقافية

أيها السيدات والسادة

يسعدني أن أنقل إليكم، حارة وصادقة، تحيات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تحيات مديرها العام الدكتور محي الدين صابر، الذي يشاركم، وهو بعيد عنكم لظروف قاهرة حالت دون مجيئه إليكم ليشاركم اهتماماتكم وأمانيكم في هذا المهرجان المسرحي العربي.

لقد كان هذا المهرجان إلى أمد قريب، مجرد أمنية، وهو اليوم حقيقة واقعة. ان أول مهرجان للمسرح العربي المتنقل، يراد له أن ينظم مرة على الأقل، في كل واحد من أقطار العروبة. بدأ اليوم في المغرب العربي، على شواطىء المحيط، وعلينا نحن أبناء العروبة، وعلى العاملين في المسرح كافة، أن يوصلوه قريبا إلى شواطىء الخليج مرورا بسائر الأقطار الأخرى.

ومن حق المغرب علينا أن نسجل له مبادرته باحتضان هذا المهرجان الأول. وليست هذه هي المرة الأولى التي يتبوأ فيها المغرب العربي شرف الأولوية في العديد من المشروعات العربية، ثقافيها، وعلميها، وفنيها، وحضاريها.

إن للمسرح العربي، أيها السيدات والسادة، قصة طويلة لما تكتب بعد، قصة تزخر بالأمل والقنوط، بالارتقاء والهبوط، بالتفتح والخمود، بالتحرك والركود. وقصة المسرح العربي كانت وما تزال تتلخص، في تقديري، تبحث عن هوية، ففي أكثر من مناسبة عقد المثقفون والمسرحيون العرب الندوة تلو الندوة، واللقاء إثر اللقاء. وفي كل مرة كان محور تفكيرهم، ومجال مناقشاتهم، ينصب في مقولة : هل ثمة مسرح عربي ؟

ذلك أن ما يجري من نشاط مسرحي في البلاد العربية، على ما فيه من تنوع، لم يتخذ بعد شكل البنية الراسخة المتمكنة، شكل شجرة ضربت بجذورها في احشاء الأرض، وأخذت بفروعها تزكو وتنمو وتورق وتثمر.

في كثير من أقطارنا العربية مر المسرح بفترات تألق أعقبتها فترة إغفاءة، ثم يقظة تلتها محاولات تلمس للطريق من جديد.

وفي بعض أقطارنا العربية نظمت مهرجانات للمسرح العربي أنفق عليها بسخاء، وكان مردودها الفني دون ما كان مقدرا له.

ولم يخل بلد عربي من أعمال مسرحية، بعضها منقولة من لغات أخرى، وبعضها بأقلام مسرحيين عرب، بعضها يعتمد الحوار المسرحي والاخراج الفني، وبعضها يعتمد الحماسة وحسن النية. أكثر الأعمال المسرحية في وطننا العربي تقدم باللهجات المحلية العامية، فيحكم عليها بالتأقلم في البلد الذي قدمت فيه، وبها تكرس الاقليمية، بل والقطيعة الثقافية بين أبناء الأمة الواحدة، بدلا من التواصل الذي كان ممكنا أن يحقق العمل المسرحي.

كثير من المسرحيين العرب، كتاب وفنانين، ما زالوا يعتقدون أن المسرح هو الفكاهة السهلة، الفكاهة الرخيصة، تدغدغ الأحاسيس دون أن تنفذ إلى الصميم. كثيرون منهم يبتدعون العمل المسرحي، نصا وأداء، بقصد الاضحاك، ولا شيء سواه.

وبعض المسرحيين يتابعون تطور المسرح العالمي وما يطرحه من موضوعات وقضايا يحاولون نقلها بصورة حرفية إلى المشاهد العربي، فيحس أنه غريب عنها، وأنها تنتمي إلى عالم ليس عالمه.

وإذا كان لمهرجان المسرح العربي من فضائل، فأكبر فضائله أن يكون مناسبة، بدأ خطوة جديدة، تتفتح بها سمات المسرح العربي الحقيقي الذي نتطلع اليه.

سيكون هذا المهرجان في تقديري مناسبة جديدة، تثار فيها موضوعات شتى منها : الأصيل والدخيل في المسرح العربي، المسرح وجمهوره، أداة التعبير المسرحية، المسرح والفصحى، ذلك أننا لا نستطيع أن نتصور استمرار المسرح العربي يراوح في المكان ذاته باللهجات العامية المحلية، وليس من حق أي مثقف عربي أن يسكت على مثل هذا الواقع.

سيكون هذا المهرجان مناسبة نتساءل فيها إلى أي مدى يعكس المسرح العربي مشكلات المجتمع العربي، تطلعات الإنسان العربي، كفاح المواطن العربي من أجل غد أفضل، ومستقبل ازهى. إلى أي مدى يربط المسرح العربي المشاهد العربي بماضيه، وتراثه، وقيمه الحضارية والإنسانية ؟

أهو مسرح يرسخ من انتمائنا القومي والإنساني، أم يسهم في انجذابنا واغراقنا بموضوعات زائفة، أو مشكلات مفتعلة.

كلنا على علم أن المسرح، في عالم اليوم أصبح بآن واحد متعة، ورسالة، ومدرسة، وعلما، وفنا، يفترض أن تكون في مدرسة من مدارسنا وفي كل قرية من ريفنا، وفي كل مدينة من وطننا الكبير، دار للمسرح، وفرق مسرحية، فرق هواة ومحترفين، تقدم لنا العمل المسرحي الذي يزيد من ثقافتنا، وينمي معرفتنا، ويوقظ التساؤل في نفوسنا، ويزيدها غنى وعمقا. ان نداء المسرح موجه إلى كل أذن وإلى كل قلب، وإلى كل عقل.

إلى مسرح عربي أصيل، ذي سمات مستمدة من الهوية الحضارية العربية، كسمات الفن العربي في الخط والرسم والعمارة والموسيقى والغناء، إلى هذا المسرح العربي نهدف جميعا، نرجو لهذا المهرجان الأول للمسرح العربي المتنقل أن يكون احدى دعامات هذا المسرح الأصيل.

الشكر كله، عميقا وصادقا وأمينا للمغرب العربي، ملكا وحكومة وشعبا، على هذه البادرة الكريمة. بوركت وزارة الشؤون الثقافية في المغرب العربي، وبورك وزيرها، رجل الثقافة الدكتور سعيد ابن البشير، وبورك جميع من شاركوه في هذا الجهد القومي الفني الكبير. من قلوبنا جميعا نرجو لهذا المهرجان النجاح الذي يستحق.

وفقنا الله وأخذ بيدنا إلى ما فيه خير أمتنا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

د. أديب اللجمي

البرنامج العام لعروض المهرجان

التاريخ	القطر	المسرحية	المؤلف	المخرج
الاثنين 16 ابريل	فلسطين	ثورة الزنج	معين بسيسو	جواد الاسدي
الثلاثاء 17 ابريل	ليبيا	بضربة وحدة قتل عشرة	عبد الله البوصيري	عبد الله البوصيري
الاربعاء 18 ابريل	السعودية	صفعة في المرآة	عبد العزيز الصقعي	عبد الرحمن الرقراق
	المغرب	قاضي الحلقة	أحمد الطيب العلج	عبد اللطيف الدشراوي
الخميس 19 ابريل	الاردن	فرقة مسرحية وجدت مسرحا فسرحت هاملت	نادر عمران	خالد الطريفي
الجمعة 20 ابريل	العراق	المتنبي	عادل كاظم	ابراهيم جلال
السبت 21 ابريل	تونس	موال	حبيب شبيل	حبيب شبيل
الاحد 22 ابريل	قطر	عندما يكون غدا	اسماعيل تامر	علي مرزا محمود

التاريخ	القطر	المسرحية	المؤلف	المخرج
الاثنين 23 ابريل	الامارات العربية	مأساة أبي الفضل	خليفة العريفي	مجدي كامل
الثلاثاء 24 ابريل	الجزائر	قالوا العرب قالوا	عن المهرج لمحمد الماغوط	زياني الشريف عياد
الاربعاء 25 ابريل	السودان	ريش النعام	د. خالد المبارك مصطفى.	البشير سهل جمعة سهل
الخميس 26 ابريل	المغرب	كتاب الامتاع	الطيب الصديقي عن ابي حيان التوحيدي	الطيب الصديقي

برنامج العروض الموازية :

الخميس 19 أبريل	مسرحية جحا في الرحى «فرقة المسرح البلدي بالبيضاء».
الجمعة 20 أبريل	جنائزية الاعراس «لعبد الحق الزروالي».
السبت 21 أبريل	الحلقة فيها وفيها «لفرقة البدوي».

برنامج العروض الخاصة بمسرح الطفل :

تاريخ العرض	اسم الفرقة	عنوان العرض	مكانه
الجمعة 20 أبريل 1984	1) فرقة العرائس التابعة لوزارة الثقافة	منوعات	قاعة العمالة بسلا
	2)فرقة الفاضلي	عرس يامنة	قاعة علال الفاسي بأكدال الرباط
الأحد 22 أبريل 1984	1) فرقة العرائس التابعة لوزارة الثقافة	منوعات	قاعة علال الفاسي بأكدال الرباط
	2) فرقة الفاضلي	عرس يامنة	قاعة العمالة بسلا

ندوة المؤرخين المغاربة والإسبان
حول
المجتمع الاندلسي من خلال النصوص التاريخية والفقهية والأدبية

نظمت وزارة الشؤون الثقافية ندوة حول المجتمع الأندلسي من خلال النصوص التاريخية والفقهية والأدبية ما بين 9 و11 مايو 1984، افتتحها السيد وزير الشؤون الثقافية الدكتور سعيد ابن البشير بمسرح محمد الخامس بحضور سفير اسبانيا بالمغرب وبعض أعضاء السلك الدبلوماسي وعدد من رجال الأدب والثقافة المغاربة والاسبان، وألقى خطابا بالمناسبة جاء فيه :

نص خطاب
السيد وزير الشؤون الثقافية
الدكتور سعيد ابن البشير

بسم الله الرحمن الرحيم

معالي الوزراء
أصحاب السعادة السفراء
سعادة والي الرباط وسلا
حضرات السيدات والسادة

يسعدني أن أعرب لكم عن الابتهاج الشديد الذي يغمرني، وأنا أفتتح هذا اللقاء التاريخي الحافل، كما يسعدني ـ باسم حكومة صاحب الجلالة ـ أن أرحب بالسادة الأساتذة ـ أعضاء الوفد الاسباني ـ الذين وفدوا على بلادنا، وفادة الجار على الجار. فنعم الوفادة وأهلا ومرحبا بهم في المغرب، للمشاركة في هذا اللقاء العلمي الذي كثيرا ما تشوفنا إلى انعقاده، لما يحمل في مكنونه من المعاني والرموز الوهاجة الدالة، تبرز بوضوح وجلاء، مدى العلاقات الجوهرية الصميمة الراسخة بين العدوتين الجارتين في جميع المجالات، والتي نوه بها ـ في أكثر من مناسبة ـ العاهلان الكبيران صاحب الجلالة الحسن الثاني وصاحب الجلالة خوان كارلوس.

إنها لسانحة كريمة، تجمع فئة ممتازة من رجال الفكر في القطرين المتجاورين : اسبانيا والمغرب، ليتدارسوا جانبا تاريخيا مشتركا، وإني أؤكد

اقتناعي بضرورة تكرار مثل هذا اللقاء العلمي وبكيفية منتظمة، هنا في المغرب وهناك في اسبانيا، لمتابعة البحث والتنقيب في ماضينا المشترك، وما أوسع هذا الماضي ! وما أكثر تشعب جوانبه الحضارية ومظاهره الفكرية ! ذلك أن الصلات المغربيةَ الاسبانيةَ ليست مجرد صلات تاريخية تنحصر في القرون الثمانية لاسبانيا المسلمة، وإنما تضرب جذورها في أعماق التاريخ لتستمر إلى أيامنا هذه، بل هي أكثر من ذلك، صلات جغرافية ثابتة، أوجبت في الماضي وتوجب في الحاضر والمستقبل جوارا دائما، وتساكنا حسنا، وتعاونا مجديا.

ان الموضوع المختار لهذه الندوة : «المجتمع الأندلسي من خلال النصوص التاريخية والفقهية والأدبية» موضوع واسع فضفاف، أملته طبيعة التهيوء وظروفه قبل أن يتم الاتصال المباشر بين المعنيين بالأمر في البلدين. وإذا كانت هذه السعة تنقص شيئا ما من تحديد الموضوع ودقته، فإنها ـ طبعا ـ تفسح مجال القول أمام كل مشارك حسب تخصصه واهتماماته. وسيخطط الأساتذة المشاركين ـ ولا شك ـ للقاءاتهم العلمية المقبلة بما يلزم من التدقيق والتمحيص.

ستتناول ندوتنا هذه ـ كما تلاحظون ـ جوانب مختلفة من تاريخ الأندلس، يتمحور معظمها حول الموضوع الرئيسي المتعلق بالمجتمع، ويبتعد بعضها قليلا عنه في الظاهر ولكنه يظل مرتبطا به ارتباطا عضويا. فكم نحن سعداء بالتعرف إلى الدراسات الأندلسية المنجزة في جامعتي غرناطة، وبرشلونة، والمتحف الأثري باشبيلية، فهي ـ بلا ريب ـ تماس المجتمع الأندلسي قليلا أو كثيرا، ولا تخرج عن محيطه قطعا. ولدينا في المغرب كذلك دراسات أندلسية أنجزها جامعيون في مختلف الكليات والمعاهد التابعة

لجامعة محمد الخامس بالرباط، وجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، وجامعة القرويين، سيكون التعريف بها موضوع عروض بعض الأساتذة المغاربة المشاركين في اللقاء المقبل إن شاء الله.

وسنستمتع في هذه الندوة كذلك بمداخلتين عن سمات المجتمع الأندلسي في قرطبة وغرناطة، من خلال نصوص فقهية أيام المرابطين والنصريين، والكل يعلم أهمية التراث الفقهي الأندلسي، لا على صعيد الغرب الإسلامي فحسب، ولكن على الصعيد الإسلامي عموما، حيثما وجد المذهب المالكي في مصر، والشام، والجزيرة العربية، والعراق وما وراءها. ويكفي ذكر اسم عدد قليل من السلسلة الطويلة لأعلام فقهاء الأندلس الذين بلغوا درجة الاجتهاد، أمثال ابن رشد، وابن عتاب، وابن الحاج، وابن لبابة، وابن سلمون، وابن أبي زَمَنِين، ونموذج بسيط من موسوعاتهم الفقهية التي طبقت شهرتُها الآفاق، أمثال، الإجماع، والأحكام، وأحكام السوق، والبيان والتحصيل، والمستَخْرَجَة، والمجالس، والواضحة. أي إن هذا الجانب وحده من علم الأندلس، لو تفرغ له الفقهاء المتخصصون في العُدوتين لاستقصائه واستنطاقه للزمهم حينٌ من الدهر غيرُ يسير.

وستتيح لنا الندوة كذلك التعرف إلى أنواع من الخطاب الأندلسي الأدبي الرفيع، واللحن العامي، ومن خلال ذلك نستشف عقليةَ المخاطِبين والمخاطَبين ونحن نستمع إليهم يتنادون ويتحاورن أو يتسامرون. وسنرى المرأة الأندلسية كذلك في وسطها الطبيعي متأثرة به ومؤثرة فيه، متعلمة منتجة، تحيا حياتها العادية في الخِدر، وتتزوج في طقوس دينية وتقاليد عريقة، وتشارك في الحياة وتمرح في مقاصير الدور والقصور، أو تسرح في شعاب الأودية والوهاد.

وسيتفضل بعض ضيوفنا الأساتذة المحترمين فيحدثنا عن أحد الكتب التاريخية المفيدة التي لم يُكشف بعدُ عن هُويتها، وما أكثر هذه الكتب المجهولة المؤلفين في تاريخ المغرب والأندلس ! وما أحراها بالدرس والتمحيص ! وزميل له يحدثنا عن حي تاريخي بفاس، وما زالت حتى اليوم مدينة فاس الأصيلة مكونة من شطريها الكبيرين : فاس الأندلس وفاس القرويين. كما سيلتقي باحثان اسباني ومغربي من المشاركين في الندوة في القاء الأضواء على أوضاع الأندلسيين بعد نهاية دولة الإسلام في الجزيرة الإيبيرية، فيحدثنا الأول عن القواد الغرناطيين العاملين في الجيش السعدي، والثاني عن لغة الموريسكين العربية ـ الأعجمية.

☆ ☆ ☆

أيتها السيدات
أيها السادة

إن ارساء قاعدة التعاون بين المثقفين الاسبان والمغاربة الذي نرجو صادقين أن يكون هذا اللقاء لبنة أولى في صرحه، من شأنه أن يوقظ، ولا أقول يُحيي، صلات وتقاليد عريقة بين العُدوتين، عرفتها الأجيال والقرون، وآتت أكلها طيبا شهيا للثقافة الإنسانية والحضارة البشرية. إن أمامنا آفاقا فسيحة جدا للتعاون الثقافي، سواء في ميدان البحث التاريخي الذي ندشنه اليوم، أو في ميدان الآثار والأركيولوجيا، ففاس وقرطبة مثلا، بل اسبانيا كلها والمغرب كله، يُكوِّنان ميدانا خصبا للعمل العلمي البناء. وفي المغرب من كتب الأندلس ووثائقها ما في اسبانيا من ذخائر الكتب والوثائق المغربية، الأمر الذي يستدعي تعاونا مثمرا في استكشاف هذه

الثروات الفكرية، والتعريف بها والاستفادة منها. وما أمرُ الاعلام الثقافي بهيّنٍ. فمن شأن إحكام الصلات واقامة الجسور أن يمهّد السبيل لاطلاع المثقفين باستمرار على الانتاج الفكري هنا وهناك، وبذلك يتحقق التقارب، والتعاون، والتكامل.

أرحب مرة أخرى بضيوفنا الأساتذة المحترمين، وأتمنى لهذه الندوة ما تستحقه من نجاح، وللتعاون الثقافي المغربي الاسباني مزيدا من التقدم والفعالية.

د. سعيد ابن البشير

ورد عليه سفير المملكة الاسبانية بالمغرب الدكتور رايموند وداسولس بخطاب نوه فيه بالعلاقات الثقافية التي تجمع البلدين وعن سرور بلاده بمشاركتها في هذه التظاهرة الثقافية.

وقد كان برنامج الندوة كما يلي :

برنامج
ندوة المؤرخين المغاربة والاسبان

الأربعاء 9 مايو 1984 .

صباحا :

الساعة 10 ـ 11 : حفل الافتتاح

خطاب السيد وزير الشؤون الثقافية الدكتور سعيد ابن البشير.

خطاب السيد سفير اسبانيا بالمغرب الدكتور رايموند وباسولس.

حفلة شاي.

12 زوالا : زيارة ضريح محمد الخامس

مساء :

الساعة 15 ـ 18 : الجلسة الأولى برئاسة الأستاذ خوسى ماريا فورنياس

أ) عروض :

الأستاذة مانويلا مارين

الأستاذ محمد ابن شريفة

الأستاذة أوخينيا كالفيز

الأستاذ محمد حجي

الأستاذ حسن الوراكلي

الأستاذ براوليو خوسطيل

ب) مناقشة :

الخميس 10 مايو 1984 .

صباحا :

الساعة 10 ـ 13 : الجلسة الثانية برئاسة الأستاذة عزيزة بناني

أ) عروض :

الأستاذ عباس الجراري

الأستاذ خاثينطو بوش فيلا

الأستاذ محمد زنيبر

الأستاذ عبد السلام الهراس

الأستاذ محمد ابن عبود

الأستاذ فرناندو. دي لا كَرانخا

ب) مناقشة :

مساء :

الساعة 15 ـ 18 : الجلسة الثالثة برئاسة الأستاذة ماريا خيسوس فيكَرا

أ) عروض :

الأستاذ لويس مولينا

الأستاذة عزيزة بناني

الأستاذة مرثيديس كرثيا أرنال

الأستاذ عبد العالي الودغيري

الأستاذ خورخي أكوادي

الأستاذ الحسن بوزينب

ب) مناقشة :

التوصيات الصادرة عن السادة المشاركين في الندوة المغربية الإسبانية حول المجتمع الأندلسي من خلال النصوص التاريخية والفقهية والأدبية

في أعقاب الندوة المغربية الاسبانية حول : «المجتمع الأندلسي من خلال النصوص التاريخية والفقهية والأدبية «المنعقدة بالرباط من 9 إلى 11 مايو 1984، اجتمع الوفدان الاسباني والمغربي برئاسة الدكتور سعيد ابن البشير، وزير الشؤون الثقافية، لتقييم أعمال الندوة، واستخلاص

النتائج المتوخاة منها، لقيام حوار مثمر مستمر بين العلماء والباحثين والأدباء المغاربة والاسبان، للمزيد من ارساخ العلاقات الثقافية بين البلدين الصديقين وتعزيزها وتطويرها، ولتحقيق هذه الأهداف صدرت عن المجتمعين التوصيات الآتية :

1)مواصلة الحوار عن طريق لقاءات وندوات دورية. ويبدي الجانبان رغبتها في أن تنعقد الندوة الثانية خلال سنة 1985 في اسبانيا.

2) تعزيز التبادل والتعاون في الميدان البيبليوغرافي الخاص بتاريخ الأندلس والمغرب وحضارتها.

3) التعاون في دراسة آثار الأندلس والمغرب.

4) التعاون في النشر المشترك لعدد من المخطوطات، الأندلسية والمغربية أو التي تهم الأندلس والمغرب.

5) دراسة امكانية ترجمة بعض الأبحاث والكتب المهمة إلى اللغتين.

6) دراسات مشتركة عن التبادل الحضاري بين البلدين عبر العصور.

7) الاهتمام بالتراث الموسيقي الأندلسي.

8) دراسات مشتركة عن الفنون والصناعات التقليدية في الأندلس والمغرب.

9) يبقى الجانبان على اتصال لتحديد بعض الموضوعات الصالحة للندوات العلمية المقبلة.

10) توصي الندوة بدراسة موضوع توأمة بعض المؤسسات الثقافية في البلدين وبصفة خاصة المكتبات.

تشجيع المؤلفين والناشرين

رغبة من وزارة الشؤون الثقافية في تنمية الثقافة ببلادنا، والعمل على تطويرها والرفع من مستواها حتى تتمكن من القيام بواجبها في دفع عجلة التقدم إلى الامام، وتحقيق الازدهار الاقتصادي والاجتماعي الشامل.

ورغبة منها في تشجيع الكتاب المغربي ولا سيا الجيد منه ومساعدة العاملين بجهودهم الفردية من مؤلفين وناشرين في خدمة الثقافة المغربية وتأصيلها.

فقد تقرر أن تقوم هذه الوزارة بتشجيع الكتب التي ألفها مغاربة أو حققوها أو ترجموها، وكذا الكتب التي أنتجها غير المغاربة في موضوع مغربي، وذلك عن طريق شراء عدد معين من نسخها المطبوعة وفق المقاييس التالية :

الفئة الأولى :

ما أوصت الوزارة بنشره، تشترى منه عند صدوره ـ حسب التحديد الذي اقرته لعدد النسخ ـ :

أ ـ نسبة تمثل عشرين بالمائة (20 ٪) في الحد الأدنى إذا لم يتجاوز العدد المطبوع ثلاثة آلاف (3000) نسخة.

ب ـ نسبة تمثل خمسة عشر بالمائة (15 ٪) في الحد الأدنى إذا تجاوزت النسخ المطبوعة العدد المذكور.

هذا ويشترط في الانتاج الخاص بهذا الصنف أن يقدم للوزارة في ثلاث نسخ مرقونة على الآلة الكاتبة، ليتسنى عرضه على الخبراء المختصين لفحصه وإبداء رأيهم فيه، وتصدر الوزارة توصيتها بالطبع بناء على تقرير هؤلاء الخبراء.

الفئة الثانية :

ما طبعه المؤلف أو الناشر تحت مسؤوليته، تشترى منه الوزارة عند صدوره.

أ ـ نسبة تتراوح ما بين خمسة عشر (15 ٪) وعشرين بالمائة (20 ٪) إذا كان المطبوع منه لا يتجاوز ثلاثة آلاف (3000) نسخة.

ب ـ نسبة تتراوح ما بين عشرة (10 ٪) وخمسة عشر بالمائة (15 ٪) إذا تجاوزت النسخ المطبوعة العدد المذكور.

هذا وتقدم كتب هذه الفئة في ثلاث نسخ تحيلها الوزارة على خبراء مختصين يتولون فحصها وتحديد النسبة التي ينبغي اقتناؤها منها مراعين في اختيارهم :

- أن يكون الكتاب ذا قيمة علمية.
- أن يكون منشورا لأول مرة أو أعيد نشره بتحقيق علمي.
- أن يكون حسن الاخراج سليما من الأخطاء.
- أن لا يكون كتابا مدرسيا.
- أن لا يكون قد مضى على طبعه أكثر من سنة.

أن يثبت على غلافه :

- سعر البيع للعموم.
- رقم الايداع القانوني.
- تاريخ الطبع.

وترفق بهذه العناصر شهادة من المطبعة بعدد النسخ المطبوعة من الكتاب.

ويمكن للمؤلف أو الناشر الواحد الاستفادة من عدة مساعدات إذا تعددت مؤلفاته المرشحة.

مشاركة المغرب في المؤتمر الثقافي الافريقي

توجه السيد وزير الشؤون الثقافية الدكتور سعيد ابن البشير صحبة مدير ديوانه الأستاذ محمد الصباغ مساء يوم الأحد 3 يونيه 1984 إلى مالابو، عاصمة غينيا الاستوائية لتمثيل المغرب في المؤتمر الثقافي الافريقي الاسباني.

كان هذا المؤتمر - الذي انتخب المغرب نائبا لرئيسه - مناسبة لعدد من الدول الافريقية ودول أمريكا اللاتينية واسبانيا لدراسة عدة قضايا تتعلق بوضع الثقافة في افريقيا والعلاقات الثقافية بين هذه الدول.

والجدير بالذكر أن المغرب تقدم لهذا المؤتمر بدراسة حول العلاقة بين الثقافة والتربية. كما أن هذا المؤتمر صدرت عنه عدة توصيات اهمها الدعوة إلى أن يصبح المؤتمر دوليا وضرورة اتخاذ التدابير الكفيلة بالمحافظة على الشخصية الثقافية.

ومن جهة أخرى، استقبل السيد وزير الشؤون الثقافية من لدن رئيس جمهورية غينيا الاستوائية الكولونيل تيودورو أوبيانغ نغيما الذى عبر له عن ارتياحه للعلاقات الممتازة التي تجمع المغرب بغينيا الاستوائية، وطلب منه تبليغ تحياته وتقديره الكبير لجلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره.

أنشطة وزارة الشؤون الثقافية بمناسبة حلول شهر رمضان المعظم

اسهاما من وزارة الشؤون الثقافية في تأصيل القيم الروحية والحضارية في المجتمع المغربي، نظمت خلال شهر رمضان المعظم أنشطة ثقافية في مختلف أقاليم المملكة تحت شعار «نحو ثقافة اسلامية أصيلة» بمشاركة صفوة من الأساتذة اشتملت على محاضرات وندوات، كما اشتمل برنامج هذه الأنشطة على عرض أشرطة سينمائية وحفلات للأطفال وعروض مسرحية وغيرها.

المهرجان الوطني الثالث للموسيقى الأندلسية بمدينة شفشاون

نظمت وزارة الشؤون الثقافية ما بين 4 و7 يوليوز 1984، المهرجان الوطني الثالث للموسيقى الأندلسية بمدينة شفشاون. اشتمل برنامج هذا المهرجان على ندوات وحفلات موسيقية بمشاركة أجواق الموسيقى الأندلسية بمدن الرباط ومكناس وتطوان وطنجة وشفشاون.

بـلاغ
حول جائزة المغرب لسنة 1984

ان جائزة المغرب لسنة 1984، ستمنح في نهاية السنة الحالية.

وبناء على هذا، فإن وزارة الشؤون الثقافية تنهي إلى علم الراغبين في المشاركة أن يوجهوا الكتب التي يودون ترشيحها لهذه المسابقة قبل يوم الأربعاء 31 أكتوبر 1984.

وعلى من يريد الاطلاع على الشروط المطلوبة قانونا أن يعود إلى القرار الوزيري الصادر في الجريدة الرسمية عدد 3230 رقم 75474 بتاريخ 17 شعبان 1394 (الموافق 5 سبتمبر 1974)، أو أن يتصل بمصلحة المكتبات والنشر والتوزيع التابعة لوزارة الشؤون الثقافية.

بـلاغ
حول نتيجة جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1984

بعد أن أنهت اللجنة المعينة لفحص المخطوطات والوثائق لنيل «جائزة الحسن الثاني» لهذه السنة، عرضت نتائج أعمالها على السيد وزير الشؤون الثقافية الدكتور سعيد ابن البشير، وذلك بمنح الجوائز المقررة في إطار الجائزة المذكورة كالتالي :

أولا : منح الجوائز التقديرية على ثلاث مراتب :

أ ـ الجائزة التقديرية الأولى وقدرها (5.000 درهم) للسيد الحاج محمد السقاط من الدار البيضاء عن كتابيه :

1) منتخب الأحكام : لأبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن أبي زمنين المرى الالبيري (324 ـ 399 هـ) وهو صاحب مختصر تفسير يحيى بن سلام. ـ نسخة تامة بخط أندلسي كتبت أوائل القرن السابع الهجري (605 هـ).

2) قطعة من تفسير القرآن الكريم، وبالهامش تفسير آخر ولم يسم مؤلفها. والقطعتان بخط مشرقي من خطوط القرن السادس (559 هـ).

ب ـ الجائزة التقديرية الثانية وقيمتها (4.000 درهم) للسيد مولاى عبد اللطيف الشرعي من مراكش عن كتابيه :

1) اتحاف ذوي الذكاء والمعرفة بتكميل أبي الحسن وتحليل تعقيد ابن عرفة لمؤلفه الإمام ابن غازي المكناسي محمد بن أحمد المتوفي سنة 919 هـ).

السفر الثاني منه، كتب أواخر شوال سنة 979 هـ.

2) مجموع : كله بخط الإمام العلامة أحمد بن يحي الونشريسي المتوفي سنة 914 هـ، ويضم المؤلفات التالية :

1 ـ أجوبة عبد الله القوري المكناسي.
2 ـ اختصار مختصر مصطفى ابن عرفة الفقهي.
3 ـ مثلى الطريقة في ذم الوثيقة للسان الدين ابن الخطيب.
4 ـ تنبيه الطالب الدارك على توجيه صحة الصلح المنعقد بين ابن صعد والحباك.
5 ـ إلكتاب المهدي لخطأ الحميدي.
6 ـ إضاءة الحلك في الرد على من افتى بتضين الداعي المشترك.
7 ـ تقييدات على صحيح مسلم لابن الشاط البجائي عيسى بن أحمد من علماء بجاية.
8 ـ وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده.

ج ـ الجائزة التقديرية الثالثة قيمتها (3.000 درهم) السيد محمد حماد الصقلي من الرباط عن الكتب التالية :

مجموع فيه :
1 ـ الكوكب الوقاد في فضل المشايخ وحقائق الأوراد للمختار الكنتي.
ـ إنسان العين في الحفظ من العين.
2 ـ كناشة لبعض العلماء وفيها تقاييد علمين في الفقه والتصوف والتاريخ.
3 ـ كتاب في التصوف لأبي عبد الله الساحلي الأنصاري الغافقي.
4 ـ نظم في أصل الطريقة الشاذلية التي بينها الشيخ زروق في الأجوبة.
5 ـ السيف الحاد في الرد على ما أتى به مصطفى (بن رمضان) من الالحاد.
6 ـ استكمال القصد في شرح منظومة ابن رشد لأبي العباس أحمد بن محمد الحساني.

ثانيا : ومن جهة أخرى تقرر منح اثنى عشرة جائزة تشجيعية على ثلاث مراتب.

أ ـ جائزة تشجيعية واحدة من الدرجة الأولى قيمتها (1.500 درهم).

ب ـ سبع جوائز تشجيعية من الدرجة الثانية قيمتها (1.000 درهم).

ج ـ أربع جوائز تشجيعية من الدرجة الثالثة قيمتها (500 درهم).

الجزء الثاني من فهرس مخطوطات خزانة تطوان

صدر عن وزارة الشؤون الثقافية الجزء الثاني من فهرس مخطوطات خزانة تطوان، اشتمل على المخطوطات المتعلقة بمصطلح الحديث والسيرة النبوية.

يقع الكتاب في 266 صفحة من القطع المتوسط، ويضم التعريف المركز للمخطوطات وفهارس لعناوين المخطوطات حسب حروف المعجم بالاصطلاح المغربي، ولأسماء المؤلفين وأسماء الناسخين.

فهرس بيبليوغرافي

يسرّ "المناهل" أن تضع بين أيدي السّادة الباحثين والدّارسين هذا الفهرس البيبليوغرافي الخاصّ بأسماء الكتّاب الذين أسهموا بإنتاجاتهم فيها من عددها (26) - جمادى الأولى 1403 (مارس 1983) إلى عددها (30) - شوال 1404 (يوليو 1984).

وقد سبق لها أن نشرت في عددها (25) القسم الأول من فهرسها البيبليوغرافي الذي يبتدئ من عدد (1) - ذو القعدة 1394 (نونبر 1974) الى عدد (25) - صفر 1403 (دجنبر 1982).

ـ أ ـ

ابن البشير، سعيد

خطاب ألقاه بمناسبة افتتاح اشغال لقاء دورة الأمانة العامة للمراكز والهيآت العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية (فاس ـ 21 ـ 26 فبراير 1983).
ع 26
ص 367 / 372.
جمادى الأولى 1403 (مارس 1983).

ابن البشير، سعيد

خطاب ألقاه بمناسبة افتتاح الأسبوع الثقافي ـ التونسي بالمغرب.
ع 26.
ص 387 / 392.
جمادى الأولى 1403 (مارس 1983).

ابن البشير، سعيد

(الصرح الثقافي الحضاري المشترك بين العرب والأفارقة) خطاب افتتح به الجلسة الافتتاحية لأعمال مجلس أمناء المنتدى الثقافي العربي ـ الإفريقي (16 إلى 18 يوليوز 1983).
ع 27.
ص 363 / 368.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

ابن البشير، سعيد

مقابلة صحفية خص بها جريدة «الراية» القطرية بتاريخ 14 أبريل 1983.
ع 27.
ص 374 / 390.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

ابن البشير، سعيد

خطاب ألقاه بمناسبة «اللقاء الثاني للسينما الافريقية» الذي نظمته «الجامعة الوطنية للأندية السنمائية» من 3 إلى 10 شتنبر 1983 بمدينة خريبكة.
ع 28.
ص 361 / 368.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

ابن البشير، سعيد

خطاب ألقاه بمناسبة انعقاد اجتماع اللجنة الوطنية للثقافة (27 يناير 1984).
ع 28.
ص 369 / 381.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

ابن البشير، سعيد

خطاب ألقاه في الحفلة الافتتاحية للقاء العلمي حول : «تاريخ الأندلس وابن حيان»
ع 29.
ص 16 / 22.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

ابن البشير، سعيد

الكلمة التي قدم بها كتاب «المسيرة الخضراء» ملحمة شعب يوحد بلاده بقيادة ملكه.
ع 30.
ص 370 / 373.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

ابن البشير، سعيد

خطاب ألقاه بمناسبة افتتاح مهرجان المسرح العربي المتنقل.
ع 30.
ص 374 / 382.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

ابن البشير، سعيد

خطاب ألقاه بمناسبة افتتاح ندوة المؤرخين المغاربة والإسبان حول المجتمع الأندلسي من خلال النصوص التاريخية والفقهية والأدبية.
(9 / 11 مايو 1984).
ع 30.
ص 390 / 394
شوال 1404 (يوليوز 1984).

ابن تاويت، محمد

كتاب الإحاطة لابن الخطيب (القسم الأخير).
ع 26.
ص 109 / 193.
جمادى الأولى 1403 (مارس 1983).

ابن تاويت، محمد

المغرب ودول الخليج عبد التاريخ.
ع 27.
ص 101 / 111.
شوال 1304 (يوليوز 1983).

ابن تاويت، محمد

التوهم في اللغة.
ع 28.
ص 36 / 44.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

ابن سلامة، البشير

خطاب ألقاه بمناسبة افتتاح الأسبوع الثقافي التونسي بالمغرب.
ع 26.
ص 380 / 387.
جمادى الأولى 1403 (مارس 1983).

ابن سلامة، البشير

حول الأسبوع الثقافي التونسي (14 إلى 20 مارس 1983).
ع 27.
ص 369 / 373.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

ابن عبد الجليل، عبد العزيز

الصناعة التقليدية للآلات الموسيقية.
ع 27.
ص 130 / 155.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

ابن عبد الله، عبد العزيز

التطور الحضاري ومظاهره في إقليم الجديدة.
ع 27.
ص 37 / 62.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

ابن عبد الله، عبد العزيز

شفشاون وآثارها المعمارية عبد التاريخ.
ع 28.
ص 21 / 35.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

ابن عبد الله، عبد العزيز

بين أنفا والدار البيضاء.
ع 30.
ص 90 / 107.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

الأوسى، حكمة علي

المفاهيم التقليدية عند الجاحظ.
ع 27.
ص 241 / 267.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

- ب -

البقالي، أحمد عبد السلام

وسالت مدامع النور... (قصة).
ع 27.
ص 294 / 318.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

البقالي، أحمد عبد السلام

من غير رام.
ع 28.
ص 308 / 330.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

البقالي، أحمد عبد السلام

ما العقل أو كيف يعمل المخ ؟
ع 30.
ص 221 / 241.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

بوشرب، أحمد

مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب، والبحر الأحمر، والخليج العربي وما تولد عنه من ردود فعل.
ع 26.
ص 32 / 83.
جمادى الأولى 1403 (مارس 1983).

بوشرب، أحمد

معركة وادي المخازن.
ع 28.
ص 113 / 133.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

- ت -

التازي، عبد الهادي

الدبلوماسيون المغاربة وانطباعاتهم حول المجتمع الانجليزي.
ع 27.
ص 93 / 100.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

التازي، عبد الهادي

عرصة النيل بأكدال مراكش وقصة المركب الذي تفجر في البركة.
ع 28.
ص 102 / 112.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

التازي، عبد الهادي

العلاقات المغربية الأندلسية.
ع 29.
ص 418 / 430.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

التازي، محمد سعود

محاولة في الاقتصاد المغربي في عهد الملك يوبا الثاني وابنه بطليوس 25 ق م ـ 40 ق م.
ع 26.
ص 9 / 31.
جمادى الأولى 1403 (مارس 1983).

توري، عبد العزيز

حول كنز صغير حديث الاستكشاف.
ع 30.
ص 279 / 297.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

- ج -

الجنحاني، الحبيب

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الأندلس في عصر عبد الرحمان الناصر.
ع 29.
ص 343 / 355.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

- ح -

الحبابي، فاطمة الجامعي

فلسفة أولا فلسفة، ليس ذاك هو المشكل.
ع 27.
ص 226 / 236.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

حجي، عبد الرحمن

قصيدة رائعة في رثاء الأندلس لشاعر أندلسي مجهول.
ع 28.
ص 342 / 360.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

الحجي، عبد الرحمن علي

ابن حيان القرطبي، مؤلفاته ومنهجيته.
ع 29.
ص 237 / 241.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

حجي، محمد

مكتبات الصحراء المغربية.
ع 28.
ص 7 / 20.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

حجي، محمد

تقديم.
ع 29.
ص 11 / 15.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

الحلواني، محمد خير

مفهوم الجملة في اللسانيات والنحو العربي.
ع 26.
ص 194 / 231.
جمادى الأولى 1403 (مارس 1983).

الحلوي، محمد

هلال (شعر).
ع 28.
ص 152 / 153.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

حماد، محمد

الكتابة القصصية في القرن الثاني.
ع 30.
ص 312 / 337.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

حمادة، فاروق

المعرفة الإنسانية، أسسها القرآنية وآفاقها.
ع 28.
ص 218 / 259.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

- خ -

خضر، حازم عبد الله

أبو مروان ابن حيان، أديبا وكاتبا.
ع 29.
ص 188 / 221.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

خلاف، محمد عبد الوهاب

وثيقة في رد المكائد (في البيع والاكراه) في الأندلس.
ع 26.
ص 299 / 310.
جمادى الأولى 1403 (3 مارس 1983).

الخياري، علال الهاشمي

على ضفاف أم الربيع (شعر).
ع 28.
ص 340 / 341.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

- د -

الدباغ، محمد بن عبد العزيز

كتاب السير لأبي اسحق ابراهيم بن محمد الحارث الفزاري.
ع 30.
ص 349 / 361.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

- ر -

الراجي، التهامي الهاشمي

نظم وإدارة بني أمية بـالأنـدلس من خـلال المقتبس.
ع 29.
ص 356 / 417.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

- ز -

زمامة، عبد القادر

نص أندلسي لم ينشر : قصيدة ابن عبديس.
ع 26.
ص 291 / 298.
جمادى الأولى 1403 (3 مارس 1983).

زمامة، عبد القادر

مع أبي سالم العياشي في رحلته إلى المشرق.
ع 27.
ص 156 / 168.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

زمامة، عبد القادر

الأزهر والأصدع.
ع 28.
ص 204 / 217
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

زمامة، عبد القادر

ابن حيان وأهل العدوة.
ع 29.
ص 431 / 442.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

زمامة، عبد القادر

مع أبي سالم العياشي في رحلته إلى المشرق.
ع 30.
ص 116 / 126.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

زنيبر، محمد

الطريق الطويلة (قصة).
ع 27.
ص 169 / 204.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

الزهيري، قاسم

الدراسات العربية والإسلامية في إسبانيا الحديثة.
ع 28.
ص 45 / 50.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

الزهيري، قاسم

الوجود العربي في سويسرة.
ع 30.
ص 108 / 112.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

- ش -

الشكعة، مصطفى

أبو مروان ابن حيان بين الأدب الابداعي وأدب كتابة التاريخ.
ع 29.
ص 144 / 187.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

- ص -

الصفار، ابتسام مرهون

المستخرج من تاريخ ابن حيان.
ع 29.
ص 452 / 470.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

الصقلي، علي

عاريتان (شعر).
ع 26.
ص 264 / 266.
جمادى الأولى 1403 (مارس 1983).

الصقلي، علي

هواجس... (شعر).
ع 27.
ص 237 / 240.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

الصقلي، علي

هواجس - 2 -
ع 28.
ص 260 / 262.
ربيع الأول 1404 (دجنبر 1983).

- ط -

الطريبق، حسن

بين حبال الظن (شعر).
ع 30.
ص 298 / 300.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

- ع -

العاصمي، مالكة

أنواع الأدب الشعبي بالمغرب.
ع 30.
ص 362 / 368.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

العبادي، أحمد مختار

خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى.
ع 29.
ص 332 / 342.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

عباس، احسان

طريقة ابن حيان في الكتابة التاريخية.
ع 29.
ص 109 / 143.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

عبد الحميد، محسن

الإسلام والتنمية الاجتماعية.
ع 27.
ص 268 / 293.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

عبد الحميد، محسن

إقبال فيلسوف الذات وشاعر الأمل.
ع 30.
ص 242 / 278.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

عبد الرحمن، عائشة (بنت الشاطئ)

أبو مروان ابن حيان القرطبي وتاريخ الأندلسي في قراءة جديدة.
ع 29.
ص 23 / 108.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

ـ ف ـ

الكتاني، محمد

إشكالية اللغة والفكر.
ع 30.
ص 9 / 31.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

كنون، عبد الله

نقطة ضعف في تاريخ ابن حيان.
ع 29.
ص 301 / 309.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

- ل -

اللجمي، أديب

خطاب بمناسبة افتتاح مهرجان المسرح العربي المتنقل.
ع 30.
ص 383 / 386.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

لغزيوي، علي

ابن عصفور الاشبيلي وكتابه «ضرائر الشعر».
ع 30.
ص 157 / 174.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

- م -

مزين، محمد

المقاومة الشعبية المغربية للتدخل الأجنبي في بداية القرن السادس الميلادي.
ع 27.
ص 205 / 225.
شوال 1403 (يوليوز 1983).

مفتاح، محمد

منهاجية ابن حيان في تأريخ الأدب ونقده.
ع 29.
ص 222 / 236.
جمادى الثانية 1404 (مارس 1984).

المنوني، محمد

مقيدة عن نشاط دراسة الرياضيات والفلك بمكناس.
ع 30.
ص 32 / 89.
شوال 1404 (يوليوز 1984).

الوزاني، عبد العلي

لحظة المفاجأة...
ع 26.
ص 89 / 108.
جمادى الأولى (مارس 1983).

الوزاني، عبد العلي

بين بابين.
ع 27.
ص 63 / 92.
شوال 1403 (يوليوز 1983).